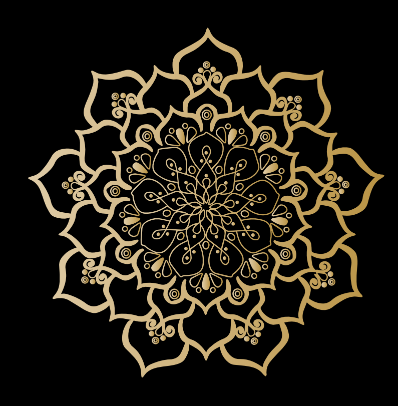
الموسوعة القرآنية

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن الكريم



تأليف

عصام الدين عبد الحميد الهنامي



بيانات النشرة

عنوان الكتاب: سيرة الرسول ﷺ في القرآن الكريم.

المؤلف: عصام الدين عبد الحميد الهنامي.

تاريخ النشرة: ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.

الإخراج الفني: مركز فائق للخدمات العلمية.



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا
وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا
٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾

[الأحزاب: ٤٥-٤٧]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد.

فهذا كتابٌ أريد به أن يكون تتمة لكتابي: «القصة في القرآن الكريم»؛ حيث تناولت فيه قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم. ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين كان ينبغي أن تُضم سيرته إلى سيرهم ولكن سيرته الشريفة تستغرق قدرًا كبيرًا من القرآن الكريم فخشيت أن يتضخم الكتاب. وآثرت أن أتناول سيرته وحده في كتاب.

وسيكون منهجي في هذا الكتاب نفس المنهج الذي اتبعته في قصص الأنبياء فأعتمد على القرآن الكريم أساسًا؛ فأتناول من سيرته الشريفة ما ورد في القرآن الكريم موجزًا أو مفصلًا أو مشارًا إليه أدنى إشارة. وأستعين في شرح آيات سيرته بما ورد في الأحاديث الشريفة وكتب السيرة النبوية. وقد أشير إلى بعض الأحداث التي لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم إذا كان في الحديث عنها إتمام للصورة، أو سد لفجوات بين الأحداث. فالمعروف أن القرآن الكريم ليس تاريخًا لحياة الرسول ﷺ وإنما يورد من أحداث حياته، وتفصيلات جهاده في سبيل الدعوة، وأطراف حياته الخاصة ما يكون فيه هداية للناس، ورسم للقدوة والمثل الأعلى، وتشريع لبعض الأحكام.

ولكني أريد أن أقدم صورة كاملة للرسول ﷺ من خلال القرآن الكريم وهذا سيدفعني إلى أن أذكر الأحداث التي لم ترد فيه على أن تكون ضرورية في إكمال الصورة.

وسأُرتب الأحداث ترتيبًا زمنيًّا؛ فأبدأ بالحديث عن البيئة المكانية

والاجتماعية التي عاش فيها الرسول فأتحدث عن مكة بلد الرسول وعـن قـريش قبيلته، ثم أذكر الإشارات التي وردت في القرآن عن طفولته، ثم أتناول بدء الوحي والجهاد في سبيل الدعوة ثم الهجرة وتنظيم أمور المدينة، ثم أتناول جهاد الرسول ﷺ العسكري وغزواته. كما أتناول جوانب من حياته الاجتماعية تناولهـا القـرآن فأتحدث عن نسائه، وعن الآداب التي ينبغي أن تراعى نحو الرسـول الكـريم مـن أصحابه والمتعاملين معه، إلى غير ذلك مما حفلت به سـيرته الكريمـة وأسـأل الله التوفيق والسداد، وهو حسبي ونعم الوكيل.



محمد ﷺ
البلد - القبيلة - العشيرة

وُلد رسول الله صلى الله عليه يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل. وهو يوافق عام ٥٧٠ للميلاد.

وُلد بمكة، وهي أحب بلاد الله إلى الله، مهوى الأفئدة، ومزار الحجيج من كل قبائل العرب.

وينتمي إلى قبيلة قريش، أعلى القبائل العربية منزلة، وأرفعها مكانة، لسدانتها الكعبة، وإمامتها الحجيج في موسم الحج. وقريش وكل قبائل الشمال يرجع نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم.

وأما عشيرته الأقربون فهم بنو هاشم الذي كانت له رياسة قريش، ثم رأسهم من بعده ابنه عبد المطلب جد محمد ﷺ.

وسأتناول فيما يأتي الحديث عن كل من هذه الأمور، وأورد ما جاء بشأنه في القرآن الكريم إن ورد ذكره فيه.



البلد

مكة:

ورد الحديث عن مكة في عدة سور. جاء في بعضها صراحة وفي بعضها كناية. ولعل أول سورة – من حيث النزول – تناولت الحديث عن مكة هي سورة إبراهيم عندما توجه إبراهيم إلى ربه بالدعاء مبينًا أنه أسكن بعض ذريته في واد قفر لا زرع فيه ولا شجر بجوار الكعبة بيت الله الحرام. وذلك ليعبدوا الله، ويقيموا الصلاة. وهو يقصد بذلك مكة التي أمره الله أن يهاجر ببعض أهله إليها ليحقق إرادته بعد ذلك في بناء البيت الحرام، وتطهيره للناس للصلاة والطواف. وقد وصفها بأنها واد غير ذي زرع. وهذه كانت طبيعتها وقتئذ.

ثم أخذ يدعو الله بعد ذلك أن يجعل قلوب الناس تحن إلى الحضور إليها للإقامة أو للزيارة، وأن يرزق أهلها من خيرات الأرض ليدفعهم ذلك إلى شكر الله وحمده. وقد كنى عن مكة بـ «واد غير ذي زرع». وكان قد دعا قبل ذلك أن يجعلها الله بلدًا آمنا لا يروع ساكنه، ولا يؤذى قاطنه.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ثم يقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ الآية (٣٧).

وقريب من هذا الدعاء جاء في سورة البقرة عندما عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت، وتطهيره للطائفين والمصلين. فقد دعا إبراهيم ربه أن يجعل مكة بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهلها من الثمرات. وقد خص إبراهيم بالدعاء المؤمنين بالله. ولكن الله وعد بأن يرزق الجميع في الدنيا من خيراته. وأما عقاب الكافرين ففي الآخرة. يقول تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ

لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الآيات (١٢٥-١٢٦).

وفي سورة العنكبوت يمتن الله على قريش بأن حباهم بحرم آمن لا يروعهم فيه مروع. ولا يصل إلى حماهم عدو طامع بينما البلاد من حولهم تكثر فيها الحروب، ويقتل فيها الأبرياء والمسالمون.

يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ الآية (٦٧).

كما توعد في سورة الحج الكفار الذين يمنعون الناس عن دخول المسجد الحرام لعبادة الله فيه. هذا المسجد الذي جعل الله لكل عباده الحق في الإقامة فيه، والعبادة عنده. يستوي في ذلك المقيم في مكة، والغريب عنها فالجميع سواء. توعد الله هؤلاء الكافرين بالعذاب الأليم. كما توعد من يروع آمنه أو يستحل حرمته بالعذاب الأليم كذلك.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الآية (٢٥).

وفي حادثة الفيل التي سأذكرها بعد قليل تطبيق عملي لهذا الوعيد.

ولكن اسم مكة ذكر صراحة في سورتين هما (آل عمران) و(الفتح) فقد ذكرت مكة في سورة آل عمران عند الحديث عن المسجد الحرام الذي أخبر الله عنه أنه أول مسجد أقيم لعبادة الله فيه. وقد وصفه الله بأنه مبارك، وأن الله جعله لهداية الناس وأن فيه أدلة واضحة على تكريم الله له منها مقام إبراهيم وأن كل من دخله وجب له الأمن كما أوجب الحج إليه. ولكن الله لم يقل عنها «مكة» بل قال «بكة» واختلف العلماء في الفرق بينها وبين مكة. فقال بعضهم: بكة هي المسجد ومكة هي البلد. وقال آخرون هما سواء. وأرجح هذا الرأي لأننا لو قلنا إن بكة موضع المسجد فما معنى قوله تعالى «للذي ببكة»؟ إن هذا يعني: أن أول بيت هو موضع البيت.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآيات (٩٦/ ٩٧).

وفي سورة الفتح ذكر الله لفظ «مكة» عند الحديث عن كف الله المسلمين والمشركين عن الاقتتال يوم الحديبية كما سأشرح ذلك في حينه.

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية (٢٤).

هذه بعض الآيات التي تحدثت عن مكة تصريحًا وتلميحًا، وأحب أن ألجأ إلى كتب السيرة لأبين كيف استجاب الله دعاء سيدنا إبراهيم.

عمران مكة:

تروي كتب السيرة أن إبراهيم عندما ترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بمكة التي وصفها إبراهيم بأنها واد غير ذي زرع وذلك لجفافها وانعدام الماء بها معظم الوقت. ويتبع ذلك بالضرورة عزوف الناس عن الإقامة فيها ترك معهما بعض الزاد والماء.

لبثت هاجر وابنها وقتًا غير قصير ثم نفذ ما كان عندهما من ماء. فأخذت هاجر تحاول البحث عن أثر للماء. وسعت سعيها المعروف بين الصفا والمروة الذي أصبح شعيرة من شعائر الحج. ولكنها لم تجد للماء أثرا فعادت يائسة فوجدت الماء عند قدمي ابنها إسماعيل فقد فجر الله عينا له لا ينضب ماؤها هي عين «زمزم» فبدأت الحياة تدب حولهما.

فقد مر بالمكان قبيلة جُرْهُم وهي قبيلة يمنية نزحت من اليمن مع القبائل النازحة منها بعد خراب اليمن، وانهيار سد مأرب. رأت هذه القبيلة عين الماء المتدفقة وارتاحت إلى هذا المكان فاستأذنت أم إسماعيل في الإقامة معها فأذنت

لهم. وسارت الحياة سيرها بهؤلاء القوم فامتزج الفريقان واستعرب إسماعيل وأمه وأتقنا اللسان العربي حتى أطلق عليهم وعلى نسلهم العرب المستعربة وتزوج إسماعيل من جرهم وكثر أولاده. ولما مات إسماعيل صارت الولاية على البيت لجرهم. ولم ينازعهم أولاد إسماعيل هذا الحق لخئولتهم لهم.

وظلت جرهم تسيطر على مكة قرونا كثيرة حتى ضعف أمرهم بسبب بغيهم فتسلطت عليهم إحدى القبائل العربية، وطردتهم من مكة، وهذه القبيلة هي قبيلة خزاعة التي ظل لها الأمر في مكة سنين طويلة وأولاد إسماعيل لا ينازعونهم أيضا هذا الحق. حتى ولد قصى – الجد الرابع للرسول ﷺ – الذي عاش طفولته وشبابه خارج مكة لوفاة والده، وتزَوُّج أمه برجل من قبيلة أخرى. ولما علم بنسبه عاد إلى مكة وعاش فيها. وتزوج بنت رئيس قبيلة خزاعة وولدت له البنين والبنات. ثم آل الأمر إلى قصى في ولاية مكة بعد وفاة حميه بوصية منه، أو بحرب شنها قصى على خزاعة بعد أن استنفر أقرباءه من خارج مكة وتحقق له النصر فجمع القبائل العربية التي تنتمي إلى النضر بن كنانة وأقامهم بمكة وسُمُّوا قريشا من التقرش وهو التجمع. وسمي قصى مُجَمِّعًا من أجل هذا. فكل من ينتمي إلى النضر بن كنانة فهو قرشي. وأنشأ دار الندوة بجوار الحرم. وأمر القبائل القرشية أن تبني بيوتها حول الحرم. وكانت القبائل السابقة تقيم خارج الحرم. ومنذ قصي أصبحت السيادة لقريش بمكة.

وقد يكون من المفيد أن أذكر نسب قصي فهو ابن كلاب – أو حكيم – ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهذا هو النسب الموثق. أما ما بعد ذلك إلى إسماعيل فليس بثقة لدى المؤرخين. وقصي كما قلت – هو الجد الرابع للرسول ﷺ فهو أبو عبد مناف. وعبد مناف هو أبو هاشم، وهاشم أبو عبد المطلب جد الرسول ﷺ.

حادثة الفيل:

لقد مرت بمكة حادثة زلزلت كيان أهلها. تلك هي حادثة الفيل. وقصتها في إيجاز – أن أبرهة الأشرم والي النجاشي ملك الحبشة على اليمن غاظه انصراف العرب جميعهم إلى مكة، وتقديسهم للكعبة. ورأى أن هذا الأمر يجمع القلوب حول القبيلة التي لها ولاية الكعبة. وقد يؤدي في المستقبل إلى سيطرة قريش على الجزيرة العربية وإضعاف أمر الحبشة في اليمن. فأراد أن يبني معبدًا باليمن يكون بديلًا للكعبة، ويتحول تقديس العرب إليه. فبنى مكانا سماه «القَلَّيْس» وافتَنَّ فيه ما استطاعت قدرته ذلك. ولكن العرب لم يأبهوا له، ولم ينصرفوا عن الكعبة بل يقول المؤرخون إن أحد العرب لوثه بقضاء حاجته فيه. فقرر هدم الكعبة ليتخلص منها نهائيا.

خرج أبرهة في جيش كبير. وكان يركب فيلا. وحاولت بعض القبائل العربية التصدي له في طريقه ولكنهم هُزموا حتى وصل مشارف مكة فوجد إبل أهلها ترعى فأخذها. وكان سيد مكة في هذا الوقت عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ فأشار على أهلها بمغادرة مكة، واللجوء إلى شعاب الجبل، وترك الكعبة لهم يفعل أبرهة بها ما يشاء.

وكان أبرهة قد أرسل رسولا للتفاوض مع أهل مكة ليخلوا بينه وبين الكعبة فقابل عبد المطلب. ولما عرف نيته المسالمة اصطحبه إلى أبرهة. فطلب منه عبد المطلب أن يرد إليه إبله التي صادرها وكانت مائة فردها عليه. ولما سأله أبرهة لماذا لم يتكلم بشأن البيت أجاب إجابته المشهورة: إن للبيت ربا يحميه.

وقبل أن يغادر عبد المطلب مع قومه إلى الجبال تعلق بالكعبة وأخذ يتضرع إلى الله – المتمثل في اعتقادهم في الأصنام المبثوثة حول الكعبة – أن ينجي بيته فهو مالكه والمالك لا يمكن أن يترك ملكه لغيره.

ودنت الساعة الرهيبة، وأخذ أبرهة يعد جيشه للتوجه إلى الكعبة لهدمها ففوجئ بجماعات من الطير تحمل في مناقيرها حجارة من طين مقوّى تحرقهم بالنار فأهلكتهم جميعا. وسمي العام الذي حدثت فيه هذه الحادثة بعام الفيل وهو العام الذي ولد فيه الرسول، وقد امتن الله على أهل مكة بإهلاكه أبرهة وجيشه في سورة قصيرة سميت بسورة الفيل. وقد بدأها الله تعالى بسؤال رسوله سؤالا تقريريًا: ألم تعلم بما فعله ربك بأصحاب الفيل؟ لقد أفسد خطتهم التي دبروها لهدم الكعبة، وجعل مكرهم في ضياع كأنه لم يكن. وأرسل عليهم جماعات الطير التي تحمل في مناقيرها حجارة مهلكة نزلت على كل فرد منهم فأهلكته. فصاروا كورق الزرع الذي أكلته الدواب فلم يبق منه إلا آثار قليلة.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ [1] ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ [2] ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ [3] مَّأْكُولٍۭ ﴾ سورة الفيل.

يفسر الدكتور محمد حسين هيكل[4] الطير التي تحمل حجارة السجيل بأنها جراثيم مرض الجدري. ويرى أن مرض الجدري تفش بينهم فأهلك منهم الكثير وعلى رأسهم أبرهة الذي مات به عند وصوله إلى صنعاء. ولست أدري لماذا يلجأ الكاتب إلى مثل هذا التأويل؟ ولماذا لا يكون الأمر معجزة كمعجزات هود وصالح ولوط؟

❊❊❊

(١) جماعات.
(٢) طين محروق ليقوى.
(٣) ورق الزرع.
(٤) حياة محمد.

القبيلة

قريش:

وقريش هي قبيلة الرسول ﷺ. وهي - كما عرفنا - كانت صاحبة السيادة في مكة عند مبعث الرسول ﷺ. وتنتمي قريش إلى النضر بن كنانة فكل ذريته هم قريش. وكانت تتفرع إلى عدة قبائل من أشرفها عبد مناف الجد الثالث للرسول. وكانوا يعملون بالتجارة. ويكسبون منها المال الكثير ولذلك يرجع بعض اللغويين تسميتهم بقريش إلى كسب المال؛ لأن من معاني القرش التكسب. وكان العرب يدينون لهم بالولاء الديني لسدانتهم للكعبة التي يحج إليها جميع العرب. وكانت لهم رحلتان للتجارة رحلة الشتاء لليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. فضلا عن أن مكة كانت محطة للقوافل التجارية القادمة من الشرق إلى الغرب. والعكس.

وقد أنزل الله سورة قصيرة سميت بقريش يذكر الله فيها فضله عليهم في أن جعلهم يألفون رحلتين للتجارة، ويلتزمون بهما هما رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. ومن أجل ذلك يدعوهم إلى عبادة رب هذه الكعبة الذي رزقهم من خيره، وأبعد عنهم شبح الجوع الذي كان يخيم على هذا الوادي القفر. كما نشر الأمن والأمان في ربوعها فجعلهم في حرم آمن يصد الله عنهم فيه كل خطر يهددهم.

يقول تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ[١] قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ سورة قريش.

---

(١) مصدر آلف أي جعله يألف.

العشيرة

ورأس هذه العشيرة، بل رأس قريش كلها هو هاشم بن عبد مناف الذي أنجب عبد المطلب بن هاشم مع بنين آخرين وبنات. ولكن عبد المطلب كان هو الرأس وهو السيد.

ولم يكن لعبد المطلب في أول أمره إلا ابن واحد هو الحارث، وقد شعر بقيمة كثرة الأبناء عندما حفر زمزم التي كانت قد طمرت من زمن بعيد، وحاولت قريش أن تشركه فيما قد وجده فيها، فقد عثر فيها على غزالين من ذهب ودروع وأسياف فمنعهم عبد المطلب من ذلك، واختصموا، وتمنى عبد المطلب لو كان عنده أبناء كثيرون يحمونه في مثل هذه المواقف. ثم انحسم الخلاف بينهم، وفوضوا عبدالمطلب في أن يتصرف فيم عثر عليه برأيه فصاغها حلى لباب الكعبة. فنذر عبدالمطلب لئن رزقه الله بعشرة أولاد ليذبحن أحدهم قربانا للآلهة. فلما تحقق له ذلك أجرى القرعة بين أبنائه ليرى أيهم يذبح. فخرجت القرعة على عبد الله – وكان لم يتزوج بعد. فمنعته قريش أن يذبح ابنه، واقترحوا عليه أن يضحي بعدد من الإبل بدلا منه. فأجرى القرعة ثانية ليعرف كم من الإبل ينحر. وظل يجريها حتى بلغت مائة فنحرها بدلا من عبد الله. فيروى أن رسول الله ﷺ قال: أنا ابن الذبيحين. يشير إلى أمر الله لإبراهيم جده الأكبر أن يذبح ابنه إسماعيل ثم فداه الله عنه. وإلى أبيه عبد الله. والله أعلم بصحة ذلك.

الأب:

هو عبد الله بن عبد المطلب المتقدم ذكره. وكان شابا مرموقا في قريش. وقد خرج في تجارة كعادة رجال قريش – وذلك بعد زواجه بقليل – وفي أثناء عودته عرج على المدينة ليزور أخواله من بني النجار. فمرض عندهم، ومات ودفن بالمدينة، وابنه محمد جنين لم يجاوز حمله أشهرا قليلة.

الأم:

هي آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن كلاب بن قصي، فهي تجتمع مع أبيه عبد الله في الجد الثالث (كلاب الذي يدعى أيضا «حكيم») وهي من قبيلة زهرة. وعندما كان محمد في السادسة من عمره أخذته وذهبت به إلى المدينة ليزورا قبر أبيه. وفي طريق عودتها وعند مكان يسمى «الأبواء» يبعد عن المدينة بثلاثة وعشرين ميلا مرضت آمنة وماتت فعادت به حاضنته أم أيمن إلى جده عبدالمطلب الذي أحبه أشد الحب، وأكرمه غاية الإكرام حتى مات عبد المطلب ومحمد في الثامنة. فكفله عمه أبو طالب فكان له خير حام ونصير كما سنرى.



نشأة محمد ﷺ

لم يرد في القرآن الكريم حديث عن حياة الرسول ﷺ قبل بعثته وهذا أمر طبيعي فالقرآن ليس تاريخا لمحمد بل هو كتاب هداية ودعوة إلى عبادة الله وحده. فما كان له صلة بهذين الأمرين ذكره القرآن. وما ليس كذلك أغفله.

وقد وردت ثلاث آيات قصيرة في سورة «الضحى» تشير إلى نشأته الأولى فالله يمتن عليه بأن وجده يتيما مات أبوه قبل ولادته، وأمه وسنه ست سنوات فهيأ الله من أسبغ عليه حنانه وعطفه وآواه إليه ورعاه حتى بلغ سن الشباب. كما وجده حائرا يقلب وجهه في السماء يريد أن يهتدي إلى الدين الحق فيعبد الله به فهداه إلى دين الإسلام وأرسله رسولا إلى الناس كافة. كما وجده فقيرا لم يترك له أبواه مالا فهيأ له سبل الغنى عن طريق التجارة، وزواجه بخديجة.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ الآيات (٦-٨).

وأما كتب السيرة فقد فصلت القول في هذه النشأة. وسأوجز أهم ما جاء فيها.

مات أبو الرسول وأمه حامل به. وكان في طريق عودته من رحلة تجارية. وبعدما ولد التمست له أمه مرضعا هي حليمة السعدية التي أخذته معها ليعيش في بادية بني سعد طفولته. وكانت هذه عادة قريش يرسلون أطفالهم إلى البوادي ليشبوا أصحاء الجسم، ويتلقوا اللغة عن أهل البادية فتستقيم ألسنتهم ويصح نطقهم. وبقي بالبادية حتى بلغ الخامسة من عمره فعاد إلى أمه وكفالة جده عبدالمطلب.

ولكن محمدا يروع بيتم آخر. فقد أخذته أمه إلى المدينة ليزورا أخوال جده من بني النجار. وكان منهما حاضنته أم أيمن. وفي طريق عودتهم مرضت أمه وماتت بقرية اسمها «الأبواء» بالقرب من المدينة. فاكتمل بذلك يتمه.

عاش بعد ذلك في رعاية جده عبد المطلب الذي أسبغ عليه كثيرا من حبه

وعطفه ولكنه توفي والغلام في سن الثامنة. فضمه إليه عمه أبو طالب الذي كان خير سند ومعين له. وكان خير نصير له بعد بعثته من أذى قريش على الرغم من عدم إيمانه. وظل يرعاه حتى مات والرسول قد جاوز الخمسين.

تقلب محمد ﷺ في بعض الأعمال. فقد رعى غنم أهله فترة وكان يشيد بهذه الفترة بعد مبعثه فكان يقول: «ما من نبي إلا رعى الغنم وأنا كنت أرعى غنم أهلي». كما اشتغل بالتجارة فقد عمل في تجارة خديجة التي رأت منه الصدق والأمانة والاستقامة فرغبت في زواجه فتزوجها وكان له منها البنون والبنات وظل في تجارتها. ولم يتزوج غيرها حتى وفاتها.

وقد اشترك محمد ﷺ في نشاط قومه الاجتماعي والحربي فقد شهد سوق عكاظ التي كانت سوقا تجارية وأدبية يلقى فيها الشعراء قصائدهم والخطباء خطبهم. وقد استمع الرسول إلى خطبة لقس بن ساعدة أعجبته وحفظها فقد كان يتحدث عن الخالق وعن الموت والنشور.

كما اشترك في حرب الفجار وهي حرب نشبت بين قريش وبين هوازن بسبب الثأر وسميت حرب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم وكان الرسول ﷺ يجمع السهام التي تقع من هوازن فيردها إلى قومه ليستخدموها.

وكذلك حضر حِلْف الفضول في دار عبد الله بن جدعان الذي عقد لينصر المظلوم على الظالم، ويأخذ له حقه منه. وقد قال عنه الرسول ﷺ: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم(١) ولو دعيت به لأجبت».

ومن الأحداث التي وقعت في شبابه. وكان له دلالة قوية على ما كان يتسم به من صفات طيبة تثير الإعجاب به بين قومه حادث بناء الكعبة. فقد تصدعت

---

(١) أي نوقا حمرا وهي أجود الإبل، فهو يريد أن يقول: إنه يفضل حضوره هذا الاجتماع عن أن يكون له إبل حمراء مملوكة له.

الكعبة، ووجب إعادة بنائها. وبعد تردد وتشاور استقر الرأي على هدمها وإعادة بنائها. وتم ذلك. وفي أثناء البناء برزت مشكلة خطيرة اختلف حولها الحاضرون. وكادت تحدث فتنة وينشب قتال. تلك المشكلة هي من يضع الحجر الأسود في مكانه. وذلك شرف لا يدانيه شرف. وأية قبيلة يكون لها شرف لك ستسمو به على كل القبائل. فأشار أحدهم أن يحكموا أول داخل عليهم في هذا الأمر. وكان أول داخل هو محمد بن عبد الله. فسروا جميعا بأن يكون هو الحكم فهو الجدير بذلك، ولا يختلف في شأنه اثنان لما امتاز به من صفات الفضل والفخار وكان حكمه أن يحضروا له ثوبا، ووضع الحجر الأسود في هذا الثوب وطلب أن يشترك أفراد من كل القبائل في حمل الثوب حتى مكان الحجر الأسود فوضعه بيده الشريفة وبذلك انحسم الخلاف، وانفض الشر.



البشائر بمبعث النبي ﷺ

ورد في سورة الأعراف أن الله وعد أهل الكتاب الذين يتبعون الرسول محمدا – الذي وصفته الآيات بأنه النبي الأمي – برحمته الواسعة. وبينت أنهم يجدون نبوته وصفاته مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل اللذين بين أيديهم. وذكرت أن دعوته لهم تقوم على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحليل بعض الطيبات التي حرمها الله عليهم من الطعام بسبب ظلمهم، وتحريم بعض الأطعمة الخبيثة التي أحلوها لأنفسهم. كما تتضمن دعوته تخفيف بعض التكاليف الشاقة عنهم التي كانت كأنها أغلال تحد من حركتهم. وبينت الآية أن الذين سيؤمنون بهذا الرسول، ويؤيدونه وينصرونه، ويتبعون الهداية التي حملها لهم القرآن سينالون الفوز والفلاح.

يقول تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الآيات (١٥٦ - ١٥٧).

إن من يتأمل هذه العبارة: «الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل» ليشعر بصدق القرآن فيما يخبر به كل الصدق. ولو أن القرآن كان غير صادق في هذا الإخبار لكان من أيسر الأمور على أهل التوراة وأهل الإنجيل أن يحضروهما، ويعلنوا أمام الملأ كذب القرآن فيما أخبر به لأن التوراة والإنجيل خاليتان من ذلك. ولكنهم لم يفعلوا لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم حقا.

وقد ذكرت سورة الفتح بعض ما أوردته التوراة والإنجيل عن صفات

الرسول وأصحابه. ففي التوراة وصف لهم بالشدة على أعدائهم الكفار، بينما تسود الرحمة صفوفهم. وهم يكثرون من الركوع والسجود طلبا لفضل الله ورضوانه. وعلامة السجود تظهر على وجوههم نورا يوم القيامة.

وأما الإنجيل فقد شبههم – في بدايتهم قلة ضعافا، ثم كثرتهم وقوتهم بعد ذلك – بالزرع الذي يخرج أوراقه صغيرة ضعيفة أول ما ينبت – كأنها فراخ الطير عندما تفقس – وبتوالي العناية بالزرع تقوى هذه الأوراق وتغلظ وتستوي على سيقانها فتية قوية. منظر يعجب الزارعين لنضارته وقوته. وقد قوى الله المؤمنين وكثرهم ليغيظ بهم الكفار أعداء دينه.

يقول تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ الآية (٢٩).

وأما في سورة الصف فقد وردت البشارة على لسان عيسى بن مريم فقد أخبر بني إسرائيل المبعوث إليهم بأنه جاءهم رسولا من عند الله، ليؤيد ما جاء في التوراة من أحكام وتعاليم، وأوامر ونواه. وليبشرهم برسول يأتي من بعده، ويذكر أن اسمه «أحمد».

يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾.

وقد ورد في سورة «الجن» أنه عندما استمع نفر من الجن إلى القرآن أعجبوا به وآمنوا. ثم أخبروا أنهم كانوا يصعدون إلى السماء ليسترقوا السمع إلى ما يلقيه الله إلى ملائكته من أوامر. ثم فوجئوا بأن السماء ملئت حرسا من الملائكة يمنعونهم من الاقتراب، كما امتلأت بالشهب المحرقة. وأنهم كانوا قبل ذلك قد اعتادوا الصعود حولها للتسمع. ولكن من يحاول ذلك الآن ينطلق نحوه شهاب من

السماء يحرقه. وقد تحيروا في سر منعهم الآن. وهل هذا في خير البشر الذين كانوا يلقون إليهم بهذه الأخبار؟ أو أن الله يريد بهم شرا فحرمهم من معرفة ما يقدره لهم.

يقول تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ الآيات (٨-١٠).

فهذه علامة خاصة بالجن تبين لهم أن عصر الإيمان الحق قد بدأ، وأن عصر الخرافة والكهانة والأكاذيب التي كان يلقيها الجن إلى كهنة الإنس مغلفة بقليل من الحقائق التي كانوا يسترقونها قد ذهب إلى غير رجعة. وحل محله عصر الإيمان والعقل والمعرفة عصر محمد ﷺ. ولعل الجن الذين آمنوا قد عرفوا أن الله قد أراد للبشرية الرشاد كل الرشاد بمنعهم من السمع.

هذا وقد كان الحديث عن مبعث نبي جديد تصديقا لما جاء في التوراة والإنجيل يتردد صداه في الجزيرة العربية وما حولها على ألسنة اليهود والنصارى.



بدء الوحي

كان الرسول ﷺ منذ شبابه منصرفًا عن اللهو، ميالًا إلى التفكير وحتى عندما أراد ذات مرة أن يسمر بمكة وهو يرعى الغنم. وكان بمكة عرس يغنَّى فيه. فترك رعاية الغنم لزميل له، وذهب إلى حيث العرس ولكن لم يكد يسمع صوت الغناء حتى غلبه النوم فنام وتكرر ذلك مرة أخرى أراد أن يسمع غناء فنام أيضًا فهو شاب ليس في طبعه ميل إلى مثل هذه الملاهي. ولكن طبعه كان يدفعه دائمًا إلى التفكر في الكون. وقد كانت في مرحلة رعيه الغنم الفرصة مهيأة لأن يفكر في الكون وخالقه ما شاء له التفكير فالكون كله مبسوط أمامه سماؤه وأرضه، شمسه ونجومه والوقت فسيح متسع. لا يشغله شاغل عما يريد التفكير فيه وهو ذو فطرة سليمة سوية وصاحب هذه الفطرة يهديه تفكيره دائما إلى الحق.

ثم لما اشتغل بالتجارة وهي مهنة شاغلة لا تتيح لصاحبها ما يتيحه مثل رعي الغنم من فسحة للتفكير. كان يخصص أياما من كل عام يعتزل فيها الخلق ويأوي إلى غار حراء يتحنث فيه. ويطيل التفكير في مظاهر قدرة الله في الكون. تلك المظاهر التي حجبها عن الناس أهواؤهم وأطماعهم وشهواتهم وعبادتهم لأصنامٍ سموها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان.

ولكن محمدا عزف عن كل هذا، وأسلم وجهه إلى الله. فرضي الله عنه، ووصله بعالمه الإلهي فكان لا يرى رؤيا في منامه إلا تحققت، وجاءت كفلق الصبح في الظهور والوضوح حتى كانت ليلة القدر فبدأ الوحي. وأترك أم المؤمنين عائشة رضي الله تقص علينا خبر تلك الليلة فيما يرويه البخاري عنها.

تقول السيدة عائشة: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد الليالي ذوات العدد – قبل أن يفزع إلى أهله ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في

غار حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. فدخل على خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها– فقال: زملوني. زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة -- وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة. وكان امرأ تنصر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبراني – فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخًا كبيرًا قد عمي. فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذع ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو فخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي».

هذه هي بداية الوحي كما روتها السيدة عائشة رضي الله عنها. واللافت للانتباه في الآيات التي بدأ بها الوحي أنها بدأت بكلمة اقرأ، ثم كررتها بعد ذلك لتبين أن الإسلام الدين الخاتم هو دين العلم، ودين العقل. كما أنها اختارت من صفات الله التي طلبت من الرسول أن يسمى الله بها صفة الخلق لتلفت الإنسان إلى أهم مظهر من مظاهر قدرة الله. واختارت نوعًا محددًا من الخلق هو خلق الإنسان. ومن أي مادة خلقه؟ من علق. والعلق جمع علقة وهي الدم المتجمد

الذي تحول إليه المني بعد أن استقر في الرحم. وعندما يكرر له الأمر بالقراءة يقرر أن الله هو الأكرم. أكرم من كل ما في الكون. ثم ذكر من مظاهر كرمه أنه علم بالقلم. واهتداء الإنسان للكتابة هو أعظم منة منحها الله لعباده فالكتابة هي منشئة الحضارة، و سبب رقي العمران.

وبدونها ما زاد الإنسان كثيرا على مرتبة الحيوان. وقد علم الله الإنسان بسبب اهتدائه للكتابة ما لم يكن يعلمه من قبل. ولنتخيل أن الإنسان لم يهتد للكتابة. فكيف كان يعرف خبر الأولين. ويهتدي إلى تجاربهم، ويستفيد بها، ويبني عليها. لو لم يهتد الإنسان للكتابة لظل كل جيل يعيش مقطوعًا عما قبله، يكرر نفس أخطائهم، ويتخبط مثل تخبطهم. وإذا اهتدى إلى شيء نافع لم يستفد به من يأتي بعده.

يقول الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥]

وكان بدء الوحي، ونزول القرآن في شهر رمضان كما أخبر بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقد وصف الله الليلة التي بدأ نزول القرآن فيها بأنها ليلة القدر – أي الشرف والمنزلة الرفيعة – وأن ثواب العبادة فيها خير من عبادة ألف شهر. وأن الملائكة تتنزل فيها – وعلى رأسهم جبريل – بإذن الله سبحانه بكل أمر قضاه على عباده. وتكون هذه الليلة سلامًا وخيرا للعباد حتى يطلع الفجر.

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ سورة القدر .

ولنتأمل التكرار في كلمتي (ليلة القدر) والاستفهام في قوله: «وما أدراك ما

ليلة القدر» فهما يدلان على تعظيم الله لشأن هذه الليلة، و إعلاء شأنها.

كما وصف هذه الليلة في سورة الدخان بأنها مباركة يقضي الله فيها كل أمر على وفق حكمته.

يقول تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ الآيات (١/ ٤).

دعوة الرسول ﷺ إلى الإنذار:

عاد الرسول ﷺ من عند ورقة. بعد أن طمأنة ورقة بن نوفل وبشره بأنه النبي الموعود بني هذه الأمة. ونام متدثرًا في أغطيته مفكرًا في أحداث هذه الليلة فجاءه الوحي يخاطبه بصفته التي كان عليها وهي التدثر بالأغطية ويدعوه إلى أن يقوم فينذر الناس بدعوة ربه، ويسعى لهدايتهم. وأن يستشعر في نفسه عظمة الله وكبرياءه، وأن يكون ظاهره طاهرًا نقيًّا كباطنه. وأن يتجنب عبادة الأصنام. [وإن كان رسول الله ﷺ لم يسجد لصنم قط، ولم يشارك في عبادتها. ولكن لأنه القدوة، والمثل لأتباعه فالأمر موجه إليهم عن طريقه] وألا يفعل الخير منتظرًا في مقابله أن يأتيه خير أكثر منه. وأن يصبر على ما يصيبه من أذى في سبيل هذه الدعوة التي ستكلفه عنتًا كثيرًا محتسبًا ذلك عند الله.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ[1] فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ١/ ٧].

واستجاب لصقاؤه الأدنون لدعوته وآمنوا برسالته: وهم: خديجة زوجه، وعلي بن أبي طالب ابن عمه، وزيد بن حارثة غلامه، وأبو بكر صديقه الذي نشط منذ أسلم إلى دعوة من يثق به من أصدقائه. فآمن على يده نفر غير قليل.

❁❁❁

---

(١) عبادة الأصنام.

فتور الوحي

ثم لم يلبث الوحي أن فتر، وانقطع جبريل عن النزول إليه. وذلك بعد نزول بضع سور قصار. وشمت فيه من عرف ذلك من المشركين فقالوا إن محمدًا قلاه ربه – أي كرهه – وودعه أي تركه. وشعر الرسول ﷺ بضيق نفس شديد، وحزن غلاب حتى لقد قيل إنه فكر أن يتردَّى من أعلى الجبل، فيقتل نفسه. لولا إيمانه بربه الذي لا يتزعزع، وثقته بصدق ما أوحى إليه. واختلف المفسرون وكتاب السيرة في طول هذه الفترة: فقيل: اثنا عشر، أو خمسة وعشرون، أو أربعون يوما.

ثم عاد الوحي إلى الرسول بالبشري العظيمة بأن ربه لم يتركه ولم يكرهه، وأنه يدخر له في الآخرة جزاء أوفى، وثوابا أعظم مما ناله في الدنيا. وأن الله سوف يعطيه ما يريد حتى يرضى. ثم يؤكد له صدق هذه العطايا بما قدمه له من قبل. فقد كان يتيما فلقى من جده وعمه كل رعاية. وكان ضالا حائرًا فهداه الله إلى الإيمان. وكان فقيرا فأغناه. ثم يوصيه ببعض أنواع البر: أن يعامل اليتيم – وقد جرب اليتم – معاملة حسنة فلا يذله أو يقهره. وأن يحسن إلى السائل سواء أكان يسأل مالا أو علما فيبذل له من أيهما ما يستطيعه. ثم يتذكر دائمًا نعمة الله عليه فيتحدث بفضل الله عليه، ويشكره على نعمائه.

وقد ورد هذا في سورة قصيرة وهي سورة «الضحى» لأن الله أقسم بالضحى، كما أقسم بالليل وسكونه لتأكيد ما أخبره به.

يقول تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ سورة الضحى

ولنقف قليلا نتأمل الجانب الإنساني في هذه السورة. فقد دعت إلى رعاية اليتيم، والعطف عليه. كما نهت عن زجر السائل المحتاج والقسوة عليه. وكان

هذا إيذانًا بأن هذا الدين هو دين الإنسانية فكثيرًا ما سنقرأ فيه الحض على رعاية الجوانب الإنسانية في حياة البشر وجعلها معادلة لعبادة الله وحده.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ فينبغي أن تفهم على وجهها الصحيح فليس المراد منها أن يتباهى الإنسان بما أعطاه الله. بل يتحدث عن ذلك ليشكره على نعمائه لا بالقول وحده، بل بالفعل. وأن يحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه وقد كانت وصية الله لرسوله مثلا عمليًّا: فبعد أن ذكَّره بأنه كان يتيما فآداه، وضالا فهداه. طلب منه ألا يسئ إلى اليتيم. وألا يزجر السائل شكرا على ما أعطاه الله.

وكما امتن الله على نبيه في سورة «الضحى» برعايته في اليتم، وهدايته من الضلال وغناه بعد الفقر – امتن عليه في السورة التي تلتها في النزول – وهي الشرح– بعطايا أخرى. وإذا كانت العطايا في الضحى تغلب عليها النواحي المادية فهي في «الشرح» عطايا معنوية. فالسورة تبدأ بتقرير أن الله شرح صدره للإيمان أي جعله يتقبل الإيمان بالله وحده، والانصياع لأوامره بصدر رحب، ونفس سعيدة راضية.

وأنه غفر له ما تقدم من ذنبه الذي كان يملأ قلبه ألمًا وندمًا. كأنه حمل ثقيل لا يقوى على حمله بل يحطم ظهره. كما رفع له ذكره في زمنه بل فيما سبق زمنه، وفيما سيتلو من أزمنة إلى يوم الدين. فملايين المسلمين في شتى بقاع الأرض لا تكف عن الصلاة عليه. والأذان يرتفع خمس مرات كل يوم في كل مكان في العالم يشهد بأنه رسول الله. ثم يطمئنه الله سبحانه إلى أن أي أذى سيلقاه سيعقبه خير ثم يطلب منه أن يجهد نفسه في عبادة الله بعد فراغه من عمله، وأن يكون دائم الرغبة في خير الله ورضاه عنه.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ سورة الشرح.

لقد فسرت شرح الصدر بتقبله الإيمان، وتحمسه له. وهو رأي بعض العلماء ويرى آخرون أن المراد بالشرح هو فتح الصدر وإخراج مضغة سوداء منه هي حظ الشيطان منه. فقد جاء في سيرة ابن هشام أن محمدا كان يلعب مع أخيه من الرضاع خارج المنازل. وقد تجاوزت سنه الثانية. وأمه حليمة في المنزل إذ فوجئت بابنها يسرع إليها قائلا .. «ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه، وشقا بطنه فهما يسوطانه [أي يخلطان دمه بعضه ببعض] قالت حليمة: فخرجت أنا وأبوه نحوه. فوجدناه قائمًا منتقعًا وجهه. فالتزمته والتزم أبوه. فقلنا له مالك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني. فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو. قالت: فرجعنا به إلى خبائنا. وهناك أحاديث أخرى تذكر أن شق الصدر حدث والرسول ﷺ كبير. وكان نائما عند البيت عندما جاءه الملكان.

وأرى أن المراد بالشرح هو الشرح المعنوي بمعنى طمأنينة القلب، والرضا والراحة النفسية للدين وما يتضمنه من تعاليم. وقد تكرر هذا التعبير المجازي عدة مرات في القرآن الكريم. ففي سورة الأنعام يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية (١٢٥) ويقول في سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الآية (١٠٦) وفي سورة طه يقول تعالى عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ الآية (٢٥) وأخيرا في سورة الزمر يقول تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية (٢٢).

وهكذا لا تحمل آية سورة الشرح أي دليل على شق صدر الرسول عليه السلام

ويعلق الدكتور هيكل[١] على قصة شق الصدر قائلا: (إنه لم يكن في حاجة إلى من يشق بطنه أو صدره ما دام الله قد أعده من يوم خلقه لتلقى رسالته).

ولست أريد بهذا أن أنكر قصة شق صدره عليه السلام وإنما أردت أن أبين أنه لا دليل عليها من القرآن.

الجهر بالدعوة:

لبث رسول الله ﷺ مستخفيًا بدعوته ثلاث سنوات: وكانت الصلاة قد فرضت عليه بعد مبعثه بقليل. وكانت ركعتين فقط لكل صلاة. وكانوا يصلون سرًّا ويذهبون أحيانًا إلى شعاب الجبل فيصلون فيها. و كان يطلع عليهم أحيانا بعض قومهم فكانوا ينكرون عليهم ذلك . ولكن الملأ من قريش لم يأبهوا كثيرا لمحمد ودعوته أول الأمر حتى بدأ يعيب آلهتهم، وينكر عبادة الأصنام.

ثم أمره الله أن يعلن دعوته للملأ وقد ورد ذلك في سورتين: الأولى سورة الشعراء حيث يقول الله فيها ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الآية (٢١٤).

وقد استجاب محمد لهذه الدعوة، ودعا عشيرته إلى طعام في بيته. فلما طعموا قال لهم: ما أعلم إنسانا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه. فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟» فأعرضوا عنه وهموا بتركه. لكن عليًّا نهض – وهو ما يزال صبيا دون الحلم وقال: أنا يا رسول الله عونك. أنا حرب على من حاربنا» فابتسم بنو هاشم، وقهقه بعضهم ثم انصرفوا مستهزئين».

والسورة الثانية سورة الحجر يقول تعالى فيها فاصرع بما تؤمر ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الآيتان (٩٤/ ٩٥) أي اجهر بما أمرك الله به من الدعوة إلى عبادة الله وحده. ولا تبال استهزاء المشركين بك فسيكفيك الله أذاهم.

---

(١) كتاب «حياة محمد».

وقد كرر الرسول ﷺ إعلان دعوته مرة أخرى لقريش. بعد أن رفض عشيرته الأقربون دعوته. فقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم أن النبي ﷺ أتى الصفا، فصعد عليه. ثم نادى: «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجئ إليه، وبين رجل يبحث رسوله. فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟» قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: «تبا لك سائر اليوم. أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله سورة: «تبت يدا أبي لهب وتب».

وبدأ الصراع بين الإسلام والشرك، بين صلابة الحق وجبروت الباطل. وأوذي الرسول ﷺ في سبيل دعوته أذى كثيرًا. وعذب المستضعفون من المسلمين تعذيبًا شديدًا. وتجلت في هذه الفترة عظمة الإيمان وقوته. وسجل التاريخ سطورًا من نور للعزيمة والصبر. وأمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر بعضهم إليها وحاولت قريش ردهم وفشلت. ثم عادوا بعدما أشيع خطأ أن كبار المشركين أسلموا. فلما اتضح لهم خطأ هذا الخبر هاجروا الهجرة الثانية مع آخرين ولبثوا هناك إلى ما بعد الهجرة بسنوات.

وسأذكر في فصل قادم بعض ألوان الإيذاء التي لحقت بصحابة رسول الله ﷺ. وكيف تحملوها بصبر وشجاعة.

❁❁❁

قريش تحارب الدعوة الجديدة

وقد استخدمت قريش في هذه الحرب أسلحة متنوعة: فمن افتراءات على الرسول إلى مساومات بالترغيب والترهيب، إلى اقتراح معجزات للتحدي والمكابرة، إلى إيذاء بدني للرسول والمسلمين إلى مقاطعة شاملة للرسول ولبني هاشم. وسأورد في الفصول التالية نماذج من هذه الحرب، وما أورده القرآن الكريم بشأنها.



افتراءات المشركين على الرسول

وجه المشركون إلى الرسول تهمًا كثيرة، أرادوا بها تشويه صورته في نظر العرب ليمنعوهم من الدخول في الإسلام. فاتهموه بالجنون والسحر والكذب والكهانة والشعر.

ففي سورة القلم – وهي السورة الثانية في ترتيب النزول – يدفع الله عن رسوله تهمة الجنون التي اتهمه بها المشركون. وقد بدأ الله السورة بحرف من حروف الهجاء هو (ن) وكأنه يريد أن يتحدى المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن المعجز الذي يتكون من حروف الهجاء التي يعرفونها. ثم يقسم الله بالقلم، وما يسطرون به من كتابه بأن محمدًا – بفضل ربه ونعمته – ليس مجنونًا بسبب دعوته إلى عبادة الله وحده، بل إن جزاء جهاده في سبيل هذه الدعوة عظيم، وأجره عنه متصل لا ينقطع. ثم يصفه الله بهذا الوصف الموجز المعجز الذي جمع كل أنواع الفضائل في أقصر عبارة «وإنك لعلى خلق عظيم» ثم يبشر محمد ويهدد كفار قريش: فمحمد سيرى بعينه ثمرة جهاده، كما سيرون بأعينهم ما كانوا فيه من ضلال، ويعلمون حقيقة الأمر فيما اتهموه به من جنون وسيتحقق لهم أنه ليس به جنون، بل الجنون بهم هم إذ كذبوه؛ فالله يعلم حقيقة كل منهم، يعلم من الضال، وهم كفار قريش، ومن المهتدي وهو محمد. ثم ينهاه عن طاعة هؤلاء المكذبين الذين يودون لو انحرف عن دعوته فجاملهم بعبادة آلهتهم مع إلهه. وهم مستعدون أن يعبدوا إلهه أيضًا مع آلهتهم.

يقول تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ[(١)] ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ

---

(١) مقطوع.

ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ[١] فَيُدْهِنُونَ ﴾ الآيات (١/ ٩).

وأتوقف لحظة لأنوه بالقسم الذي أقسم الله به، وهو القلم وما يخطه. والقسم لا يكون إلا بمعظم. فكأن الله – سبحانه – يريد بهذا القسم الإيحاء بما للعلم من قيمة، ويومئ إلى أن هذا الدين دين العلم والعقل ويكفي أن معجزاته الكبرى معجزة عقلية هي القرآن الكريم، وأن أول كلمة نزلت منه هي: «اقرأ».

وتتوالى اتهاماتهم للرسول الكريم بشتى التهم التي يلصقونها به ليصرفوا الناس عنه. فقد ركزوا فترة على الجنون، فقالوا عنه في سورة الدخان: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ (١٤) ورد الله عليهم هذه التهمة في سورة «المؤمنون» بأن السبب الأساسي في هذا الاتهام ليس اعتقادهم في جنونه بل كرههم للحق الذي لو استجاب لأهوائهم لدب الفساد في السموات والأرض. ويُسَفِّه القرآن محاربتهم للرسول بمثل هذا الاتهام بينما ما جاءهم به فيه شرف لهم ورفع لذكرهم. ولكنهم أعرضوا عن ذلك ولم يعبئوا به. يقول تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ[٢] فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ الآيتان (٧٠/ ٧١).

وفي سورة التكوير يقسم الله بمظاهر طبيعية يعرفونها جيدًا وهي النجوم والليل والنهار – على أن القرآن وحي من عند الله سبحانه حمله جبريل القوى، ذو المكانة عند ربه ذي العرش، المطاعُ في الملأ الأعلى، الأمين على تبليغ رسالات الله. ثم ينفي الله عن محمد الذي كنى عنه (بصاحبكم) تهمة الجنون التي يتهمونه بها. ويؤكد أن محمدًا رأى جبريل في أفق السماء الواضح الظاهر، وتلقى عنه الوحي ليبلغكم به، ولم يكن بخيلًا ليحجبه عنكم. ثم ينفي الله سبحانه أن يكون هذا القول

---

(١) تلين.

(٢) شرفهم.

من وحي الشيطان المطرود من رحمة الله – وهي تهمة كانوا يتهمونه بها أيضا – .

يقول تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ(١) ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ(٢) ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ (٣) ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾ الآيات (١٥/ ٢٥).

ولما وجدوا أن اتهامه بالجنون لا ينطلي على أحد فمحمد راجح العقل، سديد الرأي فكروا في تهم أخرى فاتهموه بالسحر، وبأنه كذاب، وبأنه كاهن، وبأنه شاعر وقد أورد القرآن هذه التهم، ونفاها عن رسوله، وتوعد قائليها بالعذاب الأليم.

يروي ابن هشام في كتابه (السيرة النبوية) أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش - وكان ذا سن فيهم – وقد حضر موسمُ الحج. فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه. وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا. فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا. فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: تقول كاهن. قال: لا، والله ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهان. فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه قالوا: فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه. فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله هزجه ورجزه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه. فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال ما هو بساحر. لقد رأينا السحار وسحرهم. فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟. قال: والله إن لقوله حلاوة. وإن أصله لمغدق، وإن فرعه

---

(١) أنواع من الكواكب.

(٢) أنواع من الكواكب.

(٣) أقبل بظلامه.

لجناة. وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك. فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدم الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره».

توعد الله الوليد بن المغيرة بسبب هذا الرأي في سورة المدثر أيما توعد. ويكفي أنه بدأ هذا الوعيد بقوله: ذرني ومن خلقت وحيدا» فما ظنكم بمن يتفرغ الله للانتقام منه. وقد ذكر المفسرون أن معنى الوحيد هو المتفرد بعلو المكانة. وشرف الرياسة ثم يذكر الله ما أنعم به عليه فقد أعطاه ثراء واسعًا. ورزقه بنين حُضَّرًا لديه دائمًا ليسوا في حاجة للأسفار لكسب المال كغيرهم. وبسط له في العيش حتى أقام ببلدته مترفها يرجع إلى رأيه. ثم يطمع هذا الكافر أن يزيده الله أكثر. ويستنكر الله هذا الطمع في الزيادة مبينًا أنها لا يمكن أن تحدث له؛ لأنه كان شديد العناد لمحمد ورسالته. ثم يذكر الله أنه أعد له عذابًا شديدًا يظل فيه في عناء دائم لا يستريح منه. ثم يصف الله حالته وهو يقدم اقتراحه لقومه. فيبين أنه أكثر من التفكير والتقدير وكان تفكيره مصحوبًا بملامح تعكس حالته النفسية فهو ينظر حينا، ثم يقطب جبينه تارة، وتظهر الكآبة على وجهه أحيانًا. وأخيرًا أدبر عن الإيمان واستكبر – مع علمه بصدق محمد كما قرر هو – وأعلن أن ما أتى به محمد ليس إلا سحرا قد أخذه عن غيره. وأنه ليس من كلام الله بل من كلام البشر. ثم يكرر الله وعيده إياه بأنه سيدخله نار جهنم المعروفة بسقر. وإن من يدخلها لا يبقى شيء منه إلا احترق ثم يعود خلقًا جديدًا ليحترق وهكذا كما قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ وهذه النار تغير لون جلود من يلقى فيها فتجعله متفحمًا. ويحرسها تسعة عشر ملكًا.

يقول تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا

﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ الآيات (١١/ ٣٠)[١].

وفي سورة «ص» يذكر اتهامهم إياه بالسحر والكذب وتعجبهم من دعوته إلى عبادة إله واحد. وهم يعرفونها آلهة متعددة. وأخذ أشراف قريش يدعون قومهم التمسك بعبادة آلهتهم، والصبر عليها أمام المؤامرة التي يدبرها محمد لها والتي ما سمعوا بمثلها في الملة الأخرى ملة عيسى ابن مريم [ولعلهم عرفوا عقيدة النصارى في التثليث] إن ما يقول محمد ليس إلا كذبا. ثم ينتقلون إلى دليل من أدلتهم الفاسدة على كذب محمد وهو استنكار أن ينزل عليه هذا القرآن، ويختار للنبوة دونهم وهم أشراف قومهم. ويرد الله عليهم منذرًا ومهددًا بأنهم يشكون في القرآن الذي أنزل الله عليه، وأنهم لم يذوقوا العذاب بعد الذي أعد لهم لكفرهم. ثم يدحض الله افتراءاتهم فيذكر أن الملك لله وحده، وهو وحده مالك خزائن الرحمة التي ينزلها على المختارين من عباده، فيهب النبوة من يشاء. وهو وحده مالك السموات والأرض، فليرتقوا إلى هذا الملكوت إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ولن يستطيعوا إنهم جند مهزوم كأمثالهم من العصابات التي كانت تعاند أنبياءها من قبل.

يقول تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ

[١] المغدق: النخلة، يريد أن أصله ثابت كالنخلة وإن له جنًى حلوا مثل جناها.

رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ الآيات (٤ / ١١).

ولم يكتفوا باتهامه بالكذب، بل ذكروا الوسيلة التي أخذ بها القرآن. فهم يدعون أن القرآن ما هو إلا أكاذيب اختلقها، وساعده في اختلاقها قوم آخرون يشيرون إلى بعض غلمان من النصارى الذين كانوا على دراية بالتوراة والإنجيل. وكان يجلس إليهم الرسول أحيانا لهدايتهم. ويصف القرآن – في سورة الفرقان– هذا القول بأنه ظلم لمحمد الصادق الذي يعرفونه، وكذب عليه. كما ادعوا أن القرآن أساطير من أساطير الأولين طلب محمد ممن عندهم علمها أن يكتبوها له. فهم يملونها عليه صباح مساء. ويرد عليهم الله ردًّا حاسمًا طالبًا من رسوله أن يخبرهم أن الذي أنزل القرآن هو الذي يعلم السر في الكون كله سمائه وأرضه. وقد اشتمل القرآن على بعض هذه الأسرار. ولا يريد الله أن يوئسهم من رحمته لهم إذا تابوا فيختتم الآية بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الآيات (٤–٦).

ويفند في سورة «النحل» حجة المشركين في اتهام محمد بأنه يتلقى القرآن عن بعض غلمان النصارى بأن الرجل الذي يلحدون إليه بأنه يعلم الرسول – وكان غلامًا أعجميًا اسمه جبر كان يجلس عند المردة. وكان الرسول يجلس إليه أحيانًا ليدعوه إلى الإسلام، ويبصره بمبادئه – هذا الرجل لسانه أعجمي لا يحسن العربية فكيف أتى بمثل هذا القرآن المعجز الذي تحداهم الله بأقصر سورة منه.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

وفي سورة الزخرف يكررون ما قالوه في سورة «ص» من نفي نزول القرآن على محمد من عند الله. لأن الله لو كان فاعلًا ذلك لاختار رجلًا عظيمًا من مكة أو الطائف. وهذا القول يقوله الوليد بن المغيرة فهو لا يصدق أن ينزل القرآن على محمد ويترك هو وهو عظيم مكة أو عروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف. ويرد الله على هذا القول ساخرًا: هل هم يقسمون فضل الله ورحمته وهي النبوة تبعًا لأهوائهم ويجهلون أن ما هم فيه من متاع الحياة الدنيا ومن سلطان وجاه إنما هو بإرادة الله التي اقتضت أن يكون بعض الناس في مرتبة أعلى من بعض في الثراء والجاه والسلطان ليستقيم أمر المجتمع في الدنيا، ويسخر بعض الناس بعضًا في خدمتهم. وأما الخير الحقيقي فهو رحمة الله في الآخرة التي لا يزول نعيمها.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ الآيات (٣١/ ٣٢).

وأخيرًا يتهمونه بتهمة عجيبة هي تهمة البشرية. فكيف يكون رسولًا وهو بشر مثلهم يأكل الطعام، ويذهب إلى الأسواق يبيع ويشتري مثلهم. ولما لم ينزل الله معه ملكًا يقوم بمهمة الإنذار معه. أو يرسل الله إليه كنزًا يحوى المال الكثير. أو تكون له حديقة مثمرة يستمتع بخيراتها، ويأكل من ثمارها . ثم يتهمونه بسبب ظلمهم – بالتهمة المتكررة وهو أنه رجل مسحور أصابته جنة.

ثم يخاطب الله رسوله مُعَجبًا من أقوالهم هـه مبينًا أنها أقوال ضالة لا أثر للصواب فيها، وأنها حجة العاجز حين توصد أمامه أبواب الرأي. فالله بعظمته وقدرته – قادر على أن يهبك خيرًا مما يقترحون فيجعل لك الحدائق الكثيرة التي تحيط بها الأنهار من كل جانب. ويجعل لك القصور الباذخة. ولكن الحقيقة أن هؤلاء القوم يُكَذِّبون بيوم القيامة، يوم البعث والحساب. وقد أعد الله لمن يكذب بهذا اليوم نارا متأججة، لا يهدأ سعيرها.

يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ الآيات (٧/ ١١).

ثم يسلي الله رسوله مرة أخرى، ويرد على هذه التهمة بأن سنته جرت أنه لا يرسل رسولًا إلا إذا كان بشرًا عاديًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق متجرًا فيها أو جالبًا ما يحتاجه من طعام وثياب.

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ الآية (٢٠).

وهكذا تتولى اتهاماتهم للرسول، ورد الله عليها وتفنيدها. وبهذا يتضح لنا أحد أسرار نزول القرآن منجمًا وليس جملة واحدة. وكان هذا مثار اعتراض كفار قريش حينما قالوا: لم لم ينزل القرآن على محمد دفعة واحدة فكان رد الله عليهم إن الله قد فعل ذلك لتثبيت قلب النبي في المواقف المتجددة ولكي يرد على كل اعتراض يثيرونه بما يُجَلي وجه الحق.

يقول تعالى في سورة الفرقان أيضًا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ الآيات [٣٢/ ٣٣].

وكان كفار قريش يشيعون هذه التهم بين عامة الناس، وخصوصًا الوافدين على مكة للحج أو التجارة. فكان بعضهم يتأثر بهذه التهم وينصرف عن لقاء الرسول إلى حين. وكان بعضهم يصر على لقاء الرسول والسماع منه. وكثيرًا ما كان يهتدي ويؤمن. كما فعل الطفيل بن عمرو الدوسي. فتروي كتاب السيرة أنه كان

رجلا شريفًا شاعرًا لبيبًا. فقدم على مكة فمشت إليه قريش تحذره محمدًا وأن قوله كالسحر يفرق بين المرء وأهله، بل بين المرء ونفسه، وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة، وأن الخير في ألا يكلمه، وألا يستمع إليه.

وذهب الطفيل يومًا إلى الكعبة وكان محمد هناك. فسمع بعض قوله، فإذا هو كلام حسن فقال في نفسه: واثكل أمي. والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول. فإن كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته. واتبع محمدًا إلى بيته، وأظهره على أمره، وما دار بنفسه. فعرض محمد عليه الإسلام. وتلا عليه القرآن. فأسلم وشهد شهادة الحق، ورجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام.

بل إن أشراف قريش كانوا – حينما يستمعون القرآن – يتأثرون به أشد تأثر، وكانوا يقاومون رغبتهم في الاستماع ولكنهم لم يستطيعوا ذلك. فمن ذلك ما رواه ابن إسحاق[١] أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس ابن شريق الثقفي خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته. فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه وهو لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له. حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا. ثم انصرفوا. ولكن الأمر تكرر بالطريقة نفسها في الليلتين التاليتين. فلما التقوا في الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد على ألا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته. فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا بالذي حلفت به كذلك.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ص ٣٣٧.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته. فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا وأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا صرنا كفرس رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدق. فتركه الأخنس.

فهذه القصة تنبئنا بتأثر أشراف قريش بالقرآن، واستيقان أنفسهم له. وصدق الله إذ يقول في ذلك: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام: ٣٣]. وما أشبههم في ذلك بفرعون وقومه الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل: ١٤].



مساومات قريش للرسول

لقد حمى الله رسوله منذ نشأته من عبادة الأصنام. فلم يعرف عنه قط أنه عبد صنمًا، أو اهتم بشأنه. ومنذ أوحى الله إليه رسالته الخالدة، الداعية إلى عبادة الله وحده. ودعاه إلى إنذار قومه.

لم يأبه أشرافهم لهذه الدعوة، وانصرفوا عنه. منذ هذه اللحظة أخذ يعيب على قومه عبادة هذه الأصنام، ويسفه أحلام عُبَّادِها. وكان هذا أشد ما ضايق كفار قريش. فقد كان هينًا عليهم أن يتركوه يدعو لربه كما شاء لولا محاربته أصنامهم.

وكان القرآن يهاجم هذه الأصنام، ويجادلهم بالمنطق والعقل. فهو يعيب عليهم في سورة الأعراف: أنهم أشركوا مع الله هذه المخلوقات التي لم تخلق شيئًا بل لم تصنع نفسها بل الله هو صانعها بما مكن الناس من نحتها. ولا تستطيع أن تحميهم من أية نازلة تصيبهم. بل لا تستطيع حماية نفسها ممن يريد تكسيرها أو إهانتها. وإذا حاولوا دعوتها إلى أمر فيه خيرها لا تستطيع الاستجابة لهم فيستوي في ذلك أن يكلموها أو يصمتوا.

إن هذه الأصنام ما هي إلا عباد مثلهم خلقها الله سبحانه بمشيئته. وهي عاجزة عن تلبية دعائهم. وإن كانوا في ريب فيما ولوا ذلك إن كانوا صادقين في ادعائهم أنها آلهة.

ثم يبين لهم عجزها التام عن مستوى البشرية فضلًا عن الألوهية. فيسألهم ساخرًا، هل لهم أرجل يستطيعون المشي بها، أو أيد للبطش، أو أعين للإبصار، أو آذان للسماع؟ ثم يتحداهم بعد ذلك أن يدعوا هؤلاء الشركاء ويبذلوا كل جهودهم للإضرار بمحمد، وألا يهملوه [وهذا منتهى الاستخفاف بهم وبآلهتهم] وما ذلك إلا لأن محمدًا وليه الله الذي نزل عليه القرآن، والذي يتولى الصالحين من خلقه برعايته وحفظه.

ويعود مرة أخرى للتنديد بآلهتهم، ورميها بالعجز عن حمايتهم أو حماية

أنفسها، وأنها لا تسمع دعاء ولا نداء. ويخيل إلى من رآها أنها تنظر إليه بعيونها المصورة. وهي لا تبصر شيئا.

يقول تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩١ – ١٩٨).

وفي سورة الفرقان يعيب الله على كفار العرب اتخاذ آلهة من دون الله. هذه الآلهة عاجزة عجزًا تامًّا؛ فهي لا تخلق شيئًا كما يفعل الله الخالق القادر بل هي مخلوقة. ولا تملك لأنفسها ضرًّا ولا نفعًا. ولا قدرة لها على الإماتة أو الإحياء أو البعث. فكيف تعبد مثل هذه الآلهة؟

يقول تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ الآية (٣).

ولقد شق على مشركي مكة عيب محمد لآلهتهم، ورأوا أن أبا طالب يحمي محمدًا منهم فقد روت كتب السيرة أن رجالا من أشراف قريش مشوا إلى أبي طالب. فقالوا له: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنَّا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا، وردهم ردًّا جميلًا.

ولكن الرسول ﷺ استمر على نهجه في الدعوة إلى الله، وذم آلهة المشركين. فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفًا ومنزلة

فينا. وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا عنه. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم. ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه.

ثم بعث إلى رسول الله ﷺ. فقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا. فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه رأى، وأنه خاذله ومسلمه إليهم. فقال: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه. ثم بكى رسول الله وقام فناداه أبو طالب. وقال له: يا ابن أخي: اذهب فقل ما أحببت. فو الله لا أسلمك لشيء أبدًا.

فهذه الحادثة توضح عدة أمور: أولها غيظ المشركين من الرسول، وعجزهم من أن يفعلوا به شيئًا وذلك لحماية عمه أبي طالب له. وثانيها منزلة أبي طالب لدى أشراف مكة؛ فهم لا يستطيعون إيذاء محمد إلا بإذنه كي لا يغضبوه. وثالثها حب أبي طالب لمحمد، وحرصه عليه مع أنه لم يؤمن بما جاء به. وكأن الله جعل ذلك آية للناس على قدرته على أن يجعل من يكفر به يكون نصيرًا لدينه، وحاميًا لنبيه. ورابعها صلابة الرسول ﷺ وعظيم إيمانه بما ندبه الله له فهذه العبارة الخالدة التي لا يزال الدهر يردد صداها: «والله لو وضعوا الشمس في يميني ... » لا تصدر إلا عن نفس قد سيطر الإيمان بالله الواحد عليها. واليقين بصدق الدعوة المكلف بها يملأ كل جوانبها.

ولقد حاول الكفار أن يساوموه ليكف عن عيب آلهتهم. فيذكر المفسرون في سبب نزول سورة (الكافرون) أن الوليد بن المغيرة وبعض أشراف قريش لقوا رسول الله ﷺ: فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد.. ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله. فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا كنا قد شاركناك

فيه وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه. فأنزل الله عز وجل هذه السورة التي تعلن المفاصلة التامة بين دين محمد دين الحق والهدى. وبين دينهم الباطل. فلا ينبغي لمحمد أن يعبد آلهتهم الوثنية، ولن يرضوا هم بعبادة ربه الحق الواحد. وقد كررت السورة هذا المعنى لتأكيده. ثم كان ختامها إعلان أن الدينين لا يمكن أن يتفقا أو يتحدا.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾.

وتستمر مساوماتهم للرسول ﷺ، ويبذلون له كل مغريات الحياة من مال وسلطان وجاه. وإيمانه ثابت لا يتزعزع، ويقينه صلب لا يلين. يروي ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة – وكان سيدًا – قال يومًا وهو جالس في نادي قريش. ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا – وذلك بعد أن أسلم حمزة. ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون – فقالوا: بلى، يا أبا الوليد قم إليه فكلمه فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة، والمكان في النسب. وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك. وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنه

ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. حتى إذا أفرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه. ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد. ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه. فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم. وكنتم أسعد الناس به. قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

هذه القصة توضح مدى خوفهم من دين محمد على آلهتهم، وضيقهم بسبب آلهتهم وخشيتهم من أن يستفحل أمره فيبطل دينهم ودين آبائهم. من أجل ذلك يبذلون له كل ما يستطيعون لإغرائه، ويتنازلون له عن سلطتهم وسيادتهم – وهي عزيزة على هؤلاء السادة – إن كف عما يدعوا إليه.

وأمر آخر تكشف عنه هذه القصة إلى جانب قصص أخرى تقدمت – هو مدى تأثرهم ببلاغة القرآن وسحر بيانه. فلا يكاد الرجل العظيم منهم – وهو في الذروة

من البلاغة – يستمع إلى القرآن حتى يقر بعظمته، ويعلن ذلك أمام قومه معترفًا أنه فوق طاقة البشر.

ولذلك تحداهم الله أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأكد عجزهم عن الإتيان بمثله حتى لو استعانوا في ذلك بالجن. يقول تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من تأليفهم واختراعهم ما داموا يدعون أن محمدًا هو الذي ألف القرآن واخترعه. فإذا عجزوا عن ذلك فاعلموا أيها المنصفون أن القرآن منزل من عند الله؛ لأن كلام البشر لا يعجز عنه البشر. ولكن الكلام الذي لا يستطيع أحد الإتيان بمثله هو كلام الله. يقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣-١٤].

وتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله وليستعينوا بمن شاءوا في تأليف هذه السورة إن كانوا صادقين في ادعائهم أن محمدا افتراه. يقول تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

ولذلك كان مشركو مكة يحاولون أن لا يستمعوا للقرآن وهو يتلي كي لا يتأثروا به. وقد وصف القرآن موقفهم هذا في سورة «فصلت» فبعد أن بين الله سبحانه أن القرآن جاءت آياته مفصلة فيها الحكم والمواعظ والقصص، وأنه قرآن عربي نزل على قوم يعلمون العربية، ويتذوقون بلاغتها. وقد جاءهم بشيرًا للمؤمنين بالجنة ونذيرًا للكافرين بالنار. فأعرض أكثرهم عن سماعه، وتدبروا ما فيه وأعلنوا أن على قلوبهم أغطية فلا يمكنها أن تتدبر آياته، وفي آذانهم ثقل فلا

تستمع إليه. وأنهم قد ضربوا بينه وبينهم حجابًا يعزلهم عنه.

يقول تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الآيات (٣/ ٥).

وفي نفس السورة ينصح بعضهم بعضا ألا يحاولوا سماع القرآن، بل عليهم – حينما يوجدون في مجلس يقرأ فيه القرآن – أن يحدثوا لغطًا وضوضاء كي لا يستطيع أحد سماعه. فلعل هذا يؤدي إلى غلبتهم عليه.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ الآية (٢٦).



مقترحات للتحدي

لم يكف سادة قريش عن إيذاء الرسول بالقول والفعل فهم – كما رأيته – اتهموه بالجنون والسحر والكذب والكهانة. ثم اقترحوا عليه الإتيان بمعجزات يتحدونه بها، ويعلنون عن عدم إيمانهم به لو أتى بها. وقد أورد القرآن نماذج من مقترحاتهم وفند رأيهم.

ففي سورة الإسراء يعلن سادة قريش أنهم لن يؤمنوا له إلا إذا أتى بإحدى هذه المعجزات: أن يجعل أرضهم الصحراوية يتفجر منها ينبوع ماء يستقون منه.

أو أن تكون له حديقة تملؤها النخيل والأعناب وتتدفق الأنهار من حولها تدفقًا أو يجعل السماء تتساقط على رؤوسهم قطعا لكفرهم كما أوعدهم. أو يحضر الله والملائكة فيرونهم عيانًا مواجهين لهم أو يبني الله له بيتًا من ذهب يسكن فيه. أو يصعد إلى السماء ويرونه بأعينهم صاعدًا إليها، ومع ذلك لن يؤمنوا به إلا إذا أحضر معه كتابًا من السماء من عند الله يقرونه ويجدون فيه أن الله بعثه رسولا إليهم.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ الآيات (٩٠/ ٩٣) سورة الإسراء.

ويلقنه الله الجواب على هذه المقترحات المتعنتة فيطلب منه أن يبدي لهم تعجبه من مثل هذه المطالب. فهو لم يدَّع قط أنه فوق مرتبة البشرية. ولم يقل لهم أكثر من أنه بشر مرسل إليهم لتبليغ دعوة الله إليهم. وما يطلبونه فوق طاقة البشر وأمره إلى الله.

ويخبرهم ثانيًا أن رفضهم الإيمان به لأنه بشر – وهم يريدون أن يكون الرسول ملكًا – أمر يدل على جهلهم لأن الملائكة لا يمكن أن يتفاهموا مع البشر. ولو أمكن ذلك لأنزل عليهم ملكًا رسولًا من السماء. وأخيرًا يطلب منه أن يجعل الله شهيدا على ما يفعلونه وكفى به شهيدا فهو الخبير بعباده البصر بأحوالهم.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾[الإسراء: ٩٣-٩٦].

وفي سورة الحجر يجبه الكافرون الرسول بتهمة الجنون، ويتحدونه أن يأتيهم بالملائكة يشهدون أن رسول إن كان صادقًا في ادعائه. ويرد الله على طلبهم هذا أن الملائكة لا تنزل إلا بالعذاب، وأنها لو نزلت إليهم لقضت عليهم ولم تمهلهم.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾[الحجر: ٦ – ٨].

ثم يذكر الله بعد ذلك أن طلبهم هذا ليس إلا تحديًا وعنادًا. وأن الله لو فتح بابًا من السماء، ومكنهم من الصعود فيه كآية على صدق رسول الله لاتهموا الرسول بأنه سدَّ أبصارهم وسحرهم، فخيل إليهم أنهم يفعلون ذلك وهم لم يفعلوه.

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجر: ١٤ – ١٥].

وفي سورة الأنعام يذكر الله مثلًا آخر على عنادهم وإصرارهم على الكفر فيخبر أنه لو أنزل على رسوله كتابا سُطر على ورق كما اقترحوا عليه. [كما ورد في

سورة الإسراء] وأنزل الكتاب أمام أعينهم، ولمسوه بأيديهم لكفروا به، وأعلنوا أن ما حدث سحر مبين. ثم يرد على اقتراحهم بأن ينزل الله ملكًا يبلغهم رسالات ربهم ليطمئنوا إلى صدقه فيخبرهم الله أنه لو أجاب طلبهم ولم يؤمنوا لهلكوا في الحال كعادة الله مع الأمم السابقة. ثم يناقشهم في نزول الملك. إنه من المحال أن يروه في صورته الملائكية، ولكي يروه، ويفهموا رسالته لابد أن يخرجه الله من صورته الملائكية إلى صورة بشرية فيكون رجلا مثلهم، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر فلا يدرون إن كان ملكًا أو رجلًا يخدمهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٧ – ٩].

وإلى جانب إيذائه بهذا التكذيب المستمر، وتعنتهم في مطالبهم كانوا يؤذونه بالفعل فكانت امرأة أبي لهب – وكانت جارة له – تضع القذى والشوك أمام بابه. ورآه عقبة ابن أبي معيط يسجد فوضع فوقه كرش شاة مذبوحة وأمعاءها. وظل كذلك حتى جاءت فاطمة فرفعت عنه هذا القذر.

ويحكى عمرو بن العاص – فيما يرويه ابن إسحاق – أن قريشًا اجتمعوا يومًا في الحجر فذكروا رسول الله ﷺ وعيبه آلهتهم وتسفيه أحلامهم. فبينا هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفًا للبيت فلما مر بهم طعنوه بألسنتهم فتغير وجه الرسول. فلما مر بهم الثانية فعلوا مثل ذلك وكذلك في الثالثة فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه رأيًا قبل ذلك ليكلمه بأحسن ما يجد من القول. حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولًا فانصرف

رسول الله ﷺ فلما كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم البعض. ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه. حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول: كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم. فيقول رسول الله ﷺ: نعم، أنا الذي أقول ذلك. قال عمرو: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه: فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول: ربي الله. ثم انصرفوا عنه. يقول عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط.

القرآن يذم رجالًا من المشركين آذَوا رسول الله:

وردت آيات في القرآن الكريم تسب نفرًا ممن آذوا رسول الله ﷺ وعلى رأس هؤلاء أبو لهب وزوجه أم جميل – حمالة الحطب – وكانا يؤذيان رسول الله كثيرًا فأما أبو لهب – وهم عم الرسول – فكان من أول من كذب الرسول عندما بدأ الجهر بدعوته، وقال له: تبا لك ألهذا جمعتنا؟ وكان يلقي الوافدين على مكة الذين يريدون مقابلة رسول الله فيقول لهم لا تلقوه إنه كذاب وساحر وغير ذلك من التهم. فدعا الله عليه بالتباب – أي الهلاك – وذكر أن ماله وما حصله في الدنيا من جاه لا يغنى عنه فتيلًا يوم يقذف في نار جهنم ذات اللهب المحرق. ثم تناولت السورة امرأته بالذم لما كانت تقوم به هي الأخرى من إيذاء رسول الله ﷺ فوصفتها بأنها حمالة الحطب تحقيرًا لشأنها ووصفا لحالها فقد كانت تجمع الشوك وتلقيه في طريق الرسول كما وصفها بأنها تتحلى بحبل من ليف بيانًا لهواها، أو أنه حبل من نار سيلف جيدها يوم القيامة.

يقول تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن

مَّسَدِۭ[١] ﴿٥﴾ ﴾ [سورة المسد].

وأبو لهب هو الشخص الوحيد الذي ذكر القرآن اسمه صراحة وحكم عليه هو وزوجه بالهلاك والخسران وأنهم مأواهما جهنم، وهذا يدل على أمرين:

أولهما صدق الرسول فيما يخبر عن ربه وأن قرآنه ما هو إلا وحي من الله وإلا – لو كان غير ذلك – فكيف يأمن محمد أن يدخل الإيمان قلب أبي لهب أو يدعي الإيمان فيحكم بذاك على القرآن بالكذب. ولكنه لم يفعل لأن الله الذي يعلم ما في الضمائر علم أن شقوته غلبت عليه فلن يؤمن. وذلك قبل موته بسنين عديدة.

وثانيهما أن الإسلام لا يعترف بقرابة النسب. فهذا عم محمد، ولو أن محمدًا لم يكن رسول الله لاهتم كثيرًا بأمر هذه القرابة وقدمها على الدين. وللقرابة في المجتمع الجاهلي شأن أي شأن. وقد عرفنا كيف كان أعظم نصير للرسول عمه الكافر أبو طالب. ولكن الإسلام لا ينظر إلا إلى عمل المرء وما يمكنه ضميره.

شخص آخر آذى الرسول ﷺ، وذمه القرآن ولم يذكر اسمه بل وصفه بما يستحق من صفات الذم. وأنزل فيه سورة كاملة هي سورة «الهمزة» هذا الرجل هو أمية بن خلف كان كلما رأى رسول الله ﷺ عابه وإذا غاب عنه اغتابه فتوعده الله بالويل أي الهلاك – ويقال إن الويل واد في جهنم – وقد وصفه بأنه همزة لمزة – أي كثير الهمز أي العيب للناس في وجوههم، وفي غيابهم – ثم يبين أن ماله الكثير الذي جمعه من كل طريق، وفاخر بعدده وكثرته لن يحقق له الخلود في الدنيا بل سيموت ويقذف في الحطمة ذليلًا منبوذًا. ويعرف الله الحطمة بأنها ناره الموقدة، التي تعرف حقيقة ما في القلوب، فتعذبهم على قدر ذلك. وهذه النار ستطبق عليهم، وتحيط بهم أعمدة من نار فلا يستطيعون منها خروجًا.

يقول تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ

---

(١) ليف.

أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الهمزة.

وهناك رأي يقول إنها عامة نزلت في كل شخص يتصف بهذه الصفات دون تحديد. ومنهم النضر بن الحارث كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذر قريشًا ما أصاب الأمم الخالية. خلفه في مجلسه إذا قام، وحدثهم عن رستم واستفنديار من ملوك الفرس. ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني. وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها؛ فهو يحدثكم عن عاد وثمود وأنا أحدثكم عن فارس والروم. فذمه الله في سورتين: سورة لقمان حيث وصفه بأنه يقول للناس أحاديث مزوقة يصدهم بها عن سبيل الله ودعوة محمد، ويهنأ بآيات الله التي أنزلت عليه. فهذا وأمثاله لهم عذاب مخز. ثم يذكر أنه إذا تلا عليه الرسول آيات من القرآن تركه استكبارًا كأنه لم يسمع منه شيئًا. وكأن في أذنيه ثقلًا يمنعه من السماع. فبشره يا محمد بعذاب موجع في الآخرة.

يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ الآيات (٦/ ٧).

وفي سورة الجاثية يصفه الله بأنه أفاك – أي كثير الكذب – أثيم ويدعو عليه وعلى أمثاله بالويل والهلاك. ويذكر أنه يسمع آيات الله تقرأ له من رسول الله فيصر على كفره استكبارًا كأنه لم يسمعها. ويطلب الله من رسوله أن يبشره بعذاب ووجع في الآخرة. كما أن هذا الأفاك يسخر من آيات الله ويستهزئ بها فله وأمثاله العذاب المخزي.

يقول تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ

يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾﴾ الآيات (٧/ ٩).

وممن ذمه الله في القرآن لأنه كان يؤذي الرسول ﷺ الأخنس بن شريق الثقفي – فهو ليس قرشيًّا ولكنه كان حليف بني زهرة – كان يصيب الرسول كثيرًا بفاحش قوله. فأنزل الله فيه آيات في سورة القلم وصفه فيها بصفات ذميمة: فهو كثير الحلف. ولا يلجأ إلى الحلف كثيرًا إلا الكذاب، ذليل حقير عند الله – وإن كان عزيزًا بين الناس. كثير العيب للناس، ويمشي بالنميمة بين المتصادقين ليفسد بينهم، لا يبذل الخبر لأحد، ويمنع الآخرين عن فعله، يعتدي على غيره، ويفعل دائمًا ما يوقعه في الإثم.

وبعد ذلك كله هو جافٍ غليظ القلب شديد الخصومة في كفره، لئيم. يصف آيات الله التي ينزلها على محمد بأنها أكاذيب وأساطير من أساطير الأولين. وما ذلك إلا لأن الله أنعم عليه بالمال والولد. فكان هذا شكره بل كفره بنعم الله عليه. ثم يتوعده الله بأنه سيعلم على أنفه – موضع الكبرياء عندهم – بعلامة يوم القيامة يعرف الناس منها غضب الله عليه.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾﴾ الآيات (١٠/ ١٦).

كما قال المفسرون إن الأخنس هذا أتى الرسول ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه، وكان حسن العلانية خبيث الباطن، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر فأحرق الزرع وقتل الحمر فأنزل الله تعالى فيه الآيات[١]:

---

[١] صفوة التفاسير عند تفسير هذه الآية.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤ – ٢٠٦].

وكان أبو جهل ينهي رسول الله ﷺ عن الصلاة، ويقول: لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن على عنقه. فأنزل الله فيه آيات في سورة العلق [وقد عرفنا أن خمس الآيات الأوَل من هذه السورة أول ما نزل من القرآن. ولكن هذه الآيات الواردة في ذم أبي جهل نزلت بعد ذلك بسنين ثم ضمت إلى الآيات الأولى لمناسبة بينها ربما تكون أن الآيات تدعوا إلى القراءة باسم الرب، والآيات الأخيرة تذم من ينهي عن الصلاة التي تتضمن هذه القراءة] وقد تضمنت هذه الآيات أولًا التعجب من نهيه عبدًا من عباد الله عن الصلاة، حتى لو كان هذا العبد على طريق الهدى ولا يأمر إلا بالتقوى. وهذا الناهي من المكذبين بدين الله، المعرضين عنه. ثم يحمل أبا جهل على الإقرار بعلمه بأن الله يراه، ويطلع على كل ما يفعله من شر.

يقول تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ الآيات (٩/ ١٤).

ثم تضمنت ثانيًا تهديده – إن لم يكف عن موقفه من محمد – بأن الله سيأخذ بناصيته – كناية عن إذلاله وتحقيره – ثم يصف هذه الناحية – أي صاحبها – بأنها كاذبة خاطئة. ويتحداه أن يجمع كل أهله وصحبه لينصروه – ولن ينتصر – لأن الله سيدعو له زبانية جهنم ليأخذوه ويلقوه فيها. ثم يتوجه إلى رسوله ناهيًا له عن طاعته وداعيًا له أن يستمر في صلاته وسجوده وتقربه إلى الله.

يقول تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا (١) بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ

---

(١) نجره بناصيته إلى النار.

نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ الآيات (١٥/ ١٩).

وآخر رجل أذكره من هذه العصبة الذميمة التي كانت تتعرض للرسول بالأذى وتصد الناس عنه العاص بن وائل السهمي – والد عمرو – يقول حباب حباب بن الأرت الصحابي المعروف: «كنت رجلا قينًا – أي حدادًا – بمكة فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفًا فجئت أتقاضاه – أي أطلب ثمنه – فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله فيه قوله تعالى في سورة مريم: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ الآيات..

وهذه الآيات تتعجب من هذا الكافر الذي يظن أن الله سيعطيه في الآخرة – كما في الدنيا – المال والولد. ويسخر الله منه: هل اطلع على الغيب، أم أخذ عهدًا من الرحمن بذلك. ثم ينفي الله – بشدة – ذلك ذاكرًا أن كل أقواله ستسجل عليه، ليحاسب عليها، وسيكون له عذاب طويل في الآخرة. وسنسلب منه ما يعتز به في الدنيا من المال والولد. ويأتينا وحيدًا.

يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾[مريم: ٧٧ – ٨٠].

حزن الرسول وتسلية القرآن له

كان الرسول يضيق صدره بما يلقاه من قومه، ويحزن على عدم إيمانهم، وكان الله يسليه عن ذلك بذكر قصص الأنبياء السابقين، وما لاقوه من قومهم، وعاقبة المكذبين. ويدعوه إلى المصير على إيذائهم فيقول تعالى له: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾(١) ويقول له في المزمل: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾(٢) وفي سورة الحجر يقول له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾(٣) وفي سورة الأنعام ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾(٤) فالله تعالى يسليه في هذه الآية بأمور هي:

١- أن تكذيب هؤلاء المكذبين ليس صادرًا عن اعتقادهم بما يقولون بل هم يؤمنون به في قرارة أنفسهم، ولكن يمنعهم من إعلان ذلك ما يتصفون به من جحود.

٢- أن الرسل قبلك قوبلوا بما قوبلت به من تكذيب، ولاقوا ما لاقيت من إيذاء فصبروا على ذلك.

٣- أن هذه سنة الله التي لا تتبدل ولقد عرفتها بما أنزل عليك من أنباء المرسلين.

ويصل الحزن برسول الله غايته حتى ليقول الله إنك ستهلك نفسك من الحزن

---

(١) القلم (٤٨) وصاحب الحوت هو يونس.

(٢) الآية (١٠).

(٣) ٩٧/٩٨.

(٤) ٣٣/ ٣٤.

على عدم إيمان هؤلاء الكافرين ففي سورة الشعراء يقول له: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (١) فالله يبين له في الآية الثانية أن الله قادر على أن يجبرهم على الإيمان قهرًا بإنزال آية من السماء لا يملكون حيالها إلا الإيمان ولكنه إيمان المضطر والله يريد إيمان المختار وفي سورة الكهف: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (٢).

وكان الرسول ﷺ يشق عليه إعراض قومه عن الإيمان، ويود لو استطاع أن يهديهم إلى الإيمان فيبين الله له أن ذلك ليس بإرادته بل بإرادة الله الذي لو شاء لجمعهم على الإيمان ولكن اقتضت حكمته أن يترك للناس اختيار الإيمان أو الكفر. فإن استطعت يا محمدا أن تحفر نفقًا في الأرض، أو تنصب سلمًا إلى السماء لتأتيهم بآية تدفعهم إلى الإيمان فافعل ولن يجدي ذلك شيئًا فلا تكن من الجاهلين.

يقول تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنعام: ٣٥].

وقد عاتب الله رسوله عندما رأى أن حرصه على هداية سادة قريش لعلهم يؤمنون فيؤمن أتباعهم قد دفعه إلى إهمال رجل من ضعفاء المسلمين وذلك أن عبدالله بن أم مكتوم ذهب إلى رسول الله يومًا، وكان عنده بعض أشراف قريش يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إليه، وكان يرجوا إيمانهم. فأخذ ابن أم مكتوم يقول يا رسول الله أرشدني . والرسول يعرض عنه. فعاتبه الله هذا العتاب البليغ في

---

(١) الآية (٤).

(٢) الآية (٦).

سورة «عبس». يبدؤها مصورًا حال الرسول عندما رأى ابن أم مكتوم. فقد اكفهر وجهه ضيقًا لحضوره في هذا الوقت – وهو يعرف أسئلة ابن أم مكتوم في الدين ولو تفرغ له لانصرف عنه أشراف قريش – فأعرض عنه. ثم يعاتبه الله على ترك هذا الرجل الذي يريد أن يتطهر ويتذكر آيات القرآن فتنفعه هذه الذكرى بينما ينصرف إلى رجال من السادة لا يعنيهم أمر دينه، ويرون أنفسهم في غنى عنه. وماذا يضيرك لو استمر هؤلاء على كفرهم. وأما الذي يأتيك ساعيًا يريد العلم ويخشى الله فأنت عنه تلهى أي تتشاغل بغيره. لا تعد لهذا، فما القرآن إلا تذكرة وما عليك إلا البلاغ. فمن انتفع بالقرآن فقد اهتدى.

يقول تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

[عبس: ١-١٢].

ولنتدبر هذه الآيات لنتأكد من عظمة هذا الدين الذي لا ينظر إلى الإنسان من زاوية الغنى أو الجاه. بل من زاوية التقوى، وإرادة التفقه في الدين. فرجل مثل ابن أم مكتوم الأعمى الضعيف يرجح في ميزان الإسلام كل سادة قريش بأموالهم وجاههم ولنتأمل التعبير بلفظ «الأعمى» الذي يفيد أنه مدعاة للشفقة والإكرام لا الإهمال.

كما نهى الله رسوله أن يقبل اقتراح بعض سادة قريش أن يطرد من الدين الفقراء والضعفاء. لكي يدخلوه هم فهم لا يقبلون المساواة بهؤلاء الأتباع. يروي الطبري في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ أن ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين. فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء عن قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير لهؤلاء تبعا؟ اطردهم،

فلعلك إن طردتهم نتبعك. فأنزل الله هذه الآية.

وهذه الآية تنهي الرسول عن طرد هؤلاء المسلمين، وتصفهم بأنهم دائموا العبادة فهم يعبدون ربهم صباحًا ومساء يريدون رضاه. ثم تبين له أن حسابهم على الله كما أن حسابك كذلك ولن يحاسَب أحد على عمل الآخر. فليس لك حق في طردهم وإلا كنت من الظالمين. ثم يذكر في الآية التالية أن دخول هؤلاء الفقراء في الإسلام أولًا هو اختبار للأغنياء لأنهم يظنون أنهم الأحق بكل خير ويقولون لو كان في الإسلام خير لما اختار الله هؤلاء الفقراء ليؤمنوا به قبلنا – وما أشبه ذلك بقولهم: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١]. ثم يرد الله عليهم رأيهم الساذج بأن الله يعلم المستحقين من عباده للدخول في الإسلام فيهديهم إليه.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٢ – ٥٣].

وكثيرة هي الآيات التي تبين للرسول مهمة رسالته فهي البلاغ والتذكرة كقوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

إيذاء المشركين لمن آمن بمحمد:

منذ أن خاب سعي قريش في صد محمد عما جاء به، وأبى عمه أبو طالب أن يسلمه إليهم. وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يذيقونهم أشد ألوان العذاب. ولقى العبيد والمستضعفون من أسيادهم عذابًا لا رحمة فيه. وقد وصل التعذيب ببعضهم إلى حد القتل، أو الاستسلام الظاهري كما حدث مع ياسر وزوجته وابنه، أما ياسر فقد مات تحت وطأة التعذيب، وأما زوجته فقد طعنها سيدها بحربة في قُبُلِها فقتلها. وأما عمار فقد لقى من العذاب ما عجز عن تحمله، واضطر أن يقول بلسانه لهم ما أرادوه عليه من كفر. فلما أطلقوا سراحه ذهب إلى الرسول باكيا نادمًا وشكا إليه أمره. فقال: (كيف تجد قلبك؟) قال: (مطمئنًا بالإيمان) قال: (فإن عادوا فعد) وأنزل الله قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

فهذه الآية رخصت للمسلمين – إذا لم يتحملوا وقع العذاب عليهم – أن يرتدوا عن دينهم بألسنتهم فقط، ما دامت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، وذلك رحمة بهم. لكن توعدت الذي يرتد عن الدين اعتقادًا منه ببطلانه، توعدته بغضب الله وعذابه العظيم. ولم يعرف من تاريخ المسلمين الأوائل من استخدم هذه الرخصة بعد عمار. فقد قاوموا التعذيب بشجاعة نادرة، وتحدٍّ يغيظ الكفار، كما فعل بلال وهم يعذبونه، ويضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد. أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها نقلتها.

وكان أبو بكر يشتري العبيد المسلمين من مواليهم ليقيهم العذاب، ثم يعتقهم وقد فعل ذلك مع عدد منهم. منهم بلال بن رباح.

إسلام حمزة:

وفي أثناء ذلك أسلم حمزة عم النبي ﷺ – وهو من شجعان قريش المعدودين– حمية لابن أخيه، عندما أخبرته إحدى الإماء باعتداء أبي جهل علي ابن أخيه محمد فغضب حمزة، وذهب إلى أبي جهل وضربه بقوسه فشجه. وقال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول. فرُدَّ ذلك علي إن استطعت. وحاول بعض أقارب أبي جهل نصرنه. فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة فقد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا. وتم حمزة على إسلامه فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ عز وامتنع وأن حمزة سيمنعه: فكفو عن بعض ما كانوا ينالون منه.

الهجرة إلى الحبشة:

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وإسلام عمه حمزة. وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق. حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه.

فخرج عند ذلك عدد من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة. وكان منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت الرسول. وجعفر بن أبي طالب ابن عمه. وقد خرجوا في هجرتين. كانوا في الأولى أحد عشر رجلًا وأربع نساء. ثم أقاموا في حماية النجاشي بمأمن من أذى قريش ثم وصل إليهم نبأ المصالحة بين الرسول وأهل مكة، وأن المسلمين أصبحوا في مأمن فعادوا. وذلك بعد ثلاثة أشهر. ولكن اتضح لهم كذب هذه الأخبار، وأخذ المشركون يؤذونهم. فعادوا إلى الحبشة ثانية – وهي الهجرة الثانية – وزاد عددهم هذه المرة إلى ثمانين رجلًا غير النساء. وأقاموا بالحبشة إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة بسنوات.

لما رأت قريش استقرار المسلمين بأرض الحبشة قرروا أن يردوهم إليهم

ليفتنوهم عن دينهم. فأرسلوا رجلين منهم هما عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعمرو بن العاص السهمي بهدايا إلى النجاشي وبطارقته، وأن يطلبوا من النجاشي تسليمهم الرجلين دون أن يستمع إليهما – خوفا من أن يتأثر بأقوالهم. ولكن النجاشي رفض ذلك وأصر على أن يستمع إليهم. فقام جعفر بن أبي طالب وشرح للنجاشي ما أتى به الإسلام من عبادة الله، وحض على الفضائل، ونهى عن الرذائل. وقارن بينه وبين ما كانوا عليه في الجاهلية من منكرات. وتلا عليه آيات من سورة مريم فتأثر بها النجاشي وبطارقته ورفض النجاشي إجابة طلب الرسولين. فعادا إليه في اليوم التالي. وقال له عمرو إنهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا. فسلهم عن رأيهم فيه. فسألهم فقال جعفر: إنا نقول إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فوافق النجاشي على هذا الرأي ولكن لم ترض بطارقته. ولكن النجاشي لم يأبه لذلك. واستمر المسلمون بالحبشة يؤدون شعائر دينهم في أمن واطمئنان.

إسلام عمر بن الخطاب:

ثم أسلم عمر بن الخطاب في السنة السادسة من بعثة الرسول ﷺ وكان إسلامه استجابة لدعوة الرسول: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب. وكان ذا بأس شديد بين قريش، وقد أسلم تأثرًا لسماع القرآن من أخته التي أسلمت قبله. وكان قد ذهب إليها ليبطش بها – لما سمع بأمر إسلامها – ولكنه عندما سمع ما تلته عليه من القرآن رق قلبه. وذهب إلى الرسول فأعلن إسلامه. وكان إسلامه فتحًا للمسلمين. فلم يرض منذ أعلن إسلامه أن يظل الإسلام مستخفيًا فخرج بأصحاب رسول الله في صَفَّيْن: على رأس أحدهما حمزة، وعلى الآخر عمر حتى ذهبوا إلى الكعبة وطافوا وصلوا. وكفار قريش ينظرون إليهم ولا يستطيعون شيئًا.

ومنذ هذا الوقت بدأ المسلمون يتنسمون ريح القوة والأمل. ويستشعرون روح التحدي للكفار، وإن كانت قريش لم تلق سلاحها بعد.

صحيفة المقاطعة

تقول كتب السيرة: «لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلد أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل – اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم على ألا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم. فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتعاقدوا على ذلك. ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم.

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هشام وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شِعبه[1]، واجتمعوا إليه. وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم».

لبث الرسول وأهله وأصحابه ثلاث سنوات متتابعة في هذا الشعب يعانون ألوان الحرمان. ولا يجدون في بعض الأحيان وسيلة للحصول على الطعام. ولم يكن يتاح لهم الاختلاط بالناس والتحدث إليهم إلا في الأشهر الحرم، حين يفد العرب إلى مكة حاجين. في هذه الأشهر كان الرسول ﷺ يدعوا العرب إلى الإسلام ويخوفهم عقاب الله إن نكصوا عن دعوة الإسلام. وأما إذا استجابوا فلهم الثواب العظيم.

ولكن كلما مر الوقت على هذه المقاطعة كان بعض ذوى الضمائر الحية من أشراف قريش يشعر بفداحة ما تسببه هذه المقاطعة لهؤلاء الناس دون ذنب جنوه. وكان من هؤلاء هشام بن عمرو فكان شديد العطف على المسلمين – كان يأتي بالبعير قد حمله طعامًا، فيسير معه في جوف الليل، حتى إذا استقبل فم الشعب خلع

---

(١) شعب في الجبل عرف بشعب أبي طالب.

خطامه ثم ضرب على جنبه فيدخل البعير الشعب عليهم.

وأخيرًا ضاق صدره بما يلاقي هؤلاء النفر الكرام. فمشى إلى زهير بن أمية وكان أبو طالب خاله فقال له: أترضى لأخوالك بما فرض عليهم من مقاطعة أما والله لو كانوا أخوال أبي الحكم (أبي جهل) لما رضى لهم بذلك. تم اتفاقا على العمل على نقض الصحيفة. وضما إليهما ثلاثة رجال آخرين هم المطعن بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود.

وفي اليوم التالي غدا زهير بن أمية فطاف بالبيت سبعًا، ثم نادى في الناس يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكي، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. فصاح به أبو جهل كذبت. والله لا تشق. فتصايح زمعة وأبو البختري والمطعم وهشام كلهم يكذبون أبا جهل فقال: هذا أمر دُبر بليل. ولم يستطع شيئًا. وأخرجت الصحيفة لتشق. فوجد أن الأرضة قد أكلتها، ولم يبق فيها إلا اسم الله.

وفاة خديجة وأبي طالب:

خرج الرسول وصحبه من الشعب، وعادوا إلى حياتهم الأولى. ولكن قريشًا لم تكف أذاها عنهم. وإن كان ذلك لم يمنع الرسول من السعي في تبليغ دعوته لكل من يلقاه من مكة، أو خارجها فيؤمن بعضهم، ويأبى الآخرون. حتى كانت الفاجعة. فقدْ فَقَدَ الرسول ﷺ خير نصيرين له: هما زوجه خديجة وعمه أبو طالب ماتا في عام واحد سماه الرسول عام الحزن. فقد كانت خديجة وزيره وعونه وخير من يخفف عنه ما يلقاه من عنت المشركين وأذاهم. وكان عمه أبو طالب سنده والحامي له من أذى قريش. وكانت مكانته عندهم تمنع أي محاولة منهم للقضاء على الرسول وعلى دعوته. وقد حدث ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات.

فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب. حتى اعترضه سفيه من قريش فنثر على رأسه ترابًا. فدخل

بيته والتراب على رأسه. فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي فإن الله مانع أباك ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب.

ذهاب الرسول ﷺ إلى الطائف طالبًا نصرة ثقيف:

لم يجد الرسول بدًّا من أن ينفض يديه من قريش مؤقتًا. ويلجأ إلى إحدى القبائل العربية يدعوها إلى الإيمان بدعوته. فيكون في إيمانها حماية له ولدعوته. وقد بدأ بقبيلة ثقيف بالطائف لقوتها وقربها من مكة، ولأنه توسم فيها الخير.

ذهب إلى ثقيف بالطائف. فردوه شرد. فطلب منهم ألا يخبروا قريشًا بمجيئه إليهم كي لا يشمتوا به. فلم يأبهوا لكلامه بل أغروا به سفهاءهم يسبونه ويحصبونه فلجأ إلى حديقة لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من قريش وجلس إلى ظل شجرة من عنب. وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ما هو ما فيه من كرب. فاتجه إلى الله شاكيًا بقلب ملؤه الإيمان والرجاء في الله وتأييده: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدد ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي. ولكن عافيتك لي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل على سخطك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك».

هذا الدعاء الرائع علام يدل؟ إنه لا يدل إلا على صدق نبوة الرسول، وعمق إيمانه فهو في هذا الموقف المهين المذل لا يتبرم بالدعوة، أو يتسخط على الله. حاشاه. ولكنه يخش شيئًا واحدًا هو غضب الله عليه. فإن لم يكن به عليه غضب فلا يبالي شيئًا. فهل هناك إيمان أعمق من هذا.

ويعطف عليه ابنا ربيعة فيخرجان له قطفًا من عنب يقدمه له غلامهما عداس

النصراني فلما سمع قول الرسول: بسم الله الرحمن الرحيم عجب. وعلم صدق الرسول في دعوته فأخذ يقبل رأسه ويديه وابنا ربيعة ينظران ويعجبان. ويعرفان من عداس صدق نبوته. ولكنهما لم يؤمنا.

إيمان نفر من الجن بالرسول:

يقول المفسرون إن الجن كانت تتسمع إلى ما يقال في الملأ الأعلى لتنقل خبره إلى أتباعهم من الإنس ويضيفوا إليه ما شاءوا من أكاذيب. ثم فوجئ الجن بأن السماء ملئت حرسًا شديدًا يمنعهم من السماع. وملئت شهبًا تترصد كل مسترق للسمع فتحرقه ففكروا في الأمر. واتفقوا على أن يعرفوا سره. وتفرقوا في البلاد. وكانت طائفة فيهم ممن كتب الله لهم الهداية في طريقهم إلى المعرفة. حتى إذا كانوا بمكان يعرف ببطن نخلة بين الطائف ومكة وجدوا رسول الله ﷺ – أثناء عودته من الطائف – يتلوا القرآن. فأعجبوا بما سمعوا، فقد وجدوه يهدي إلى الرشد فآمنوا به وأعلنوا عزمهم على عدم الإشراك بالله. وقد أنزل الله في ذلك سورة كاملة هي سورة الجن حيث يطلب الله في بدايتها من رسوله أن يخبر الناس أن الله أوحى إليه أنه استمع نفر من الجن إلى القرآن وأنهم أعجبوا به وآمنوا.

يقول تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ – ٢].

نفهم من هذه الآيات أن الرسول ﷺ لم ير هؤلاء الجن، لأن الله يذكر في الآيات السابقة أنه عرف ذلك عن طريق الوحي» ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ وتستمر السورة في الحديث عن الجن وطوائفهم المؤمنين والكافرين وعمق إيمانهم. كما ذكر القرآن ذلك في سورة الأحقاف في بضع آيات تبين أن الله بعث إلى نبيه نفر من الجن وكان الرسول وقتئذ يتلو القرآن. فلما حضر الجن والقرآن يتلى قال بعضهم لبعض أنصتوا كي نتمكن من سماع كل ما يقول. فلما أتم الرسول تلاوته. انصرف الجن إلى قومهم – وقد أعجبهم القرآن فآمنوا به – ليبلغوهم الدعوة، وينذروهم –

وقالوا لقومهم: لقد سمعنا كتابًا جديرا أنزل على نبي جديد جاء بعد موسى. وقد وجدنا فيه الهداية والدعوة إلى الطريق القويم – وطلبوا من قومهم الجن أن يستجيبوا لهذه الدعوة ويؤمنوا بهذا الرسول كي يغفر الله ذنوبهم، ويقيهم من العذاب الأليم عذاب النار وإن الذي لا يستجيب لهذه الدعوة لن يضر الله شيئًا، ولن يستطيع أن يفر من عقاب ولن يجد حاميًا يحميه. إن أولئك الذين لا يستجيبون لهذه الدعوة لفي ضلال بيِّن ظاهر. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾[الأحقاف: ٢٩ – ٣٢].

وهذه الآيات تبين أيضًا أن الرسول لم ير الجن حينما حضروا فالله هو الذي أخبره الخبر على عكس ما تروي بعض الأحاديث أنه شاهدهم وكان يحاورهم.

وقد يَرد على الذهن سؤال: هل الجن مكلفون مثل الإنس؟ والجواب: نعم لأن الله حينما خلق آدم كلف إبليس – وهو من الجن – السجود له. فلما أبى حكم الله عليه بالطرد من رحمته والعذاب الأليم. والله سبحانه يقول: «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»[١]. ولا يعذب الله الجن دون أن يرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين كالإنس.

سؤال آخر: «ولماذا لم يرسل الله إلى الجن رسلًا منهم كي تكون الحجة عليهم ثابتة؟ والجواب إنه من المؤكد أن الله أرسل إليهم رسلًا منهم لأن الله يقول: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء: ١٥]، ويقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا

---

(١) هود ١١٩، السجدة ٣٢.

مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤]، ولكن الله أراد تكريم نبيه محمد، وبيان أن دعوته عامة لكل من الإنس والجن.

ومن المؤكد أن جوهر الرسالات واحد هو الدعوة إلى عبادة الله وحده. وأن كفر الجن لا يختلف عن كفر الإنس. فقد كان بعضهم يشرك بالله ويزعم أن له زوجة وأولادًا وينكرون البعث بدليل قولهم في سورة الجن:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [(١)] ثم يقولون، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ [(٢)].

كذلك نفهم من آيات سورة «الأحقاف» أن الجن كانوا يتابعون رسالات السماء الكبرى فهم على علم ببعثة «موسى» ونزول التوراة عليه بدليل قولهم: «إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى». ومعنى هذا أنهم مطالبون بالإيمان بهذه الكتب الكبرى لقدرتهم على معرفة ما يحدث في الدنيا، وفهم لغات الإنس.

وإذا صح أن هذه الحادثة وقعت في أثناء عودة الرسول من الطائف بعد أن خذلته ثقيف يكون لها معنى واضح هو إدخال السرور على قلب الرسول، وزرع الأمل في نفسه. فقد آمن به الجن. والذي حقق له ذلك قادر على أن يهدي الإنس للإيمان به.

عرض الرسول نفسه على القبائل:

بعد عودة الرسول من ثقيف إلى مكة اشتد إيذاء قومه له، ومخالفتهم لدينه، فكان ينتهز فرصة موسم الحج ليعرض الإسلام على القبائل، ويدعوهم لنصرته. ويخبرهم أنه نبي مرسل بعثه الله ليهدي الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم. فكان يقف على منازل القبيلة بمكة أو منى ويقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم

---

(١) الآيات (١/ ٣).

(٢) الآية ٧.

يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبين ما بعثني الله به».

فعل ذلك مع عدة قبائل منها: الديل، وكندة، وكلب، وبنو حنيفة فكانوا يرفضون دعوته. وبعضهم يرده ردًّا قبيحًا كما فعلت بنو حنيفة.

وذهب إلى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض نفسه عليهم. فقال رجل منهم: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر لله يضعه حيث يشاء. فقال له: أَفَتُهْدَف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك.

وأقف قليلًا عند رد الرسول ﷺ على الرجل الذي ساومه طالبًا الملك من بعده. قال له: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» إن هذا الرد لا يعني إلا شيئا واحدا هو صدق الرسول في دعوته. فأي رجل في ظروفه الصعبة من مطاردة قومه له، وقلة عدد أتباعه، وضعفهم ثم تعرض عليه قبيلة قوية حمايتها على أن ترث الملك من بعده ثم يرفض هذا العرض؟ إلا أن يكون نبيًّا يجعل الأمر كله لله، فالأمر ليس أمره. وهو بعد واثق من وعد الله له بالحماية والنصر.



الإسراء والمعراج

وفي أثناء هذه الظروف الحالكة من حياة الرسول جاءته هدية السماء الكبرى وهي الإسراء والمعراج.

أولًا: الإسراء:

أما الإسراء فقد أشار إليه القرآن الكريم في آية واحدة من سطرين بدأها بتنزيه الله سبحانه عن كل نقص ثم وصفه بأنه هو الذي أسرى بعبده محمد – أي سار به ليلًا – من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس. ووصف المسجد الأقصى بأنه مكان بارك الله حوله أي جعل البركة والخير يحيطان به من كل جانب؛ فهو المكان المقدس الذي انتشر حوله الأنبياء يدعون إلى عبادة الله وحده، ونبذ كل عبادة لغير الله. وكان هذا الإسراء ليريه الله بعض معجزاته [لم يذكر الله هذه المعجزات. وإن كان الإسراء نفسه معجزة كبرى] ويختم الله الآية بوصف نفسه بأنه هو السميع لكل ما يخفى من قول أو حركة، البصير لكل ما دق ولطف في الكون.

يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

ولنتأمل قوله تعالى «بعبده» لم يقل الله برسوله ولا بمحمد لأن آية الإسراء من الخوارق العظمى. فلكيلا يظن أن حدوث هذه الخارقة له تبعده عن العبودية التامة لله اختار لفظ «عبده» لينفي كل شك حول عبودية محمد كما حدث من أتباع عيسى.

ولما كانت الآية القرآنية لم تفصل أمر الإسراء وجب أن نرجع إلى كتب السيرة لتتضح أمامنا الصورة. وقد روى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق عدة روايات سأذكر بعضها.

ففي رواية عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «أُتِيَ رَسول الله ﷺ بالبراق وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له. فصلى بهم. ثم أتى بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. فقال رسول الله ﷺ فسمعت قائلًا يقول حين عرضت علي: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته. وإن أخذ الخمر غوى وغوت آمنه. وإن أخذ اللبن هدي وهديت أمته. فأخذت إناء اللبن فشرت منه فقال لي جبريل: هديت وهديت أمتك يا محمد.

وفي رواية عن أم هاني بنت أبي طالب أنها قالت: «ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي. نام عندي تلك الليلة في بيتي. فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا. فلما كان قبيل الفجر أهبَّنا رسول الله ﷺ. فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين. ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه، فقلت له: يا نبي الله، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك. قال: والله لأحدثنهموه.

قالت: فقلت لجارية حبشية لي: ويحك ! اتبعي رسول الله ﷺ حتى تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم. فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط. قال: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بواد من كذا وكذا، فأنفرهم حسن الدابة فند لهم[١] بعير، فدللتهم

(١) هرب.

عليه، وأنا موجَّه إلى الشام. ثم أقبلت حتى إذا كنت «بضجنان»[١] مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نيامًا، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان. وآية ذلك أن عيرهم تنزل الآن من البيضاء ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان. فابتدر القوم الثنية فوجدوا العير قادمة يقدمها الجمل الأورق وسألوهم عن الإناء فوافق قولهم ما حكاه رسول الله كما ذكروا أن بعيرا ند منهم.

وأجتزئ من رواية ابن إسحاق عن الحسن بذكر أثر إخبار الرسول القوم وتكذيبهم إياه يقول الحسن: «فلما أصبح غَدا على قريش فأخبرهم الخبر. فقالوا: هذا والله لإمر[٢] البين والله إن العير لتطرد شهرًا من مكة إلى الشام مدبرة، وشهرًا مقبلة. أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة. فارتد كثير ممن كان أسلم. وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا: هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه ورجع إلى مكة. فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يُحدث به الناس. فقال أبوبكر: والله لئن كان قاله لقد صدق. فما يعجبكم من ذلك؟ فو الله إنه ليخبر أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم. قال: يا نبي الله فصفه لي فإني قد جئته – فقال ﷺ: فرُفع لي حتى نظرت إليه – فجعل يصفه لأبي بكر. ويقول أبوبكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله كلما وصف لي منه شيئًا. حتى إذا انتهى قال له رسول الله ﷺ: وأنت يا أبا بكر الصديق.

هذه بعض الروايات التي تحدثت عن الإسراء أقف وقفة قصيرة عند بعض ما

---

(١) اسم مكان.
(٢) العجب.

جاء فيها. ففي رواية أم هانئ أن الرسول ﷺ: قد أسرى به من منزلها والقرآن يقول: «أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام» وقد ورد ذلك في بعض الروايات. ويمكن التوفيق بينها بأن الرسول ترك فراشة ببيت أم هانئ إلى المسجد الحرام. أو يقال إن المراد بالمسجد الحرام مكة كلها.

وفي رواية الحسن أن بعض المسلمين ارتد عن دينه لما سمع هذا الخبر. ويقول المفسرون إن الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، نزلت في هؤلاء القوم.

ثانيًا: المعراج:

والمعراج صعود الرسول ﷺ إلى السماوات العلى بعد أن انتهى مسراه في نفس الليلة. ويختلف المعراج عن الإسراء من حيث الاعتقاد فإن المكذب بالإسراء كافر، لأن الله قد نص عليه صراحة في القرآن الكريم، وأما المكذب بالمعراج فلا يكفَّر لأن المعراج لم يذكر صراحة في القرآن. بل فُهم من سورة «النجم» في آيات يمكن للمنكر تأويلها. وأما ما ورد عنه في الأحاديث صراحة فهي أحاديث آحاد ومنكر أحاديث الآحاد لا يكفر بل يُفَسَّق إذا كان ينكر هذا دون دليل.

ولا أريد بهذا أن أنكر المعراج فأنا أؤمن بأن الله قادر على كل شيء كما سأذكر بعد.

وسأبدأ بعرض الآيات التي فهم منها جمهور المفسرين حدوث المعراج حيث يخبر الله تعالى في سورة النجم بأن رسوله محمدًا رأى جبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى أي عند شجرة النبق العظيمة التي ينتهي إليها سير الملائكة فلا يمكن أن يجاوزها أحد – وذلك عندما عرج به إلى السماوات. وسدرة المنتهى هذه تقع عندها جنة المأوى وكان في ذلك الوقت يغطى السدرة من مناظر العظمة والجلال ما يعجز الوصف عن الإحاطة به. وكان بصر الرسول في هذه اللحظات موجهًا

نحو ما سُمح له برؤيته لم يجاوزه لقد رأى في هذه الليلة من عجائب ربه العظيمة – يقول المفسرون رأى من عجائب الملكوت رفرفًا[١] أخضر سد أفق السماء، وجبريل له ستمائة جناح.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[٢].

وقد روي عن النبي ﷺ أحاديث تثبت الإسراء والمعراج. منها ما جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه. فركبته حتى أتيت بيت المقدس. فربطته بالحلقة التي تَربط بها الأنبياء. ثم دخلت المسجد فصليت ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن. فاخترت اللبن، فقال جبريل هديت إلى الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: وقد بعث إليه ففتح لنا. فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير [يتكرر الحوار عند كل سماء بين جبريل وبين حراس السماء بنفس الألفاظ فأكتفى بما أوردته عند السماء الأولى للإيجاز] ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فإذا أنا بيوسف ﷺ وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير – قال الله عز وجل: ورفعناه مكانا عليا – ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فإذا أنا بهرون ﷺ فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى

السماء السادسة فإذا أنا بموسى ﷺ فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فإذا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى. وإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال(١). فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أجد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها – فأوحى الله إلى ما أوحى. ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى ﷺ. قال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة قال: لا ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن قومك لا يطيقون ذلك. فإني قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم) فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي فحط عني خمسا. فرجعت إلى موسى. فقلت: حط عني خمسا. قال: (إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأل التخفيف) فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة. لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملت كتبت له عشرا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا. فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزلة حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته. فقال: (ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقتل: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه».

وهناك روايات عدة لأحاديث وردت عن المعراج، لا تختلف كثيرا عن هذا الحديث إلا في زيادة بعض تفصيلات، أو ترك بعض جزئيات. وسأكتفي بذكر جزء من حديث يروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يذكر بعض أمور رآها الرسول في معراجه ترمز إلى أشياء قبيحة يأباها الإسلام:

يقول أبو سعيد الخدري – وهو يذكر عروج الرسول إلى السماء الأولى – قال

ﷺ: ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار[١] يقذفوها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم فقلت. من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلمًا. ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أرى مثلها قط بسبيل آل فرعون – يمرون عليهم كالإبل المهيومة[٢] حين يعرضون على النار. يطئونهم لا يقدرون أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا.

ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن. يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن.

ثم رأيت نساء معلقات بثديهن. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي ادخلن على الرجال من ليس من أولادهم».

وبعد،

فهل كان الإسراء بالجسد أم كان بالروح؟

يختلف العلماء في ذلك. فمنهم من يقول: إنه كان بالجسد، ومنهم من يقول إنه كان بالروح. ومن القائلين إنه كان بالروح فقط عائشة رضي الله عنها فقد روي عنها أنها قالت: (ما فُقِدَ جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه). ومنهم معاوية بن أبي سفيان. كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ. قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

فلم ينكر ذلك من قولهما؛ لأن لهما سندا من الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ولقول الله تعالى في الخبر عن إبراهيم عليه السلام إذ قال

---

(١) جمع فِهْر وهو الحجر الصغير.

(٢) الشديدة العطش فهي تذهب وتجئ بكثافة الماء.

لابنه: «يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى» فعرف أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظًا ونيامًا.

ويعقب ابن إسحاق على ذلك قائلًا: وكان رسول الله ﷺ يقول: (تنام عيناي وقلبي يقظان) والله أعلم أي ذلك كان قد جاءه، وعاين فيه ما عاين من أمر الله، على أي حاليه كان نائمًا أو يقظان. كل ذلك حق وصدق».

ويرى الدكتور محمد حسين هيكل أن الإسراء والمعراج كانا بالروح. ويدلل على صدق وقوع هذين الأمرين بأن «العلم في عصرنا الحديث يقر هذا الإسراء بالروح، ويقر المعراج بالروح؛ فحيث تتقابل القوى السليمة يشع ضياء الحقيقة. كما أن تقابل قوى الكون في صورة معينة قد طوَّع لماركوني – إذ سلط تيارا كهربيا خاصا من سفينته التي كانت راسية بالبندقية – أي يضيء – بقوة موجات الأثير – مدينة سيدني في أستراليا. وفي عصرنا هذا يقر العلم نظريات قراءة الأفكار، ومعرفة ما تنطوي عليه. كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو، وانتقال الصور والمكتوبات كذلك. وما تزال القوى الكمينة تتكشف لتعلمنا كل يوم الجديد. فإذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد، فأسرى به الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته، كان لك مما يقر العلم. وكانت حكمة ذلك هذه المعاني القوية السامية في جمالها وجلالها، والتي تصور الوحدة الروحية، ووحدة الكون في نفس محمد تصويرًا صريحًا..».

ثم يقول: «ويدلل الذين يقولون: إن الإسراء كان بالجسد على رأيهم بأن قريشا لما سمعت بأمر إسرائه سألته، وسأله الذين آمنوا به عن آية لك .. فوصف لهم عيرا مر بها في الطريق. فضلت دابة من العير فدلهم عليها، وأنه شرب من عير أخرى وغطى الإناء بعد أن شرب منه. فسألت قريش في ذلك فصدقت العيران ما روى محمد عنهما. وأحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجبًا بعد الذي عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم

المغناطيسي للتحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية. ما بالك بروح يجمع الحياة الروحية في الكون كله، ويستطيع بما حباه الله من قوة أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده».



بيعتا العقبة

يثرب:

هي المدينة المنورة، وكانت تسمى قبل ذلك يثرب حتى هاجر إليها الرسول فسماها المدينة. وقد ورد ذكر يثرب في القرآن مرة واحدة في سورة الأحزاب عندما حكى الله عن محاولة المنافقين تخذيل المسلمين عن قتال الأحزاب بدعوى أن بيوتهم مكشوفة للأعداء لا تجد من يحميها: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾[1]. وورد ذكر المدينة أربع مرات: مرتين في سورة التوبة عند الحديث عن تخلف المتخلفين عن الرسول في غزوة تبوك. الآية الأولى تتحدث عن مواطن المنافقين:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾[2]

والثانية تعاتب المتخلفين على تخلفهم: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾[3]

ومرة في سورة الأحزاب عند تهديد المنافقين الذين يعيشون الفتنة في المدينة:

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾[4]

والمرة الأخيرة في سورة «المنافقون» حكاية لزعم عبد الله بن أبي بعد الفتنة التي أثارها في غزوة بني المصطلق أن المنافقين سيخرجون المسلمين من المدينة:

---

(١) الآية (٣٣).
(٢) الآية (١٠١).
(٣) الآية (١٢٠).
(٤) الآية (٦٠).

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[١].

كان يتجاور في المدينة العرب واليهود. وكان العرب ينتمون إلى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج. وأما اليهود فقد خرجوا من اليمن إلى يثرب وأقاموا على أطرافها. ولم يكن بين العرب واليهود ود. بل كان كل فريق يود لو تخلص من الآخر. ولما أحس اليهود بضيق العرب بهم ومحاولتهم التخلص منهم لجئوا إلى الدس بين القبيلتين حتى نشبت الحرب بينهما فيما عرف بيوم «بُعاث» الذي انتصر فيه الخزرج في أول الأمر. ولكن قائد الأوس، حضير بن سماك حث قومه على العودة إلى القتال فقاتلوا قتال المستيئس حتى تحقق لهم النصر. وأخذ حضير ينتقم من الخزرج بحرق دورهم وزروعهم حتى أجارهم منه سعد بن معاذ. وكان اليهود – عندما ينشب خلاف بينهم وبين العرب – يتوعدونهم بأن نبينا سيبعث، وأنهم سيؤمنون به، ويقاتلونهم معه فيقتلونهم قتل عاد وإرم. وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وكان يتردد على مكة للحج أو للتجارة أفراد من الأوس والخزرج. فكان منهم سويد بن صامت الذي قابله الرسول فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. فقال سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي. قال: «وما الذي معك؟ قال: حكمة لقمان فقال له الرسول: اعرضها عليَّ. فعرضها عليه. فقال: إن هذا القول حسن. والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله تعالى عليّ هو هدى ونور، فتلى عليه رسول الله القرآن فقال: إن هذا القوق حسن. ثم عاد إلى المدينة فلم يلبث أن قتلته الخزرج. فيقول رجال من قومه: لقد قتل مسلما. وكان قتله قبل يوم بعاث.

كما التقى برجال آخرين منهم كانوا قد جاءوا إلى مكة التماسًا للحلف مع أهلها ضد الخزرج قبل يوم بعاث. وكان على رأس الوفد أبو الحيسر بن رافع.

---

[١] الآية (٨).

وكان مع القوم إياس بن معاذ وكان غلامًا حدثًا. فلما جلس إليهم رسول الله ﷺ قال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليَّ الكتاب، ثم تلا عليهم القرآن فقال: إياس: هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب فضرب بها وجهه وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، ثم كانت وقعة بعاث. ومات إياس. فيقول من حضر موته إنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويسبحه ويحمده حتى مات.

بيعة العقبة الأولى:

ثم أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز وعده له بالظهور والنصر. فالتقى رسول الله ﷺ باثني عشر رجلا من يثرب منهم تسعى من الخزرج، وثلاثة من الأوس. وكانوا قد سمعوا عن الإسلام، وعن الرسول فجاءوا ليلقوه، وليعلنوا إسلامهم. وكان لقاؤهم عند جمرة العقبة بمنى فبايعهم الرسول على ألا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوا الرسول في معروف.

وتسمى هذه البيعة بيعة النساء [وهذه التسمية أطلقت عليها فيما بعد. عندما أنزل الله تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[الممتحنة: ١٢]، فالأمور التي بايع الرسول عليها وفد يثرب عند العقبة هي نفس الأمور التي طلب الله من رسوله ﷺ أن يبايع عليها النساء. وسبب آخر لهذه التسمية أنه لم يرد فيها مبايعة على الحرب كما سيحدث في البيعة الثانية].

وقد وعدهم الرسول ﷺ بالجنة إذا وفوا بها. وإن ألموا بشيء مما نهوا عنه

فأمرهم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر.

فلما اعتزم الوفد الرحيل إلى المدينة بعث الرسول معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين فكان يسمى بالمدينة «المقرئ» وكان يقيم عند أسعد بن زرارة. وكان يؤم المسلمين في الصلاة.

وقد أسلم على يديه عدد كبير من الأوس والخزرج. من أهمهم أُسَيْد بن حُضَير وسعد بن معاذ سيدا الأوس. ولإسلامهما قصة يرويها ابن هشام في سيرته تدل على عمق تأثير القرآن في النفوس، وسحر بيانه المعجز الذي يسبي العقول، ويخلب الألباب.

يقول ابن إسحاق: إن مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة جلسا في حديقة ومعهما رجال من المسلمين. فعلم بذلك سعد بن معاذ – وكان ابن خالة أسعد – فقال لصديقه أسيد بن خضير: قم إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت لفعلت أنا ذلك فهو ابن خالتي. فأخذ أسير حربته ثم أقبل إليهما. فلما رآه أسعد قال المصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه. فوقف عليهما متشتما فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كان لكما في أنفسكما حاجة. فقال له مصعب أَوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره.

قال: أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما. فكلمة مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن فأشرق وجهه. ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله. كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ فأخبره مصعب ففعل ما قال وأعلن إسلامه وصلى ركعتين.

ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ. وذهب أسيد إلى سعد فأثار حميته بأن أخبره

بأن بني حارثة قد خرجوا يريدون قتل أسعد لما علموا أنه ابن خالتك – يريد بذلك أن يدفعه إلى الذهاب إلى أسعد ومصعب فيضطر إلى أن يسمع منهما فيدفعه ذلك إلى الإسلام – فخرج سعد مغضبًا إليهما وفعل معهما ما فعل أسيد. وقال له مصعب ما قاله لأسيد وسمع سعد بن معاذ القرآن وتأثر به وأسلم. ثم عاد إلى قومه بني عبد الأشهل – وهم فرع كبير من الأوس – فقال لهم: كيف تعرفون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله – قال أسعد ومصعب: فو الله ما أمس في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة. وانتشر الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

وقفة قصيرة عند قصة إسلام أسيد وسعد:

إن هذه القصة تعني أن دين الإسلام دين الفطر السليمة. وإن سماع أي إنسان للقرآن – إذا لم تشب طباعه شائبة من شوائب الطمع والمنافع الذاتية، والحرص على المنصب والجاه – لا بد أن يُدْفع بروعة أسلوبه، وإشراقه ديباجته، ونصاعة حجته إلى إعلان إسلامه. ثم ينقلب داعيا إلى هذا الدين لا يبالي في سبيل ذلك شيئا.

بيعة العقبة الثانية:

فلما كان موسم الحج من العام التالي رجع مصعب بن عمير إلى مكة. وخرج المسلمون إلى الحج مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة في اليوم الثاني من أيام التشريق.

فلما جاء الموعد خرجوا إلى العقبة متكتمين أمرهم عن المشركين من قومهم. وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين: هما نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو. وكان الوقت يقترب من منتصف الليل.

فاجتمعوا في الشعب عند العقبة ينتظرون رسول الله ﷺ، حتى جاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب – وكان لا يزال على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. ولذلك بدأ الكلام قائلًا: يا معشر الخزرج [وكان العرب يطلقون على القبيلتين الخزرج والأوس اسم الخزرج] إن محمدًا منَّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو في عز من قومه ومنعة في بلده. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه. فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. فقالوا له: قد سمعنا ما قلت. فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ. فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام. ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فأخذ البراء بن معرور – سيد القوم وكبيرهم – بيده. ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه نساءنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرًا عن كابر. فاعترض القول أحد الجماعة – وهو أبو الهيثم بن التيهان – فقال: يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال حبالًا وإنا قاطعوها – يعني العلاقات بينهم وبين اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟.

فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

ثم قال الرسول ﷺ: «أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبًا. ليكونوا على قومهم بما فيهم. فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

ثم قال لهم رسول الله ﷺ: اذهبوا إلى رحالكم. فقال أحدهم: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل مني غدًا بأسيافنا – فقال الرسول: لم نؤمر

بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم. فرجعوا.

وبذلك تمت أخطر بيعة في تاريخ الإسلام كله. وكان لها أعظم الأثر في انتشاره واستقرار قواعده. كما سنرى.

ولكن أين قريش من هذا كله؟ لقد تكتم المسلمون الخبر أي تكتم. ومع هذا علمته قريش أو على الأقل سرت شائعات بينهم بذلك. فذهبوا إليهم يسألونهم عن صحة الخبر.

فأقسم المشركون منهم أن شيئًا من هذا لم يحدث، وصدقوا، ولكن قريشًا ظلت في شك. فأخذت تتحرى الخبر حتى تأكد لها صدقه. ولكن كان المسلمون من الأنصار قد غادروا مكة، فأرسلوا وراءهم من يأتي بهم فلم يدركوهم. واستطاعوا أخذ سعد بن عبادة، وكان نقيبًا من النقباء. وحاولوا تعذيبه لولا أن استغاث باثنين من أهل مكة، كان يجير لهما بضاعتهما بالمدينة فأطلقا سراحه.

صنم عمرو بن الجموح:

وهذه قصة تبين إلى أي مدى انتشر الإسلام في المدينة، وكيف أصبح الباقون على الكفر يُسخر منهم، ويستهزأ بهم. فقد كان عمرو بن الجموح شيخًا من شيوخ بني سلمة وقد ظل على كفره، بعد أن نشأ الإسلام في المدينة. وكان في داره صنم من خشب يقال له «مناة» على عادة أشراف قومه في اتخاذ صنم في دورهم يتعبدون إليه. وكان ابنه معاذ قد أسلم، وكان ممن حضر بيعة العقبة الثانية في فتيان من بني سلمة منهم معاذ بن جبل فكان إذا نام عمرو ذهب الفتيان إلى داره، فيأخذون الصنم فيلقونه في إحدى الحضر التي تتجمع فيها المخلفات الآدمية والقاذورات، هو منكس على رأسه، فإذا أصبح عمرو فتش عن صنمه وهو يقول: من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ فيجده ملقى هكذا، فيأخذه فيغسله، ويطهره ويطيبه ويقول: والله، لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه وتكرر هذا منهم لیالي عدة. فلما ضاق

صدره استخرجه من حيث ألقوه يومًا فغسله وطهره، وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه. ثم قال: إني والله، ما أعلم من يصنع بك ما ترى. فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك. فلما نام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في حفرة القاذورات.

فلما لم يجده عمرو خرج يبحث عنه، فوجده على هذه الصورة الزرية. فكلمة رجال من قومه المسلمين، ودعوه إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه، وقال بعد أن عرف الحق أبياتًا يذكر فيها صنمه منها هذا البيت:

والله لو كنت إلهًا لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قَرَن

هجرة أصحاب الرسول إلى المدينة:

لما بايع المسلمون من الأوس والخزرج – الذين أصبح يطلق عليهم اسم الأنصار – الرسول على نصرة دين الله، وحماية أتباعه. – وكانت قريش قد اضطهدت المسلمين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون عن دينه، ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فرارًا منهم. ومنهم من بأرض الحبشة، ومنهم من لجأ إلى أماكن أخرى. فلما تمت البيعة أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المسلمين بمكة بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار. وقال لهم: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها. فخرجوا جماعات وأفرادًا.

وعلمت قريش بأمر هذه الهجرة التي كان يتكتمها أصحابها ما استطاعوا. فاستشاطت غضبًا. فقد كانت تظن أنها ضيقت على محمد الخناق، وصدت الناس عن اتباعه، وأنها توشك أن تظفر به، فهو والقلة الباقية على دينه لا بد أن يستسلموا آخر الأمر، ويكفوا عما يدعون إليه. وهكذا بينما هي تظن أنها أصبحت قريبة من القضاء على هذه الدعوة. إذا بها تفاجأ بهذا الحلف بين محمد وأهل يثرب، الذي يفتح أمامهم باب الرجاء واسعًا. ويسمح لهم بأن يأووا إلى مكان بعيد عن قريش،

يعبدون الله فيه أحرارًا، ويدعون إلى دينهم بمأمن من العدوان. لذلك قررت قريش أن تفقد هذا الحلف قيمته، وذلك بأن تحول بين المسلمين والهجرة إلى يثرب. فكانت تقعد للمسلمين بكل مرصد لتمنعهم من اللحاق بالمدينة. وتبث عيونها حول مخارج مكة ليعيدوا من أزمع الهجرة. وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه، والمرأة وابنها كما حدث مع أم سلمة حينما هاجرت مع زوجها وابنها الصغير. فخرج أناس من بني مخزوم التي تنتمي إليها أم سلمة. فأخذوها قسرًا من زوجها ولما علمت بنو عبد الأسد الذي ينتمي إليهم الزوج أخذوا الابن عنوة من أمه، لأنه منهم. وهاجر الزوج وحيدًا.

وكما فعلوا مع صهيب الرومي، وكان يصنع السيوف. وكون من ذلك ثروة. وخرج بها فمنعوه أن يخرج بها إذا أصر على الهجرة. وقالوا له لقد جئتنا صعلوكًا حقيرًا فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك. والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم على مالي تخلون سبيل؟ قالوا: نعم. فدلهم على ماله بمكة. فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ. فقال له عليه السلام: «ربح البيع صهيب ربح البيع صهيب». ويقول المفسرون إنه المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[١]. [البقرة: ٢٠٧].

نماذج رائعة تدل على صدق الإيمان وعمقه؛ فأبو سلمة يضحي بزوجه وبابنه في سبيل دينه، وكان – لو شاء – قادرًا على أن يجنب نفسه وزوجه وابنه هذه المعاناة بأن يعود من حيث أتى ولا ضير عليه. وصهيب الصعلوك الحقير – كما قالوا عنه – يتنازل عن ماله الذي يرفع من شأنه في مثل مجتمع قريش ليتمكن من الهجرة. ما سر هذا؟ إنه الإيمان.

---

(١) الفخر الرازي عن صفوة التفاسير.

على أن قريشًا كانت تحبس عن الهجرة من تستطيع حبسه، وتفتنه عن دينه إن استطاعت. ويبدو ذلك واضحًا في هجرة هشام بن العاصي، وعياش بن ربيعة فقد تواعدا مع عمر بن الخطاب أن يهاجروا معًا. وحددوا مكانًا يلتقون فيه في ساعة معينة، فمن لم يحضر منهم في هذه الساعة عرف أنه قد حبس. فلم يحضر هشام، فقد حبسه قومه. فهاجر عمر وعياش. فلما قدما المدينة – وكان لا يزال الرسول في مكة – تبع عياشًا أبو جهل بن هشام وأخذه الحارث وكانا ابني عمه وأخويه لأمه. فأخبراه أن أمه قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل من شمس حتى تراك. فَرِقَّ لها فقال له عمر: يا عياش: أنه والله ما يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم فوالله، لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال عياش. أبر قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه. فقال له عمر: إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالًا، فلك نصف مالي فخذه، ولا تذهب معهما. فأبي إلا أن تذهب معهما. فأعطاه عمر ناقته لما تمتاز به من سرعة وقوة، وطلب منه أن يهرب منهما إذا رابه أمر. ولكنه لم يستطع فقد استعمل معه أبو جهل وأخوه الحيلة حتى تمكنا من شد وثاقه، ودخلا به مكة موثقًا. وفتناه عن دينه فافتتن. وقد قال أبو جهل وهو داخل بأخيه موثقًا: «يأهل مكة فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا».

وكان عمر يقول عمن افتتن عن دينه: إن الله لن يقبل من هؤلاء صرفًا ولا عدلًا ولا توبة؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. وكانوا هم – عياش وهشام وأمثالهما – يقولون ذلك لأنفسهم حتى أنزل الله قوله تعالى:

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

فكتبها عمر في صحيفة وأرسلها إلى هشام بن العاصي. فلما تمعن فيها انطلق إلى المدينة مهاجرًا. وهناك رواية تقول إنهما لم يفتتنا وإنما حبسا حتى أرسل إليهما

الرسول وهو بالمدينة من احتال حتى استطاع تهريبهما من حبسهما. وفي كلتا الحالين فإن قريشًا لم تكن لتسمح للمهاجرين أن يهاجروا إذا استطاعت إلى منعهم سبيلا.

قريش تتآمر على الرسول:

على أن أخوف ما كانت تخافه قريش هو هجرة الرسول ﷺ. إنه لو تمكن من ذلك لأصبحت له دولة، وكثر أنصاره. من كل العرب. وأصبح في مقدوره أن يعود إلى قريش غازيًا منتصرًا فأزال ملكه، وقضى على آلهتهم. إنه – وهو بين أظهرهم – يؤثر في كل من يتصل به بسحر بيانه، وقوة منطقه، وصدق حجته. ولولا الخوف من قريش لما أحجم أحد ممن اتصل بمحمد عن اتباعه والإيمان به. فكيف – وهو حر بين أنصاره وفي بلد يؤمن بدينه -؟ من هنا كان خوفهم. إنهم لا يستطيعون مراقبته كل لحظات اليوم ليمنعوه من الهجرة.

لذلك اجتمعوا في دار ندوتهم، وأخذوا يتشاورون في أمره. قال قائل منهم: فلنحبسه ونتربص به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله. حتى يصيبه ما أصابهم. لكن هذا الرأي لم يلق استجابة. وقال آخر: نخرجه من بين أظهرنا، وننفيه من بلادنا. ثم لا نبالي بعد ذلك من أمره شيئًا. لكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة ويتحقق ما يخشونه.

وأخيرًا انتهوا إلى رأي وافق عليه الجميع. وهو أن يقتلوه. وكي لا تطالب بنو عبد مناف بدمه اتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابًا جلدًا، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل. ولا تقدر بنو عبد مناف على محاربة كل القبائل فترضى بالدية.

وإلى هذا الأمر يشير القرآن الكريم في سورة الأنفال في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ (١) أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فالله يمن على رسوله بحمايته له أمام مؤامرة الكفر حينما تشاوروا فيما يفعلون به فمن قائل: نثبته أي نحبسه أو نضربه ضربًا شديدًا، ومن قائل بقتله، ومن قائل بإخراجه من مكة. هذا مكرهم وكيدهم. ولكنها نسوا أن هناك مكرًا أقوى من مكرهم قادرًا على إبطال مكرهم، وإفساد كيدهم هو مكر الله وهو خير الماكرين.

وسنرى في الفصل القادم كيف أبطل الله مكرهم.



(١) يحبسوك أو يضربوك ضربا شديدا.

هجرة الرسول إلى المدينة

فشل المؤامرة:

ظلت هجرة المسلمين تتابع إلى المدينة حتى لم يبق منهم بمكة إلا القليل. وأخذ الرسول ﷺ يعد نفسه للهجرة في تكتم شديد خشية أن تفطن قريش لأمره. وكان علم بما دبرت قريش له. واستأذنه أبو بكر في الهجرة. فاستمهله الرسول لعل الله يجعل له رفيقًا.

فلما كانت الليلة التي قرر الرسول فيها أن يهاجر أمر علي بن أبي طالب أن يبيت في فراشه ويتسجى ببرده الأخضر ليموه على قريش. فقد كان فتيان قريش يترصدون له ببابه. فلما كان الهزيع الأخير من الليل خرج من داره. ولم يشعر به القوم المحاصرون. فقد باتوا ينظرون من فرجة الباب فيرون رجلًا نائمًا في الفراش فيظنونه محمدا - وهو علي - فتطمئن قلوبهم. فلما خرج عليهم كانوا في نوم عميق. ويقول كتاب السيرة: إنه وضع التراب على رءوسهم إمعانًا في احتقارهم وإظهار عجزهم. وصدق الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾.

بدء الهجرة:

ذهب الرسول إلى بيت أبي بكر. وكان أبو بكر مستعدًا للرحلة. فقد أعد راحلتين. واستأجرا عبد الله بن أريقط. وكان مشركًا - ليدلهما على الطريق. فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لمعادهما ثم خرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته.

ولم يكن يعلم بخروج النبي ﷺ حين خرج إلا على بن أبي طالب الذي أمره الرسول أن يبيت في فراشه تلك الليلة، وأن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس. فلم يكن أحد بمكة عنده شيء يخشى

عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته. وإلا أبو بكر وآله.

في غار ثور:

عمد الرسول وأبو بكر إلى غار ثور – وهو غار بجبل أسفل مكة – فدخلاه. وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره. ثم يأتيهما إذا أمس بما يكون في ذلك اليوم من الخبر. وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يذهب بها إليهما ليًا فيشربان من لبنها، ويذبحان منها. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بما يصلحهما من الطعام. وكانت تعلق سفرة الطعام برباط تحضره معها ليحفظا طعامهما طوال اليوم. وفي ليلة نسيت أن تحضر الرباط فشقت نطاقها – وهو ما تشد به وسطها – وأخذت نصفه لتعلق به السفرة. فسميت ذات النطاقين.

قريش تجد في طلب الرسول:

لما علمت قريش برحيل الرسول سُقِط في يدها، وأزمعت أن تحول دون وصول إلى المدينة بأي ثمن. فهي تعلم عاقبة لحاقة بأنصاره بالمدينة، وما سيتهددها من مخاطر. فأرسلت فتيانها حول أرجاء المدينة يفتشون وينقبون. ومن عجب أن بعضهم حاموا حول غار ثور، ووجدوا راعيًا أسفله فسألوه: هل رأى أحدًا في الغار؟ قال: قد يكون فيه أحد. ولكني لم أر أحدًا قصده فارتقوا إلى الغار. ولكنهم لم يفكروا في اقتحامه. فقد رأوا مظاهر دلتهم على عدم دخول أحد فيه. فقد رأوا نسيج العنكبوت على بابه، وحمامة وضعت بيضها، وفروع شجرة كبيرة تدلت فحجبت الباب. وكان أبو بكر في أثناء ذلك شديد الفزع. ويقول للرسول لو نظر أحدهم أسفل قدمه لرآنا. فيطمئنه الرسول قائلًا: ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تخف ولا تحزن إن الله معنا.

وقد ذكر الله ذلك في هذه الآية: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾[التوبة: ٤٠].

وهذه هي الآية الوحيدة التي ذكرت بعض مراحل الهجرة. ولكن هناك آيات كثيرة في القرآن تشيد بفضل المهاجرين وثوابهم العظيم عند الله.

ويخاطب الله في هذه الآية المسلمين معاتبًا الذين تخلفوا عن نصرة الرسول في غزوة تبوك مبينًا أن الله ناصره. فقد نصره في أشد المحن عندما كان مطاردًا في الغار بعد أن اضطره الذين كفروا للخروج من مكة. ولم يكن معه في الغار إلا صاحبه أبو بكر الذي كان الرسول يسري عنه ما يشعر به من حزن وخوف من عثور الكفار عليهما بتذكيره أن الله معهما ولن يتخلى عنهما. وقد ملأ الله قلبيهما سكينة وطمأنينة وأيد رسوله بجنود خفية لا يراها أحد – لعل منها نسيج العنكبوت وبيض الحمام – ثم أذل الكافرين، وحلت بهم الهزيمة. وانتصر دين الله وعلت كلمته والله غالب على أمره، حكيم في تصرفه.

حتى إذا أمضت ثلاث ليال، وسكن عنهما الناس أتاهما الدليل عبد الله بن أريقط ببعيريهما وبعير له. وانطلقوا في طريق غير مطروق، لا يسلكه المتجه إلى المدينة، ولا يسير به إلا قلة قليلة من الناس.

ولما خشيت قريش أن يفلت محمد من يديها رصدت جائزة مائة من الإبل لمن يحضر محمدا أو يدل عليه. ولم يمض إلا قليل حتى أقبل على قريش رجل أخبرها أنه رأى رَكَبَة ثلاثة يظن محمدا أحدهم. وكان سراقة بن مالك حاضرًا فقال: إنما هم بنو فلان ليضلل الرجل، ويفوز هو بالجائزة، ومكث مع القوم قليلا، ثم عاد إلى بيته فلبس سلاحه وأمر بفرسه فَأُرسِل إلى بطن الوادي حتى لا يراه أحد ساعة خروجه. وركبه ودفعه إلى الناحية التي ذكرها الرجل. وكان

الرسول وصاحباه قد أناخوا في ظل صخرة ليقيلوا أو ليأكلوا فرأوا سراقة على مرمى البصر. وكان سراقة قد أجهد فرسه في اتباعهما حتى كبا به مرتين وما كاد يقترب منهم حتى كبا به الجواد للمرة الثالثة. فأحس أن محمدا ممتنع، وأن قوة خفية تحميه، وأنه لو استمر في هذه المطاردة فسيحيق به خطر داهم. وهناك وقف ونادى القوم: أنا سراقة بن جعشم، أنظروني أكلمكم فو الله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. فوقف الرسول وصاحبه ينتظرانه. فلما جاءهما طلب إلى الرسول أن يكتب له كتابًا يكون آية بينه وبينه. يقول سراقة فيما يرويه ابن هشام في سيرته: «فكتب لي أبو بكر بأمر الرسول – كتابًا في عظم ثم ألقاه إلى فأخذته، فجعلته في كنانتي ثم رجعت، فسكت فلم أذكر شيئًا مما كان. حتى إذا كان فتح مكة على الرسول ﷺ وفرغ من حنين والطائف خرجت لألقاه فلقيته بالجعرانه – بئر ماء بين مكة والطائف – فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار. فجعلوا يقرعونني بالسلاح، ويقولون: إليك. ماذا تريد فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته. فرفعت يدي بالكتاب. ثم قلت: يا رسول الله، هذا كتابك لي. أنا سراقة بن جعشم. فقال رسول الله ﷺ: يوم وفاء وبر. ادْنُ. فدنوت منه فأسلمت».

واستمر الرسول وصاحبه الوفي في رحلتهما الشاقة يجِدَّان السير ليلًا ويكمنان نهارًا كي لا يعرف أحد أمرهما. وكان الوقت صيفًا، والجو شديد الحرارة فضاعف ذلك من عنائهما. ولم يكن يخفف عنهما إلا صبرهما وحسن ثقتهما بالله، وعظيم إيمانهما بالحق الذي أنزله الله على رسوله.

وكان أهل يثرب قد عرفوا بخروج الرسول وصاحبه إليهم. فظل المسلمون جميعًا ينتظرون مقدمه في شوق ولهفة. وكان الكثيرون منهم لم يروا الرسول بعد. ولكنهم سمعوا الكثير عن عظيم صفاته، وسحر بيانه فكانوا أكثر شوقًا لرؤيته.

كانوا يخرجون كل يوم بعد صلاتهم الصبح إلى ظاهر المدينة يتلمسونه حتى تشتد حرارة الشمس فيعودوا إلى دورهم.

وبلغ الرسول ﷺ قباء فأقام بها أربعة أيام، وأسس مسجدها وفي أثناء إقامته بها حضر على بن أبي طالب بعد أن رد الودائع إلى أصحابها. وقد جاء ماشيًا على قدميه يسير الليل ويختفي بالنهار لمدة أسبوعين.

ويروي ابن هشام في سيرته عن بعض الأنصار يقول: حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا. وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت. فكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا. فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيلة [قيلة اسم جدة كانت للأوس والخزرج في قديم الزمان] هذا جَدُّكم – أي سعدكم – قد جاء. فخرجنا إلى رسول الله، وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم ير الرسول قبل ذلك. و ازدحم عليه الناس، وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله فعرفناه عند ذلك.

وقبل أن أدخل المدينة في صحبة رسول الله ﷺ أتوقف قليلًا لأستشف بعض المعاني في حادثة الهجرة.

وأول ذلك أن الله غالب على أمره، وناصر دينه مهما تجمعت حوله نذر الشر فهذه قريش جمعت مكرها وكيدها، وأجمعت أمرها على أن تتخلص من محمد فباء كل ذلك بالخسران، وأعمى الله بصائرهم فلم يدركوا أيسر الأمور فما داموا قد قرروا قتله بطريقة تمنع بنى عبد مناف من الثأر له. فلماذا لم ينفذوا ذلك في الحال، وتقتلوه في الحال وهو يمشي أمامهم بدل أن ينتظروا أمام بابه حتى يدركهم النوم فلا يشعروا بخروجه. ولماذا – وقد تجمعوا أمام الغار وشكوا في وجوده فيه – لم يدخلوا الغار ليتأكدوا من عدم وجوده، ولم يكن ذلك ليكلفهم شيئًا؟ ولماذا – وقد عرفوا أن أبا بكر معه – لم يتبعوا أولاده ومولاه، ويرصدوا تحركاتهم؟ فمن الطبيعي أن يحاول أحدهم الاتصال به. ولكن الله أعمى بصائرهم. وهذه هي المعجزة التي لا يشعر بها كثير من الناس.

وأمر آخر أن الإيمان الحق يصنع المعجزات، ويهون الصعب، وييسر العسير. فكيف تسنى لمحمد وصاحبه أن يقطعا هذه المفاوز المهلكة، ولا يشكوا جهدًا ولا نصبًا، ولا يملؤها الرعب والفزع؟ وكيف استطاع علي بن أبي طالب أن يسير وحده من مكة إلى المدينة على قدميه خمسة عشر يومًا دون أن يحس كلالا. إنه الإيمان.

ثالثًا: إن نجاح أمر من الأمور يحتاج إلى تدبير وتخطيط. وقد تحقق الأمران في الهجرة على أرفع مستوى. من تكتم الأمر أشد تكتم مع الإعداد له أعظم إعداد. فوسائل التنقل تجهز، والدليل يتفق معه – وقد نظر الرسول إلى الخبرة والأمانة في الدليل، ولم يبال أن كان مشركا، وهذا يذكرنا بأهل الثقة والخبرة في عصرنا، فمن أسباب تدهور أحوال الأمم المتخلفة اعتماد حكامها على أهل الثقة لا الخبرة – إلى الاطمئنان على معرفة ما يدور في المحيط الخارجي، وأن يطلعا عليه يومًا بيوم، إلى تنظيم أمر الإعاشة في فترة مكثهما في الغار ورحيلهما إلى المدينة.

هذه بعض المعاني التي تدور في نفس الدارس لهذا الحادث الفذ.



تنظيم الأمر في المدينة
والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

دخل رسول الله ﷺ المدينة راكبًا ناقته، وقد استقبله أهلها استقبالًا حافلًا دل على عظيم شوقهم إليه، وشدة فرحتهم بلقائه وتطلعهم إلى حياة جديدة تكون المدينة فيها حاضرة العرب، ومطلع حضارتهم. ولم يكن المسلمون وحدهم الذين احتفلوا بلقائه. بل احتفل به اليهود أيضًا رجاء أن يضموه إلى حلفهم، ويتقووا به على أعدائهم من النصارى.

وقد حاول أكثر من سيد من سادات المدينة أن يأخذ بخطام ناقته، وينزله عنده على الرحب والسعة. ولكن الرسول ﷺ كان يعتذر إليهم شاكرًا، ويطلب منهم أن يتركوا ناقته وشأنها، فحيثما بركت فهو المنزل. وأخيرًا بركت الناقة في أرض خلاء يقال له: المربد حيث يخزن التمر. فسأل عن صاحبه فقيل له: إنه لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل ابنا عمرو. فاشتراه منهما الرسول، وبدأ في بناء المسجد، ومساكن له ملتصقة بالمسجد. وكان البناء شديد البساطة. وفي أثناء البناء - الذي شارك فيه الرسول بالعمل - استضافه أبو أيوب الأنصاري في بيته.

وكان أمام الرسول ﷺ مهمة صعبة هي التأليف بين طوائف أهل المدينة بوجه عام، وبين عنصري المسلمين: المهاجرين والأنصار بوجه خاص وقد نجح في الأمرين أيما نجاح بفضل توفيق الله أولًا. ثم بفضل عبقرية الفذة.

فأما التأليف بين أهل المدينة جميعًا فقد وضع في شأنه وثيقة بين المهاجرين والأنصار واليهود والمشركين تضمنت حرية العقيدة، وحرمة الدماء، وحرمة المال وأن أهل المدينة جميعًا يد واحدة على كل من أراد بهم سوءًا من خارجها. وإن عليهم التعاون في كل أمر ينوء به الفرد أو الجماعة من دين أو دية قتيل وغير ذلك.

وأما التأليف بين المسلمين بعضهم ببعض فقد وضع له نظامًا بديعًا رائعًا هو:

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

لقد هاجر المسلمون، أو كما وصفهم القرآن الكريم: أخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا إلى المدينة لا يملك معظمهم شيئًا. فأراد الرسول ﷺ بهذه المؤاخاة أن يحقق أمرين: الأول أن يكفل حاجة المحتاجين من المهاجرين حتى يقفوا على أقدامهم ويشقوا طريقهم في الحياة. والآخر – ولعله الأهم – أن يصهر المسلمين جميعًا في بوتقة واحدة فيحسوا أنهم وحدة واحدة، يجمعهم نسيج واحد هو الإسلام فَتَمَّحِي القبيلة والعصبية ولا يكون هناك إلا سَدى واحد، ولُحْمة واحدة هما مبادئ الإسلام. وقد تحقق ما أراده الرسول على خير وجه. وكان الأنصار على أعلى مستوى من الإيثار، فكانوا يؤوون إخوانهم من المهاجرين في مساكنهم، ويعطونهم من أموالهم، بل بلغ الإيثار بأخي عبد الرحمن بن عوف: سعد ابن الربيع أن يعرض عليه مقاسمته في ماله، وأن يطلق له أي زوجتيه يختار ليتزوجها، ولكن عبد الرحمن رفض شاكرًا وقال له: بارك الله لك في مالك وفي زوجتيك. ولكن دلني على السوق. فدله عليها واتجر وكسب، واستطاع أن يمهر زوجًا، ويتخذ سكنًا.

وقد أشاد القرآن الكريم بموقف الأنصار وأثنى عليهم . وذلك أن رسول الله ﷺ غنم أموال بني النضير – إحدى قبائل اليهود كما سأبين بعد – بعد إجلائهم وجعلها الله خالصة له يوزعها على الفقراء كيفما شاء. فدعا الأنصار وشكرهم على ما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم. ثم قال: «إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليَّ من بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم [وحدهم] وخرجوا من دوركم فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: (بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا) ونادت الأنصار حنينا

وسلمنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار».

وأنزل الله قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾[الحشر: ٩].

فالله سبحانه يصف الأنصار بأنهم سكنوا المدينة قبل المهاجرين فهي بلدهم والمساكن مساكنهم. كما آمنوا مثلما آمن المهاجرون. وهؤلاء الأنصار يحبون المهاجرين إليهم فهم إخوانهم في الدين. وإذا أعطى الرسول المهاجرين مالا لحاجتهم – كما فعل في أموال بني النضير – لا يحسدهم الأنصار على ما أُعطوا، بل يقدمونهم على أنفسهم، ويفضلونهم عليهم. ولو كانوا في أشد الحاجة إلى المال. وهم بذلك قد استطاعوا التخلص من البخل الغريزي في النفوس. والذي يستطيع ذلك هو المفلح الفائز.

ولم تكن المؤاخاة دائمًا بين مهاجر وأنصاري بل أحيانًا تكون بين مهاجر ومهاجر فقد آخى الرسول ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب، وبين حمزة عمه، وزيد ابن حارثة مولاه.



الأذان

استقر أمر المسلمين بالمدينة، وأتيحت لهم حرية العبادة كاملة. وكانت الصلاة قد فرضت على المسلمين خمس مرات في اليوم في أوقات محددة. وكانت الصلوات تؤدى جماعة. وكان شاغل الرسول ﷺ والمسلمين أن يجدوا طريقة يجمعون بها المسلمين لأوقات الصلاة التي كانوا يجتمعون إليها اجتهادًا دون إعلان. وقد فكر الرسول ﷺ في اتخاذ بوق مثل اليهود ولكنه كرهه، ورأى أن يتخذ ناقوسًا مثل النصارى، وأمر بنحت واحد ليضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك إذ رأى أحد الأنصار رؤيا – واسمه عبد الله بن زيد بن ثعلبه – خلاصتها أنه رأى رجلًا يحمل ناقوسًا. فقال له: أتبيعني إياه؟ فقال له: لماذا؟ قال: لنعلن به عن الصلاة. قال: ألا أدلك على خير من هذا؟ قال: ما هو؟ قال تؤذنون للصلاة بأن تقولوا: الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله . أشهد أن محمدًا رسول الله. حي على الصلاة. حي على الصلاة. حي على الفلاح. حي على الفلاح. الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله.

فأخبر بذلك رسول الله فقال: إنها رؤيا حق. فلقنها لبلال فإنه أندى منك صوتًا فلقنها إياه. فأذن بلال. فخرج عمر مسرعًا من بيته، وقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت هذه الرؤيا فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله.

وهناك رواية أخرى تقول: ائتمر النبي ﷺ وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس، إذ رأى في منامه من يقول له: لا تجعلوا الناقوس، بل أذنوا للصلاة، ولقنه صيغة الأذان. فذهب بها مسرعًا إلى الرسول، فسمع بلالًا يؤذن. فأخبر عمر الرسول بما رأى، فقال: سبقك الوحي بذلك.

وعلى أية حال فقد أصبحت هذه الصيغة شعار الإسلام ونشيده، تتردد كل

يوم خمس مرات، وتتضمن جوهر الإسلام وروحه. فهي تعلن إيمان المسلمين كل المسلمين، بأن الله أكبر من كل شيء في الوجود، وأنه واحد لا إله غيره، وأن محمدًا رسول إلى خلقه وتدعو المسلمين إلى الصلاة، وإلى الفوز في الدنيا والآخرة. وتنتهي كما بدأت بأن الله أكبر من كل شيء، ولا إله إلا هو.



مجتمع المدينة

بعد هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة كانت طوائف المقيمين بها تتكون من: المهاجرين والأنصار – وهم المسلمون بالمدينة، ومن بقي على شركه من الأوس والخزرج، واليهود. ثم نجحت طائفة خطيرة هم الذين أظهروا إسلامهم، وبقوا على كفرهم، وقد ابتكر الإسلام لهم اسمًا جديدًا هو: «المنافقون» وسأخص كل طائفة منهم بكلمة.

المهاجرون والأنصار:

يقرن القرآن كثيرًا بين المهاجرين والأنصار فيقول في سورة التوبة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

كما يقول في نفس السورة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]

كما يقول تعالى في الآخر سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] كما يقول في نفس السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: ٧٤]

ولم يذكر القرآن في هذه السورة الأنصار بوصفهم الذي صار علمًا عليهم، بل ذكرهم بما قاموا به فعلًا نحو المهاجرين وهو الإيواء والنصر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ كما لم يذكر المهاجرين بوصفهم المشهور بل آتى بالفعل منه وهو

«هاجروا» وقد آثر القرآن الفعل في هاتين الآيتين ليبين سبب استحقاقهم الحكم الذي حكم الله به عليهم وهو في الآية الأولى – الموالاة التامة والتناصر والتعاون. وفي الآية الثانية الإيمان الحق. والفعل الذي استحق به المهاجرون ذلك الهجرة والجهاد، وبالنسبة للأنصار فهو أنهم آووا المهاجرين إليهم ونصروهم.

وقد ظلت العلاقة طيبة بين المهاجرين والأنصار، سداها الحب، ولحمتها الإخاء على الرغم من محاولات اليهود والمنافقين الدس لإفساد هذه العلاقة الطيبة ولكن كيدهم باء بالفشل، وخابت مؤامراتهم بفضل الإيمان العظيم وهداية القائد المرشد.

فقد مر أحد اليهود وهو شاس بن قيس على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم. فغاظه صلاح ذات بينهم، وقال في نفسه: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد وما لنا إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. وأمر فتى من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكر فيها يوم بعاث» وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج. وتكلم الفتى. فذكر القوم ذلك اليوم، وتنازعوا وتفاخروا واختصموا. وقال بعضهم لبعض: إن شئتم عدنا إلى مثلها. وبلغ الأمر الرسول ﷺ، فخرج إليهم ومعه بعض أصحابه. فكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم، وجعلهم إخوانا متحابين.

وما زال بهم حتى بكى القوم، وعانق بعضهم بعضا، واستغفروا الله جميعًا.

وقد ظل بعض المسلحين بمكة بعد الهجرة. وهؤلاء كانوا صنفين: صنفا قادرا على الهجرة فلم يهاجر، وأقام في مكة مجاورًا للمشركين، ومهملًا لأمور دينه بحكم إقامته بينهم وهؤلاء توعدهم الله أشد العذاب بجهنم وساءت مصيرًا وقد صور الله في سورة النساء حوار الملائكة مع هؤلاء الذين ظلوا في مكة فسألتهم الملائكة لماذا لم تقيموا الدين، وتؤدوا فرائضه؟ فأجابوهم بقولهم: لم نتمكن من ذلك لأننا مستضعفون، والكفار لا يمكنوننا من إقامة الدين. فيكون جواب

الملائكة توبيخًا لهم: فلم لم تهاجروا ألم تكن الأرض واسعة فتهاجروا إلى إخوانكم في المدينة، وتجاهدوا معهم في سبيل الله. ثم يصدر الحكم عليهم بأن مأواهم جهنم وبئس المصير مصيره. ولكن الله يستثنى من القاعدين بمكة فئة مستضعفة وعاجزة عن الهجرة فلا يستطيعون حيلة يحتالون بها للهجرة، ولا هادي يهديهم إلى طريق المدينة. ومع ذلك لم تقرر الآية العفو عنهم من الله، ولكن قررت الرجاء في أن يعفو الله فهو العفو الغفور.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩].

فالإسلام اعتبر الهجرة إلى المدينة قبل فتح مكة شرطًا أساسيًا لإيمان المسلم وقد شجع القرآن المسلمين بمكة على الهجرة، وحثهم عليها فبين لهم أن الذي يهاجر إرضاء لله يجد المكان الذي يرحب به، والسعة في الرزق. كما بين أن المهاجر الذي يدركه أجله في طريق هجرته بأن يموت أو يقتل، فلن يضيع الله أجره، بل يضمنه له، وإن كان أخطأ أو أساء فسيغفر الله له لأن الله غفور رحيم.

يقول تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد ذكر الله الجزاء العظيم للمهاجرين في آيات عدة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التوبة: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ﴾[الحج: ٥٨-٥٩].

ونلاحظ أن الله ربط الهجرة بالجهاد في سبيل الله، والعمل من أجل إعلاء كلمة الدين فالهجرة ليست عملًا واحدًا ينال جزاءه العظيم بمجرد إتمامه، بل لابد أن تتبعه أعمال أخرى ترفع راية الإسلام. كما بينت الآيات أن الهجرة صحبتها تضحيات جسيمة، فقد أخرج المهاجر من داره، وأوذى بسبب إيمانه.

وقد نهى الله سبحانه المؤمنين أن يقيموا علاقة تناصر وتعاون بينهم وبين المسلمين المقيمين في مكة حتى يهاجروا في سبيل الله. واستثنى الله من ذلك نصرهم لهم إذا استنصروا بهم في معركة بينهم وبين المشركين بسبب الدين. بشرط ألا يكون بين مسلمي المدينة المشركين عهد على عدم القتال فعليهم أن يحترموا عهدهم، ولا يتدخلوا في القتال بين المسلمين والمشركين.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾[الأنفال: ٧٢].

أقف لحظة لأسجل موقفا مشرفًا للإسلام في احترام العهود بين المسلمين وغيرهم. فهو يدعو إلى عدم نقضها حتى لو كان ذلك لنصرة إخوان لهم في الدين.

وكان من المسلمين الذين هاجروا إلى مكة نساء متزوجات من مشركين. وقد هربن من أزواجهن، وهاجرن فرارًا بدينهن. وقد أنزل الله فيهن آيات في سورة

«الممتحنة» تبين موقف الرسول والمسلمين فيهن ومن أزواجهن. فعلى الرسول ﷺ أن يمتحن هؤلاء المؤمنات ليتأكد أن إيمانهن صادق، وأن هجرتهن لله ورسوله. وليست تخلصًا من زوج يكرهنه، أو سعيًا وراء رجل يحببنه. والامتحان أن تُحلَّف بالله أنها ما خرجت إلا فرارًا بدينها، فإذا حلفت بمعنى ذلك فاعْتَبِرُوها مؤمنة. والله أعلم بحقيقة إيمانها – ويترتب على لك ألا ترد على الكفار فقد أصبحت مؤمنة فلا تحل لزوجها الكافر، ولكن على النبي أن يأمر برد ما أنفقه زوجها عليها من المهر. ولا حرج على المسلمين أن يتزوجوا من هذه النساء بشرط إعطائهن المهر فهن لسن سبايا. وفي المقابل كانت زوجات بعض المسلمين كافرات فأمرهم الله بأن يطلقوهن. وللمسلمين أن يأخذوا ما أنفقوا على زوجاتهم الكفار، كما أن للمشركين أن يأخذوا ما أنفقوا على زوجاتهم المسلمات. وإذا لم يمكن للمسلم أن يتحصل على ما أنفقه من المهر من زوجته الكافرة، فَلْيَعْطَ ذلك من أموال الغنائم والصدقات.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾[الممتحنة: ١٠ – ١١].

وقد ظل حكم الهجرة قائمًا حتى فتحت مكة. فلم تعد الهجرة شرطًا للإسلام ولم يطلق على من ترك مكة إلى المدينة بعد الفتح «مهاجر» وقال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية». والحكمة في ذلك واضحة فلم تعد مكة أرض كفر بل أصبحت دار إسلام. واستمرار الهجرة منها بعد ذلك سيخليها من أهلها.

مشركو الأوس والخزرج:

آمن بالرسول ﷺ عدد كبير من أهل المدينة، كان الإسلام ينتشر فيها انتشار النور في الظلام. فلم يبق بيت في المدينة إلا وقد أسلم منه أفراد. ومع ذلك ظل بعض أهل المدينة على شركهم ووثنيتهم. وكان على رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول سيد الخزرج الذي ظل على شركه فترة. ولكن هؤلاء المشركين لم يكن من الممكن أن يظلوا على شركهم طويلًا، وهم قلة قليلة. فدخل بعضهم الإسلام عن إيمان، وأصبحوا من الأنصار. وبعضهم لم يدخل الإيمان قلبه، ولم يستطع أن يظل على شركه، فأظهر الإسلام، وأبطن الكفر وهؤلاء هم المنافقون.



اليهود

كان اليهود مقيمين بالمدينة وحولها منذ زمن. وكانوا يتكونون من قبائل أشهرها بالمدينة بنو قينقاع، وبنوا النضير، وبنو قريظة. وكانوا حول المدينة وعلى مبعدة أميال منها يهود خيبر، وفدك، وتيماء، ووادي القرى.

وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾[المائدة: ٨٢].

ونهى المسلمين عن اتخاذهم أنصارًا وأصدقاء؛ لأنهم أعداء دينهم، يسخرون منه ومن شعائره ويهزأون بالأذان للصلاة.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[المائدة: ٥٧-٥٨].

ويؤكد هذا النهي في آيات أخرى مبينًا مشاعر اليهود نحو المسلمين. فهم لا يقصرون في محاولات إفسادهم، ويودون أن يقع بهم الضر والشر، وقد بدت الكراهية الشديدة في أقوالهم التي يتحدثون بها عن المسلمين والتي يسعون بها للإفساد بينهم. والذي تخفيه صدورهم من هذه الكراهية أكبر وأعظم. ويبين مشاعر بعض المسلمين نحوهم وهي الحب، والإيمان بكتابهم وسائر الكتب المنزلة ولكن اليهود لا يبادلونهم هذا الحب، ولا يؤمنون بالقرآن بل ينافقونهم أحيانًا فيقولون لهم «آمنا» ولكن إذا خلوا إلى أنفسهم أظهروا مشاعرهم الحقيقية وهي أشد الغيظ منهم ومما يتمتعون به فيما بينهم من ألفة ومودة.. ويقول الله لرسوله معلقًا على هذا الغيظ ألا يعبأ بهم ولا بغيظهم بل يقول لهم موتوا بغيظكم فالله يعلم خفايا الصدور. ويضيف الله تعالى أن أي خير يصيب المسلمين يحزنهم، وأي شر يصيبهم يفرحهم. وما على المسلمين إلا الصبر وتقوى الله، وبذلك لن يضرهم كيدهم شيئًا لأن الله سيبطله، لأنه محيط بكل ما يعملون.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠ ﴾ [آل عمران: ١١٨ – ١٢٠].

ولقد كان يهود المدينة يرجون أن يضموا محمدا إلى صفوفهم، ويستعينوا به على أعدائهم، وتصبح لهم السيادة والدولة. فلما رأوا أن طريقه مختلف عن طريقهم، وأنه لا يحيد عن الحق، ولا ينحرف عن مبادئ الدين الصحيح، ويشتري – مثلهم – بآيات الله ثمنًا قليلًا، انحازوا ضده، وأخذوا يؤيدون كفار مكة ضده. وزاد من حقدهم عليه أن أحد كبرائهم وهو عبد الله بن سلام دخل في دينه، فخشوا أن يتبعه آخرون فتنهار مكانتهم، وتذهب ريحهم.

وكان عبد الله بن سلام رجلًا صادقًا مستقيم الفطرة يحكى عن نفسه قائلًا: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي تتوقعه فكنت مُسرًّا لذلك، صامتًا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة.

فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها. وعمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحتي. فلما سمعت الخبر كبَّرت. فقالت لي عمتي: خيبك الله. والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت. فقلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، وبعث بما بعث به فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نُخَبَّر أنه يبعث مع

نفس الساعة[١]؟ فقلت لها نعم. ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ورجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا. وكتمت إسلامي عن يهود. ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن يهود قوم بهت[٢]. وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنهم إن علموا به عابوني وبهتوني. فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته. ودخلوا عليه. فكلموه وساءلوه. ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا. فخرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به – فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله تجدونه مكتوبًا في التوراة باسمه وصفته. فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه. فقالوا كذبت ووقعوا بي. فقلت لرسول الله: ألم أخبرك أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور.

فاليهود كانوا يعرفون أن محمدا رسول الله، ولكن الحسد أن يكون النبي من غيرهم دفعهم إلى تكذيبه. وقد روت السيدة صفية بنت حيي بن أخطب زعيم يهود بني النضير وزوج الرسول ﷺ قصة تؤكد هذا. قالت: كنتُ أَحَبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي وعمي مُغَلسينْ[٣] فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. فأتيا كالّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا وششت إليهما كما كنت أصنع. فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم. وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال عداوته والله ما بقيت.

وقد حكى الله يقينهم من بعثة نبي آخر الزمان وأنهم كانوا يقولون لعرب

---

(١) القيامة.

(٢) متقولون بالكذب.

(٣) قبل أن تشرق الشمس.

المدينة سيبعث رسول حان حينه سنؤمن به ونقتلكم معه قتل عاد وإرم.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وقد أنزل الله آيات كثيرة يخاطب فيها يهود المدينة في سورة البقرة، وسورة آل عمران وسورة النساء وغيرها. وقد تناولت هذه الآيات ماضي اليهود وحاضرهم. وبينت عنادهم لموسى ومعاناته معهم. وسأورد نماذج من هذه الآيات.

ففي سورة البقرة يخاطب الله بني إسرائيل مذكرًا إياهم بنعمه عليهم، وطالبًا منهم الوفاء بعهد الله إليهم أن يؤمنوا بمحمد ليجزيهم الله ثواب الآخرة، ويأمرهم بخشيته وبالإيمان بالقرآن الذي جاء مصدقًا لما في التوراة. وألا يكونوا أول الكافرين به. فحقهم أن يكونوا أول من آمن، وألا يستغلوا ما في التوراة ليجمعوا المال عن طريق تحريفها وفقًا لأهوائهم ألا يخلطوا الحق الذي جاءت به التوراة بالباطل الذي يفترونه، وألا يكتموا الحق الذي عرفوه وهو أن محمدا رسول من عند الله. وصفته عندهم مكتوبة في التوراة ويأمرهم أن يقيموا مبادئ دينهم المفروضة عليهم من صلاة وزكاة فاتباعها كفيل أن يهديهم إلى الحق.

ثم يوبخهم أنهم يأمرون الناس بفعل الخير، ولا يفعلونه، ومعهم التوراة الهادية إلى الخير يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[البقرة: ٤٠ – ٤٤]

ثم تمضي الآيات تذكر ألوانًا من نعم الله عليهم، وألوانًا من جحودهم. فالله قد أنجاهم من فرعون الذي كان يسومهم أسوأ أنواع العذاب، ويأمر بذبح الذكور من أبنائهم، وترك الإناث أحياء، وقد فرق لهم البحر ليعبروه ولما عبره فرعون وقومه وراءهم أطبقه عليهم فأغرقهم. وقد رأوا ذلك بأعينهم. فكيف شكروا هذه النعم؟ عبدوا العجل، وأهملوا تعاليم التوراة حتى رفع الله جبل الطور فوقهم ليأخذوا بما أمرهم الله به. وعندما ذهب بهم موسى إلى موعد ربه قالوا: «أرنا الله جهرة» فأرسل الله عليهم صاعقة أماتتهم. ثم بعثهم من بعد موتهم لعلهم يشكرون. ومن نعم الله عليهم أنه جعل الغمام يظللهم من حر الصحراء، وفجر لهم اثنى عشر ينبوعًا بعدد قبائلهم ليشربوا. وأطعمهم المن والسلوى دون بذل أي جهد منهم. ولكنهم كانوا يكفرون دائمًا نعم الله عليهم ويعصون أوامره. فحينما أمرهم بدخول القرية وأن يدخلوا من الباب سجدًا وأن يسألوا الله حط ذنوبهم عنهم. سخروا من ذلك، ولم يأتوا به بل فعلوا أو قالوا أشياء تدل على سخريتهم واستهزائهم. وأمرهم أن يحترموا السبت فلا يفعلوا فيه شيئًا غير عبادة الله، فاعتدوا فيه فمسخهم الله قردة[1].

ثم تتجه الآيات إلى الرسول والمؤمنين مسلية لهم، ومؤنسة لهم من هؤلاء اليهود فيقول الله لهم.﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[البقرة: ٧٥-٧٧].

فالآيات تذكر أن طائفة منهم –وهم الأحبار– كانوا يحرفون ما جاء في التوراة ليوافق أهواءهم. وأن طائفة منهم كانوا منافقين يوحون للمسلمين بأنهم

---

(١) اقرأ في سورة البقرة الآيات من (٤٧ إلى ٦٥).

مؤمنون بمحمد وأن صفته مكتوبة عندهم في التوراة. وكان رؤساؤهم من اليهود غير المنافقين يلومون هؤلاء المنافقين على ما يعلنونه للمسلمين من دلائل نبوة محمد مبينين لهم أن كلامهم هذا سيتخذ عليهم حجة يحاجونهم به عند الله. غافلين عن أن الله محيط بكل شيء علمًا ويعلم ما يدور في السر والعلن.

وتستمر سورة البقرة في كشف مخازيهم وعيوبهم، ولو ذكرت كل ما ورد بها وفي غيرها من السور خاصة باليهود لخرج الكتاب عن قصده. وتحول إلى كتاب في التفسير فسأكتفي بهذا القدر. على أن أذكر من الآيات الخاصة باليهود ما تقتضيه المناسبات.

واشتد الجدال بينهم وبين الرسول وأصحابه، يريدون أن يحدثوا البلبلة في النفوس وأن يفتنوا المسلمين عن دينهم، بل يفتنوا الرسول نفسه عن دينه كما سنرى. وهذه نماذج لجدالهم مع الرسول وصحبه أوردها ابن هشام في السيرة النبوية.

دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس – وهو البيت الذي يتدارسون فيه التوراة – على يهود. فوجد منهم ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له «فنحاص» وكان من علمائهم وأحبارهم. فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا. وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني. ولو كان عنا غنيًّا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطيناه. ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر، فضرب وجه الرجل ضربًا شديدًا. وقال: الذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ: لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال

أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولًا عظيمًا إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء. فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك فأنزل الله قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

ونزل في أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ثم قال الله تعالى في فنحاص وأمثاله من أحبار اليهود الذين نزل عليهم الكتاب ليبينوه للناس ولا يكتمون شيئًا فيه، ولكنهم أهملوه وتركوا العمل بما فيه وأخذوا يحللون ويحرمون ويفتون تبعًا لأهوائهم، وجلبًا للأموال. وهم يفرحون بما يحصلون عليه من هذه الأموال ويحبون أن يمدحهم الناس على علمهم وفتاواهم التي تجانب الحق. بينما هم ليسوا أهل علم أو هداية للناس. ويذكر الله أن هؤلاء لن ينجوا من عذاب الله.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧- ١٨٨].

وكان بعض أحبار اليهود إذا كلمه رسول الله ﷺ لوى لسانه وقال: «راعنا» يا محمد [ومعناها العربي: أرعنا سمعك أي تفرغ لسماعنا ولكن لها معنى قبيحا بلسانهم] وطعن الدين وعابه. فبين الله لرسوله ذلك وذكر له أن الذين آتاهم الله التوراة وفيها هدايتهم، لا يعملون بها بل يميلون إلى الضلال ويريدون أن ينحرفوا مثلهم عن منهج الله. والله يعلم من هم أعداؤكم وحسبكم به ناصرًا وحاميًا لكم.

ثم ذكر له أن بعض اليهود يحرفون الكلام عن معناه، ويخرجون به عن قصده، ويعصون ما يأمرهم به الرسول ثم ذكر له الطريقة التي كان ينبغي لهم أن يتبعوها وهو أن يعلنوا طاعتهم لما سمعوه من الرسول وأن يختاروا الألفاظ التي لا تحتمل معنى آخر في لغتهم. ولكن الله لم يرد لهم الخير فلم يوفقهم لذلك لأنه لعنهم بسبب كفرهم المتأصل في نفوسهم فلم يؤمنوا إلا إيمانًا لا ينطبق عليه وصف الإيمان لأنه لا يستوعب كل ما يتطلبه الإيمان الحق.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء: ٤٤ – ٤٦].

وأتى رسول الله ﷺ بعضُ اليهود فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله، وحذرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٨].

ودعا رسول الله ﷺ – مرة – يهود إلى الإسلام، وحذرهم عذاب الله فأبوا عليه وكفروا بما جاءهم به فقال لهم من حضر من الأنصار: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا. فقالوا لهم: ما قلنا لكم ذلك قط، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده. فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة: ١٩].

بل بلغت بهم المكابرة أن ينكروا نزول الوحي من السماء على أي نبي من الأنبياء.

فوبخهم الله على افترائهم هذا، وسألهم عمن أنزل الكتاب على موسى الذي اشتمل على النور والهدى، والذي كتبوه في دفاتر مجزأة يظهرون بعضها الذي لا يرون فيه ضررًا لمنافعهم، ويخفون الذي يرون فيه بيانًا لأخطائهم وانحرافهم، وقد علمهم الله فيه ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم. ثم يطلب من رسوله أن يجيبهم على هذا السؤال: بأنه الله هو الذي أنزل التوراة. ثم يتركهم بعد ذلك في غيهم.

يقول تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

وقال بعض أحبار اليهود لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر. فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وأنا إن اتبعناك اتبعتك يهود، و لم يخالفونا، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة. أفتحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك. فأوحى الله إلى رسوله محذرًا من اتباع أهوائهم الفاسدة وأن يحكم بينهم بما أنزل الله وليكن على حذر من محاولتهم فتنته وصرفه عما أنزل الله إليه من أحكام. فإن أعرضوا عنك بعد ذلك فلا تأس عليهم لأن الله يريد أن ينزل بهم العقاب الذي يستحقونه بما اقترفوا من ذنوب. ثم يقرر الله أن كثيرًا من الناس منحرفون عما أنزل الله. ويلقي باللائمة على هؤلاء الأحبار لأن ما يطلبونه من الرسول هو حكم الجاهلية. فكيف يطلبون ذلك وهم يعلمون أن حكم الله هو الأحسن والأعدل. ولكن لا يدرك هذا إلا من ملأ اليقين قلبه.

يقول تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[المائدة: ٤٩ – ٥٠].

تحويل القبلة إلى مكة:

ووجد اليهود فرصة للقول وإثارة الفتنة في تحويل القبلة إلى مكة. فقد كان الرسول ﷺ منذ قدم المدينة يستقبل بيت المقدس في صلاته تألفًا لليهود وكان اليهود مغتبطين بهذا، وإن كانوا يتخذونه وسيلة لإثارة البلبلة في نفوس المسلمين فيقولون: يرفض ديننا، ويستقبل قبلتنا. فلما استمروا في كفرهم وعنادهم، ضاق صدر الرسول ﷺ، فكان يتجه إلى الله ضارعًا أن يجعل قبلته إلى مكة. وهذا يعني أن اتجاهه نحو بيت المقدس لم يكن إلا بوحي من الله؛ لأنه لو كان بإرادة محمد ومشيئته لصرف وجهه إلى الكعبة دون أن يلجأ إلى الله في ذلك. ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالقبلة التي كان عليها هي قبلة بيت المقدس، والله هو الذي جعلها – أي أوحى إلى النبي باتباعها، وذلك ليختبر إيمان المؤمنين، فيظهر من يطيع ويمتثل لأمر الله بشأن تحويل القبلة من الكعبة إلى بيت المقدس، ومن يرتد عن دينه تمردًا على هذا الأمر.

وقد استجاب الله لضراعة رسوله فصرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، وكان ذلك في رجب من السنة الثانية من الهجرة.

وأنزل الله آيات في سورة البقرة تتحدث عن صرف القبلة إلى مكة استجابة لضراعة الرسول، وعما سيثيره اليهود ومشركو مكة من أسئلة لإثارة الفتنة فيقول تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[1]. ويلقن الرسول الإجابة، وهو أن الاتجاهات كلها لله فله المشرق وله المغرب

---

(١) (١٤٢).

وحيثما يتجه الإنسان – في الصلاة فثم وجه الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[(١)]. ويذكر الله مناجاة الرسول ربه لتحويل القبلة فيقول: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[(٢)] ثم يبين مكابرة اليهود، وإنكارهم لما يعلمون. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[(٣)] ثم يؤكد الله إصرار اليهود على موقفهم وتعنتهم وأنهم لن يتبعوا قبلتك مهما فعلت وأتيت لهم بالأدلة، بل إنهم يختلفون عن النصارى في قبلتهم، وأما أنت فلن تتبع قبلتهم بعد ما هداك الله إلى الحق.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾[(٤)].

وفد نصارى نجران:

وكان هذا الجدال الديني، ودعوة الرسول ﷺ، ومبادئ الإسلام تتردد أصداؤها بين المقيمين في بلاد بعيدة عن المدينة، ولا سيما النصارى الذين كانوا متركزين في نجران – جنوبي شبه الجزيرة العربية – فأرادوا أن يستطلعوا أمر الرسول، ويختبروا دينه. فجاء وفد منهم إليه عدته ستون رجلًا منهم ثلاثة رجال يرجع أمر النصارى إليهم في كل شيء وهو العاقب وهو أمير القوم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح. والسيد الذي يقوم بأمرهم وشئونهم واسمه الأَيْهَم. وأبو حارثة حبرهم وإمامهم، ودارس كتبهم وكانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من

---

(١) (١٤٢).

(٢) (١٤٤).

(٣) (١٤٤).

(٤) (١٤٥).

علمه، واجتهاده في دينهم.

قدموا على رسول الله ﷺ، فدخلوا المسجد حين صلى العصر. فكلموا رسول الله واصفين عيسى بأنه الله، وابن الله، وثالث ثلاثة. واستدلوا على ألوهيته بإحيائه الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص. وبأنه ابن الله لأنه ولد من غير أب فمن يكون أباه إلا الله، وأنه ثالث ثلاثة لأن الله عندما يتكلم يقول: فعلنا وأمرنا وخلقنا ولو كان واحدًا لقال: فعلت وأمرت وجعلت [جهل باللغة العربية] فقال لهم الرسول: اسلموا قالوا: أسلمنا. قال: إنكم لم تسلموا فأسلموا. قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك قال: كذبتم. يمنعكم من الإسلام ادعاؤكم لله ولدًا، وعبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير. قالوا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنه الرسول فلم يجبهم.

فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. وقد قرر في جزء كبير من أولها ألوهية الله ووحدانيته ثم قص قصة مريم منذ كانت جنينًا في بطن أمها، ونذر أمها مولودها لخدمة المعبد. وكفالة زكريا لها، وتبشير الملائكة إياها بعيسى، وولادتها له، ومعجزاته التي أيده الله بها. ثم يشبهه الله بآدم الذي خلق من غير أب وأم. وقد آمنوا به فلم لا يؤمنون بمولود يولد من غير أب.

ثم تنتهي آيات السورة إلى دعوة الرسول ﷺ أن يطلب من الذين يحاجون في عيسى وأنه شريك لله أن يدعوا أبناءهم ونساءهم وأنفسهم ويدعو الرسول كذلك أولاده ونساءه ونفسه ثم يقف الجميع في صعيد واحد ويدعون الله أن يصب لعنته على الكاذبين في هذا الشأن. [وهذا ما عرف بقصة المباهلة].

يقول تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران: ٦١].

ثم يقول تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٣].

فدعاهم الرسول إليه وقرأ عليهم الآيات. فقالوا له: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نرد عليك. فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب فقالوا يا عبد المسيح، ماذا ترى؟. فقال لهم: لقد عرفتم أن محمدًا بني مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم. وإنه لَلاستئصال منكم إن فعلتم. فإن أبيتم إلا الإقامة على دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا. ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا؛ فإنكم عندنا رضا. فقال لهم: ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين. ثم بعث معهم أبا عبيدة بن الجراح.

ويلفت انتباهنا في قصة المباهلة أمران: الأول هو اعتقاد النصارى الجازم بنبوة محمد – كاعتقاد اليهود – ولكن منعهم من ذلك خوفهم على ضياع ما يتمتعون به من جاه وسلطان عند ملوك الروم، وهم نصارى مثلهم. يؤكد هذا ما رد به أبو حارثة كاهنهم على صاحبه عندما أخبره باقتناعه بنبوة محمد. فقال له صاحبه: فما يمنعك منه، وأنت تعلم هذا؟ فقال: يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم – يعني الروم –؛ شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

الأمر الآخر اعترافهم بأن محمدا وأصحابه يقيمون العدل، ويقضون بالحق سواء أكان الأمر يخصهم أم يخص غيرهم. ولذلك استعانوا بواحد منهم يقضي بينهم. وهكذا يذكرنا بموقف المشركين من الرسول: كانوا يفكرون به ولكنهم يستأمنونه على أموالهم لما عرفوا من أمانته وصدقه.

وبعد إعراض نصارى نجران عن المباهلة. صدق عليهم حكم الله تعالى في قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فهم لا يريدون إصلاحًا ولكنهم

حريصون على الدنيا ومتاعها ولو انحرفوا عن الحق، وجرفوا معهم أتباعهم.

ثم توجه القرآن إلى أهل الملتين اليهودية والنصرانية – وهم أهل الكتاب – آمرًا رسوله أن يدعوهم إلى كلمة حق يستوي فيها الجميع، ويلتزم بها الجميع وهي عدم عبادة أحد غيره الله، وإشراك أحد معه بالعبادة، وألا يشركوا بشرًا مثلهم مع الله في الربوبية. فإن أعرضوا عن الالتزام بها فأعلن لهم أنك ومن معك قد أسلمتم وجوهكم لله، وأخلصتم قلوبكم لعبادته. يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].



المنافقون

والمنافق اسم ابتدعه الإسلام لمن يستر كفره، ويظهر إيمانه. ولم يكن معروفًا بهذا المعنى عند العرب قبل الإسلام. وقد اشتقه الرسول ﷺ من نافقاء اليربوع – وهو دويبة أكبر من الفأر قليلًا – ونافقاؤه إحدى بابي جحره فقد كان يجعل لجحره بابًا ظاهرًا، وبابًا يواريه بقليل من التراب. فإذا اقتحم جحره مقتحم خرج من بابه المستتر وهو النافقاء، فأطلق ذلك على من يخفي الكفر ويعلن الإيمان.

وهؤلاء المنافقون طائفة من كفار الأوس والخزرج لم يدخل الإيمان قلوبهم واضطرهم انتشار الإسلام وغلبته على المدينة إلى أن يعلنوا الإيمان ظاهرًا كي يتقوا ما قد يجره عليهم كفرهم من مضار. وكان من المنافقين أيضًا أفراد قليلون من اليهود.

وكان على رأس هؤلاء المنافقين – من العرب – عبد الله بن أبي ابن سلول من الخزرج وكان سيدًا أهل المدينة، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان. ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره – قبل الإسلام – وكان قومه قد نظموا له الخرز في تاجه ليملكوه عليهم. حتى هدى الله أهل المدينة إلى الإسلام. فانصرف قومه عنه إلى الإسلام. ثم جاء الرسول المدينة وأصبح الآمر المطاع فيها. فامتلأ قلبه حسدًا على الرسول وعلى الإسلام. فبقى على كفره قليلًا. ثم اضطر إلى التظاهر بالإسلام ليكيد له. وقد دبر للإسلام مكايد كثيرة باءت كلها بالفشل كما سأذكر في مكانه.

وكان عبد الله بن أبي – قبل أن يتظاهر بالإسلام – يظهر العداوة للرسول ﷺ فقد مر عليه الرسول يومًا وحوله جماعة من المشركين وبعض المسلمين. وكان الرسول راكبًا حماره. فلما اقترب منه نزل عن دابته إكرامًا لعبد الله بن أبي. ثم جلس معه ومع جماعته فأخذ يقرأ عليهم القرآن لعل الله يهدي بعضهم. فلما انتهى من قراءته قال له عبد الله بن أبي: يا هذا إن هذا الذي تقوله ليس أحسن منه إن كان

حقًّا. ولكن الزم دارك، واقرأه لمن يحضر إليك، ولا تضايقنا في مجالسنا بمثل هذا الكلام. فرد عبد الله بن رواحة – وكان في المجلس وكان مسلمًا – بل أغشنا يا رسول الله في مجالسنا واقرأ علينا ما أحببت فإنا نحب ذلك.

وذهب الرسول إلى مقصده – وكان ذاهبًا لزيارة سعد بن عبادة لمرضه، فعرف سعد الضيق في وجه الرسول. فلما عرف سبب ضيقه قال: يا رسول الله، ارفق به فوالله قد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه. فوالله إنه ليرى أنك قد سلبته ملكًا.

وقد أنزل الله آيات كثيرة في شأن المنافقين في سور متعددة: في البقرة والنساء، والتوبة وغيرها. وسمي إحدى سور القرآن باسمهم «المنافقون».

وسأذكر نماذج من هذه الآيات تبين سماتهم، وغضب الله عليهم، وما أعد لهم من عذاب أليم في الآخرة.

ففي سورة البقرة يحدد بعض سماته: فهم يعلنون الإيمان بالله واليوم الآخر ولكنهم ليسوا مؤمنين حقًّا. ويصفهم بأن في قلوبهم مرضًا – يعني النفاق وكره الإسلام – فزادهم الله من هذا المرض، وسينزل بهم عذابا أليمًا في الآخرة بسبب كذبهم وهم يفسدون في الأرض بمحاولتهم إيقاع الفتنة بين المسلمين فإذا نهوا عن ذلك وصفوا أنفسهم بعكس حقيقتهم فهم – في زعمهم مصلحون – وإذا دعوا إلى الإيمان مثل سائر المؤمنين. اتهموا هؤلاء المؤمنين بالسفه، واستكبروا أن يكونوا مثلهم. بينما الحقيقة أنهم هو السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا قابلوا بعض المؤمنين أقروا أمامهم بالإيمان. فإذا خلوا إلى أمثالهم من الكفار واليهود ذكروا لهم أنهم معهم في حرب الإسلام، وأن إعلانهم الإيمان ما هو إلا استهزاء بالمسلمين وبالإسلام.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ٨ – ١٤].

وفي سورة النساء يذكر مثلا لطبيعة النفاق فيهم؛ فهم عندما ينتصر المؤمنون يسارعون إليهم قائلين ألم نكن بجانبكم؟ وإن كان النصر للأعداء قالوا لهم: ألم يكن في إمكاننا أن نقتلكم أو نأسركم فامتنعنا عن ذلك؟ بل مَنَعْنا المؤمنين أن ينتصروا عليكم عن طريق كيدنا لهم، وتخذيلهم عنكم. ثم يذكر الله أنه سيحكم بينهم وبينكم يوم القيامة ولن يمكن الكافرين منكم في هذه الدنيا. ثم تذكر السورة سمة أخرى من سماتهم وهي خداعهم لله – تعالى عن ذلك – بتظاهره بالإيمان وأداء الفرائض. ولكن الله عالم بخداعهم وبكفرهم وكانت الصلاة فرضًا ثقيلًا عليهم لتكرارها اليومي فكانوا يؤدونها بكسل لمراءاة المسلمين ولا يذكرون الله إلا قليلًا عندما تضطرهم ظروف المراءاة لذلك.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤١ – ١٤٢].

وقد جعل الله عذابهم في الآخرة في أسفل طبقة من طبقات جهنم. وذلك أنهم أشد خطرًا على المؤمنين من الكفار الصرحاء، فهم مدسوسون بين المسلمين، وقد يظل أمر نفاقهم مجهولًا فترة طويلة. أو إلى أن يموتوا. وبذلك يتمكنون من الاطلاع على أسرار المسلمين ونقلها إلى الأعداء. وإذا آذى بعضهم بالقول أو

بالفعل الرسول كان يرفض أن يأمر بقتله كما حدث مع عبد الله بن أبي وغيره – كي لا يقول الأعداء: إن محمدًا يقتل أصحابه – فهو محسوبون عليه وعلى الإسلام.

ولكن الله يفتح باب التوبة للمنافقين كي يتجنبوا هذا العذاب الأليم. وذلك بأن يتوبوا إلى الله، ويصلحوا، ويستمسكوا بالإسلام، ويخلصوا دينهم لله فأولئك يحسبون ضمن المؤمنين الذين سيؤتيهم الله أجرًا عظيمًا.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥ – ١٤٦].

وفي سورة التوبة حديث طويل عن المنافقين بمناسبة غزوة تبوك سأفصل القول فيه عند الحديث عن هذه الغزوة ولكني أذكر آية واحدة تبين سمة من سماتهم وهي محاولة عدم الاستماع إلى القرآن. فهم حينما يكونون في مجلس الرسول، ويعلمون أن الله قد أنزل عليه سورة، وأن الرسول سيقرؤها على الحاضرين، ينظر بعضهم إلى بعض خلسة، ويتهامسون: هل من أحد ينظر إليكم.؟ ثم يتسللون من مجلس الرسول ﷺ. وذلك – ربما – من خوفهم أن يكون فيها فضح لبعض مكايدهم. ثم يقرر الله أنه قد صرف قلوب هؤلاء القوم عن الاهتداء بالقرآن بسبب عدم تدبرهم للحق الذي أنزل على رسوله.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وحتى لو استمروا في مجلس الرسول وهو يعظ المؤمنين صرفوا أذهانهم عن تدبر ما قال، وشغلوا عقولهم بالتفكير في أمور أخرى. وعندما يخرجون من المجلس يسألون علماء المؤمنين ساخرين: ماذا كان يقول منذ لحظات إظهارًا لعدم اهتمامهم بما يقول. كما ذكر الله ذلك في سورة القتال في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم

مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾[محمد: ١٦].

وفي السورة التي سميت باسمهم (المنافقون) يفتتحها الله ببيان طبيعة النفاق فهم يعلنون للرسول أنهم يشهدون أنه رسول الله – وهذه حقيقة يعلمها الله – ولكن المنافقين يكذبون في أنهم يعتقدون ذلك. ويشهد الله على كذبهم.

وهم يكثرون من الحلف على ما يقولونه عن إيمانهم وتصديقهم الرسول. يفعلون ذلك حماية لأنفسهم من الهلاك، ولأموالهم من الضياع إذا صرحوا بكفرهم فبئس عملًا عملهم. ثم يذكر الله التناقض بين ظاهرهم وباطنهم؛ فالذي يراهم تعجبه أجسامهم لوسامتها، ومنطقهم لفصاحة أقوالهم. ولكنهم في فقه ما تقول كالخشب المسندة على الجدران: منظر وضخامة ولكن لا حس، ولا عقل. ولأن هؤلاء المنافقين يتوقعون في كل مرة أن يفضح الله أمرهم، ويوقع الرسول بهم. فهم يتوجسون خيفة من كل صوت أو حركة يظنونها واقعة بهم. ويذكر الله لرسوله أن هؤلاء هم الأعداء الحقيقيون فاحذرهم، ثم يدعو عليهم باللعنة، فكيف ينصرفون عن دعوة الحق.

يقول تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقون: ١-٤].

ثم يذكر الله مظهرًا آخر من مظاهر نفاقهم، وهو استكبارهم أن يذهبوا إلى الرسول ليستغفر الله لهم، إذا ما نصحهم بعض المؤمنين بذلك لارتكابهم بعض الأخطاء في حق الرسول، فكانوا يحركون رؤوسهم استهزاء، ويمتنعون عن

الذهاب إلى الرسول. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون: ٥].

ويخاطب الله رسوله مقررًا أنهم حتى لو استغفر لهم الرسول فلن يغفر الله لهم؛ لأنهم قوم خرجوا على الدين وانحرفوا عن طريقه والله لا يهدي الخارجين عن دينه. وبذلك يستوي استغفارك لهم وعدمه.

يقول تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾ [المنافقون: ٦].

ومثل ذلك قاله الله عنهم في سورة التوبة: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٨٠﴾ [التوبة: ٨٠].

ولشدة ضيقهم بالرسول وكرههم للإسلام حاولوا التضييق اقتصاديًّا على الرسول وأصحابه، وذلك بتحريض قومهم على عدم الإنفاق على أتباع رسول الله حتى ينفضوا عنه ويتركوه. وقد نسوا أن خزائن الله لا تنفد فله خزائن السموات والأرض وهو الرازق الوهاب. ولكن المنافقين لا يفهمون ذلك.

وقد حدثت هذه المحاولة في إحدى غزوات الرسول – غزوة بني المصطلق– عندما تشاجر أجير لعمر مع حليف لعبد الله بن أبي. فصرخ أجير عمر بالمهاجرين. وصرخ حليف عبد الله بالأنصار. فلطم أجير عمر حليف عبد الله فقال عبد الله بن أبي: أوقد فعلوها؟ فوالله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز – يعني نفسه – الأذل – يعني محمدًا، ثم قال لقومه: كفوا طعامكم عن هذا الرجل، ولا تنفقوا على من عنده حتى تنفضوا ويتركوه.

فقال زيد بن أرقم – وهو من قوم عبد الله –: أنت والله الذليل المنتقص في قومك ومحمد في عز من الرحمن ومودة من المسلمين. والله لا أحبك بعد كلامك

هذا أبدًا. فقال عبد الله: أسلمت إنما كنت ألعب. فأخبر زيد النبي ﷺ بقوله. فأقسم بالله ما فعل ولا قال. فعذره النبي. ونزلت هذه الآيات لتكذب عبد الله في قوله:

يقول تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٧ – ٨].

هذه نماذج قليلة مما جاء في القرآن عن المنافقين وشدة خطرهم. وسأذكر مواقف أخرى لهم في مناسباتها المختلفة.



الجهاد

يطلق الجهاد في الإسلام على الحرب للدفاع عن الإسلام، وإعلاء كلمة الله. كما يطلق الجهاد أيضًا على بذل الجهد في سبيل ذلك بالمال أو القول. ولكن الأغلب عند استعمال هذا اللفظ أن ينصرف إلى الحرب. ويلفت النظر أن الإسلام اختار هذه التسمية دون كلمة (الحرب) لأن الحرب لا تُوحي إلا بسفك الدماء. ولم يكن لها من هدف في الأمم المعاصرة للإسلام، والسابقة عليه إلا التوسع والرغبة في السيطرة، وتكوين الإمبراطوريات كما كان يحدث مع فارس والروم. فعزف الإسلام عن استخدام هذه الكلمة. واختار لفظ الجهاد الذي يقترن دائمًا في الأذهان بالتضحية والرغبة في إعلاء كلمة الله، وترك المجال حرًّا أمام الإسلام ليعمل عمله في النفوس، فتأسرها سماحته، وتجذبها سمو مبادئه. فتنقاد إليه دون قسر أو إكراه.

ومن التهم التي يحلو لأعداء الإسلام أن يلصقوها به أنه انتشر بحد السيف – وكذبوا – فقد ظل رسول الله ﷺ يدعوا إلى الإسلام – كما علمه ربه – بالحكمة والموعظة الحسنة. وكان الذي يسمع القرآن ودعوة الرسول بفطرة سليمة، وقلب نقي، وعقل متفتح يؤمن به، ويستمسك بمبادئه وقيمه. ولا يثنيه عن الإسلام ترغيب أو ترهيب. وفي تاريخ المسلمين الأوائل أمثلة لكثير من المسلمين أوذوا واضطهدوا، وصب عليهم العذاب صبًّا. واضطروا إلى الفرار بدينهم إلى الحبشة. كل ذلك دون مقابل دنيوي يتوقعونه، أو جاه ينتظرهم وإنما هو الإيمان وحده الذي ملأ قلوبهم.

ثم كيف انتشر الإسلام بالمدينة؟ لقد استمع عدد قليل منهم إلى القرآن، وإلى شرح الرسول لمبادئ الإسلام فآمنوا ثم ذهبوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام ومعهم رجل واحد يعلمهم الدين هو مصعب بن عمير فازداد عدد المسلمين في

المدينة وتوافدوا إلى الرسول في مكة يبايعونه وهم يعلمون أنهم بذلك يعرضون أنفسهم لحرب الأحمر والأسود كما قال أحدهم. واحتضنوا المهاجرين إليهم وقاسموهم أموالهم. ولم يكونوا يبتغون من وراء ذلك إلا رضوان الله، ونصرة الرسول الذي آمنوا به.

وسنعرف في الحديث عن غزوات الرسول ﷺ أنها لم تكن قط غزوات عدوانية، أو لإرغام الناس على الدخول في الإسلام. ويكفي أن نعرف أن بعض الأوس والخزرج ظلوا على شركهم بعد مجيء الرسول إليهم، ولم يرغمهم الرسول على الإسلام. بل تركهم حتى اهتدوا إلى أن الإسلام هو الدين الصحيح الذي ينبغي أن ينضموا تحت لوائه.

وكان بعض المسلمين قبل الهجرة يرغبون في قتال المشركين فكان الرسول يمنعهم، ويأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة حتى يحكم الله بينهم وبين المشركين. وعندما أراد وفد الأنصار في بيعة العقبة الثانية أن يميلوا بسيوفهم إلى أهل منى من المشركين فيقتلوهم منعهم الرسول، وقال: لم أومر بذلك. ثم في بداية الهجرة جاء الإذن من الله لرسوله بقتال المشركين وذكر سبب هذا الإذن. فقد ظلم المسلمون، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا إعلانهم كلمة التوحيد. ثم يذكر الله ضرورة القتال ليتمكن أهل الدين – كل دين سماوي – من ممارسة شعائرهم في معابدهم دون خوف. ولولا شرعية القتال لأباد أهل الكفر معابد المؤمنين من صوامع يتعبد فيها رهبان النصارى، ومعابد اليهود، ومساجد المسلمين ولاندثر دين الله. فلا بد من شرع القتال لذلك. لإتاحة الحرية لعباد الله أن يعبدوه دون إيذاء أو اضطهاد ثم يعد الله المؤمنين بنصره وهو قوي قادر على ذلك، عزيز لا يغلبه أحد. ثم يذكر أن هؤلاء المؤمنين عندما يتحقق لهم النصر سيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. فهم لن يكونوا أبدًا أدوات بطش أو قهر أو ظلم كغيرهم من المنتصرين».

يقول تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٣٩ – ٤١].

ولابد أن نؤكد أن الإسلام عندما شرع الجهاد، وأذن للمسلمين بالقتال بيَّن لهم أن قتالهم لن يكون إلا دفاعًا عن النفس وردًا لعدوان. فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

بعد إذن الله للمسلمين في القتال، وبعد استقرار الأمر في المدينة وتنظيم أمورها بدأ الرسول والمسلمون يفكرون في قريش وما فعلته بهم، من إخراجهم من دورهم، والاستيلاء عليها، وعلى أموالهم. فبدأ الرسول ﷺ يرسل السرايا لملاقاة عير قريش، إذا عرفوا أنه قريب منهم، أو يرسلها لصد عدوان مغير على إبلهم وأغنامهم وكان الرسول ﷺ يؤمِّر أحد أصحابه عليها. وفي أحيان قليلة يخرج على رأسها. ويؤمِّر على المدينة واحدًا من أصحابه. ومعظم هذه السرايا لم يحدث فيها قتال إما لنجاح عير قريش في الإفلات من المسلمين، أو لموادعة بين المسلمين وأعدائهم.

ولعل أول قتل وقع من إحدى السرايا، وأثار ضجة وحربًا دعائية من قريش واليهود هو ما وقع من سرية عبد الله بن جحش؛ فقد بعثه الرسول ﷺ في رجب من السنة الثانية للهجرة، ومعه جماعة من المهاجرين. ودفع إليه كتابًا وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحدًا فلما فتح الكتاب في موعده وجد فيه أمرًا بترصد عير قريش في نخلة – مكان بين

مكة والطائف- وأن يتعرف على أخبارهم. فأطلع أصحابه على ما في الكتاب، فمضوا معه حتى نزلوا نخلة فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة يقودها عمرو الحضرمي. وكان اليوم آخر شهر رجب. فذكر المسلمون ما صنعت بهم قريش، وما حجزت من أموالهم. وتشاوروا وقال بعضهم لبعض (والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فيمتنعن به منكم ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام) وترددوا وهابوا الإقدام، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم. ورمى أحدهم ابن الحضرمي بسهم فقتله وأسروا رجلين من قريش. واستاقوا العير.

ورجعوا إلى المدينة – وقد وزعوا الغنيمة على أنفسهم بعد أن حجزوا للرسول الخمس كتعليمات القرآن – فلما رآهم قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. وتحفظ على العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا. وانتهزت قريش الفرصة لتشهر بالمسلمين لانتهاكهم الشهر الحرام. وقال مسلمو مكة للمشركين إن القتل حدث في شعبان. ودخلت اليهود المعركة الدعائية تشفع على المسلمين. فأنزل الله آية في سورة البقرة تبين أن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن صد الناس عن سبيل الله، وعن دخول المسجد الحرام، والكفر بالله أكبر عند الله وفتنة الناس عن دينهم أكبر من القتل. ثم ذكرت الآية أن هؤلاء الكفار لن يكفوا عن قتالكم حتى ترتدوا عن دينكم، ومن يفعل ذلك ويمت وهو كافر فقد حبط عمله كله ومأواه النار.

يقول تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

غزوة بدر (رمضان ٢هـ)

هي أول غزوة كبيرة غزاها الرسول ﷺ، وهي أهم غزواته من حيث نتائجها. وقد سماها الله تعالى «يوم الفرقان» فقد فرقت بين الحق والباطل. فرقت بين المسلمين كطائفة مستضعفة وبينهم كدولة يخشى بأسها، وقوة لا يستهان بها. وقد أنزل الله في هذه الغزوة سورة كاملة هي سورة «الأنفال» تناولت أهم أحداث هذه الغزوة، وأهم ما فيها من دروس وعبر بإيجاز القرآن البليغ، وإيماءاته الهادية. وقبل أن أتناول بعض آيات هذه السورة بالشرح والتعليق. أوجز الحديث عن هذه الغزوة كي يتضح المراد من إشارات القرآن إليها.

لقد أُخرج المسلمون عن ديارهم وأموالهم في مكة، وصادر المشركون ممتلكاتهم فيها. فكان الرسول ﷺ يترصد عير قريش ليغنمها المسلمون تعويضًا عما أخذ منهم. وكان آخر ذلك ما حدث من سرية عبد الله بن جحش السابق ذكرها.

وقد سمع رسول الله أن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام في عير عظيمة لقريش فيها أموال لهم، وتجارة من تجاراتهم. وفيها ثلاثون رجلًا من قريش أو أربعون فأخبر أصحابه حاثًّا لهم على الخروج للاستيلاء عليها قائلًا: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»[١]. فتحمس بعضهم للخروج وأعد نفسه لذلك. وتكاسل بعضهم ولم ينشطوا للخروج ظانين أن رسول الله لن يلقى حربًا.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقى من الركبان عن تحركات الرسول تخوفًا على ما معه من أموال. فأخبره بعضهم أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك. فأخذ حذره عند ذلك، واستأجر رجلًا

---

(١) يجعلها غنيمة لكم.

يهب مسرعًا إلى قريش وهو ضمضم بن عمرو الغفاري. وأمره أن يأتي قريشًا، ويتنفرهم إلى أموالهم.

وصل ضمضم إلى مكة، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره، وقد جدع أنف بعيره، وحوَّل رَحْله، وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة[١] اللطيمة. أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه. لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث». فتجهز الناس سراعًا، وخرج أشرافهم جميعًا والذي لم يستطع الخروج أخرج بدلًا عنه كما فعل أبو لهب حيث أخرج بدله مدينًا له في مقابل دينه.

وكان أبو جهل ولقبة بن أبي معيط يدفعان من يحاول القعود من الكبراء إلى الخروج بطريقة مستفزة كما فعل عقبة بن أبي معيط مع أمية بن خلف الذي أجمع القعود وكان شيخًا جليلًا جسيمًا – فأتاه وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة[٢] فيها نار وبخور حتى وضعها بين يديه. ثم قال: يا أبا علي، استجمر، فإنما أنت من النساء. فقال له: قبحك الله وقبح ما جئت به. ثم تجهز للخروج. وهذه الحادثة تبين لنا شدة حرص قريش على ملاقاة الرسول، وأن يجمعوا له كل أشرافهم لترتفع الروح المعنوية بينهم. وكأنهم ظنوا أنهم بهذه المعركة الحاسمة التي كانوا يتوقون إليها أنهم سيقضون نهائيًّا على محمد.

وكما يفعل المحنكون من الساسة أرادوا أن يؤمنوا ظهرهم. وكان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة[٣] ثأر فخشوا أن ينتهزوا الفرصة، ويأتوهم من خلفهم فلم يخرجوا حتى اطمأنوا إلى حسم هذا الأمر. عندما ضمن لهم سراقة بن مالك أحد أشراف كنانة عدم وثوبهم عليهم وقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من

---

(١) التجارة.

(٢) وعاء يوضع فيه لنجواه.

(٣) من قبيلة كنانة.

خلفكم بشيء تكرهونه. فخرجوا سراعًا.

وخرج رسول الله ﷺ مع من تبعه من المسلمين وكان عددهم يزيد قليلًا عن الثلاثمائة وذلك ليلة السبت الثاني عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة، واستعمل عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة بالناس بالمدينة، وأبا لبابة بن الروحاء واليًا على المدينة. ولم يكن مع المسلمين إلا سبعون بعيرًا كان كل ثلاثة أو أربعة يتناوبون ركوب البعير الواحد. وكان رسول الله كأحدهم فكان يتناوب بعيرًا هو وعلى بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي.

وأتى الخبر رسول الله ﷺ بمسير قريش ليمنعوا غيرهم. فأخبر أصحابه بذلك ثم قال: أشيروا على أيها الناس. فقام أبو بكر ثم عمر يعلنان تأييدهما للرسول. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون». ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمار[1] لجالدنا معك حتى تبلغه». فدعا له الرسول بخير. وكان الثلاثة من المهاجرين. ولكن الرسول كان يقصد الأنصار فقد كانت بيعتهم إياه أن يدفعوا عنه عدوان أي معتد. ومعنى ذلك أنهم قد يكرهون القتال خارج مدينتهم فأراد الرسول أن يتأكد من موقفهم. فكرر قوله: أشيروا على أيها الناس». فقال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. قال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخفته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا. إنا لصُبرٌ في الحرب، صُدْقٌ

---

(١) موضع بناحية اليمن.

في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر بنا على بركة الله». فسُر رسول الله ﷺ، ونشطه ذلك. ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفين»[١].

والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وأخذ رسول الله ﷺ يتحسس أخبار قريش. فسأل أحد من لقيهم فأخبره أن قريشًا خرجوا يوم كذا وهو الآن بمكان كذا – لمكان حدده- ثم أرسل رسول الله ﷺ على بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه. فوجدوا سقاة لقريش يستقون الماء فأتيا باثنين منهما لرسول الله. فسألهما عن قريش، فقالا: هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى فقال لهما: كم القوم؟ قالوا: كثير. فقال لهما: كم يذبحون؟ قالا: يوما تسعة ويوما عشرة. فقال لأصحابه إن القوم ما بين تسعمائة وألف. وسألهما عن أشراف قريش الموجودين فيهم. فعددا لهم نفرًا من كبارهم. فأقبل رسول الله على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها.

وكان أبو سفيان قد أقبل بالعير وورد ماء بدر يتطلع فتأكد له أن جيش المسلمين قريب منه. فرجع إلى أصحابه. فغير وجهة سيره، وأخذ جهة الساحل وانطلق مسرعًا بعيدًا عن بدر، ولما رأى أنه قد نجا بعيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورحالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا. فقال أبوجهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا – وكان بدر موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام – فنقيم عليه ثلاثًا فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان. وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها. فامضوا.

ولكن الأخنس بن شريق استطاع أن يقنع بني زهرة بعدم الاشتراك في القتال فرجعوا معه. وكذلك لم يخرج من بني عدي بن كعب أحد.

---

[١] القافلة أو النصر.

مكان المسلمين في المعركة:

وكانت قريش نزلت بالعُدْوة القصوى – أي جانب الوادي الأبعد من المدينة– وكانت الآبار بالجانب الأقرب من المدينة- العدوة الدنيا – وأرسل الله مطرًا أصلح الأرض للسير، وشرب المسلمون وتطهروا. ونزل الرسول بأصحابه عند أقرب ماء إلى المدينة فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل منزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا أن نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل. فانهض بالناس حتى تأتي أقرب ماء من القوم، فتنزله، ثم نبني حوله حوضًا فنملؤه ماء. ثم نقاتل القوم. فنشرب ولا يشربون. فوافق الرسول. ونزل بأصحابه حيث أشار.

اقتراح لحماية الرسول:

قال سعد بن معاذ: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم نلقي عدونا. فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا. وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت من وراءنا من قومنا. فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقي حربًا ما تخلفوا عنك. فأثنى عليه الرسول خيرًا ثم بنى العريش فكان فيه رسول الله.

وأقبلت قريش نحو العدوة القصوى. فلما رآها رسول الله ﷺ قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك، وتكذب نبيك. اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنْهم[١] الغداة.

عتبة بن ربيعة يحذر قومه:

أرسلت قريش من يتعرف لها عدد جنود الرسول وما عندهم من كمين أو

---

(١) أهلكهم.

مدد فعاد إليهم مخبرًا أنهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا. وليس لديهم مدد أو كمين. ثم قال لهم: يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع[١]: قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم. فإن أصابوا بعددهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس حتى أتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش والمطاع فيها. هل لك بخير الدهر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ترجع بالناس، فوافق عتبة. وخطب الناس قائلا: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته. فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم. وإن كان غير ذلك ألفاكم لم تتعرضوا له بسوء.

ولكن أبا جهل رفض ذلك، وزعم أن عتبة يقول لك تخوفًا على ابنه المسلم المشارك مع الرسول – أبي حذيفة – واستنفر عامرَ الحضرمي أخا عمرو الذي قتلته سرية عبد الله بن جحش فأخذ عامر يصرخ: واعمراه. واعمراه. فحميت الحرب.

بدء القتال وبطولات المسلمين:

وقد بدأه الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان شرسا سيئ الخلق. قال: أما هو إلا لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتن دونه. فلما أتى الحوض خرج إليه حمزة فضربه فأطار قدمه بنصف ساقه، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا. ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

---

[١] النواضح: الإبل – الناقع: المهلك. جمال الأنصار الذين حضروا عليها تحمل إليهم الموت.

ثم خرج عتبة بن ربيعة ابن أخيه شيبة وابنه الوليد، ودعا إلى المبارزة فخرج إليه ثلاثة من الأنصار. فقال لهم: ما لنا بكم حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا. فأخرج لهم عبيدة بن الحارث، وحمزة، وعليا. فلم يمهل حمزة شيبة أن قتله، وكذلك قتل علي الوليد. ثم استدارا إلى عتبة الذي كان يبارزه عبيدة وكاد يقتله فأجهزا عليه. وكان ذلك يوم الجمعة السابع عشر من رمضان.

ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض. وقد أمر رسول الله ﷺ ألا يحملوا حتى يأمرهم. وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل. وكان رسول الله ﷺ في العريش، ومعه أبو بكر، ليس معه غيره. وأخذ الرسول يدعو ربه أن يحقق له ما وعده من النصر ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، وقد سقطت رداؤه عن كتفه، فيرفعه له أبو بكر ويقول: بعضَ مناشدتك لربك، فإن الله منجز لك ما وعدك. ثم خرج إلى المسلمين فحرضهم وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فقال عمير بن الحمام – وفي يده تمرات يأكلهن – أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل القوم حتى قتل. وقد سأل عوف بن الحارث الرسول عما يرضي الله من عبده فقال له: أن يقاتل العدو من غير درع فقذف بدرعه وقاتل القوم حتى قتل.

ومن ضلال أبي جهل أنه أخذ يدعو بالهلاك على محمد الذي جعل العشيرة ينازع بعضها بعضا، وجاءهم بما لا يُعْرَف ويقول. فليهلك اللهم أهلك أقطعنا للرحم .. فكان هو المستفتح أي الحاكم على نفسه بها الدعاء فقد كان هو القاطع للرحم فاستحق الهلاك. وقُتل في المعركة: اشترك في قتله أكثر من واحد كان آخرهم عبد الله بن مسعود الذي مر به وبه رمق. فوضع رجله على عنقه. ثم قال له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ فقال له: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا عدو الله. ثم أخذ

رأسه وأتى به رسول الله ﷺ الذي حمد الله.

وكان الرسول – في أثناء القتال – أوصى أصحابه ألا يقتلوا أحدًا من بني هاشم لأنهم أخرجوا إلى القتال كارهين. وألا يقتلوا أبا البختري بن هشام فرفض هذه الميزة حينما أخبره أحد أصحاب الرسول الذي تمكن من أن يقتله ولم يفعل مع أن رسول الله أمر بذلك. فأحب أن تشمل هذه الميزة صاحبه الذي كان معه. فرفض المجاهد فقتلا معا.

وقد نسأل لماذا أعطي الرسول بني هاشم وأبا البختري هذه الميزة التي قد تفهم على أنها تمييز بسبب القرابة أو الصداقة. ولكن حاشا أن يفعل الرسول ذلك. لقد ذكر الرسول دافعه إلى ذلك وهو أن بني هاشم أخرجوا كارهين، وأن أبا البختري كان له دور في نقض صحيفة المقاطعة. وأحب أن أضيف أن بني هاشم بذلوا جهدا في منع الرسول من أعدائه، وكف الأذى عنه. كما تحملوا معه عبء مقاطعة قريش لهم.

وقد بشر الله رسوله عندما كان يدعوه بأنه ممده بألف من الملائكة يثبتون قلوب المؤمنين، ويكونون بشرى لهم بالنصر.

وانتهت المعركة بالنصر العظيم. وقد أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يلقوا في البئر. فألقوا فيه. ثم وقف الرسول على البئر وقال: يا أهل القليب – البئرِ – يا عتبة ابن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أبا جهل بن هشام، فعدَّد من كان منهم في القليب: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا. فقال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قوما قد جَيَّفوا؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

توزيع الغنائم:

وقد أمر رسول الله ﷺ بأن يجمع كل ما ترك المشركون من غنائم. فاختلف المسلمون فيه: فقال من جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه:

والله لولا نحن ما حصلتم عليه، فقد شغلنا عنكم القوم حتى أخذتم ما أخذتم. وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله: ما أنتم بأحق به منا. فلولا حرصنا على حماية الرسول لقتلنا العدو وهو منهزم وأخذنا متاعه. ولكنا خفنا أن يتمكن أحد من الأعداء من الخلوص إليه فلم نبرح مكاننا فأخذ الرسول كل ما أحرز من غنائم. ووزعه على المسلمين المشاركين في بدر وبعض من في المدينة ممن وكل إليهم الرسول عملا يقومون به بالسوية.

العودة المظفرة إلى المدينة:

بعث رسول الله قبل عودته إلى المدينة من يبشر أهلها بالنصر العظيم. ثم رجع إلى المدينة ومعه الأسرى من المشركين. وفيهم عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث وكانا من أشد المشركين إيذاء للرسول. فأمر بهما فقتلا – في طريق عودته – وقد حاول عقبة أن يستعطف الرسول قائلا: فمن للصبية يا محمد؟ فلم يكن جواب رسول الله له إلا: النار- وكان موكب الأسرى يثير الشفقة في النفس لأول وهلة وقد جُمعت يدا كل منهم إلى عنقه بحبل وهم من كانوا عزَّة وشموخا. حتى لقد دفع ذلك سودة بنت زمعة زوج الرسول أن تخاطب سهيل بن عمرو وكانت يداه كذلك: يا أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم. ألا متم كرامًا؟ فقال الرسول – وقد سمع قولها من داخل حجرته – : يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين؟ قالت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت.

وفرق الرسول الأسرى بين أصحابه حتى يرى رأيه فيهم وقال لهم: استوصوا بالأسارى خيرًا. ثم استشار الرسول صاحبيه أبا بكر وعمر في شأن الأسرى. فكان من رأي أبى بكر أن يمن عليهم، أو يقبل منهم الفداء فيكون قوة للمسلمين فهم الإخوة وأبناء العم والأقرباء، وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام. وكان من رأي

عمر أن هؤلاء أئمة الكفر أخرجوا الرسول والمسلمين من ديارهم وأموالهم فينبغي قتلهم. وبعد مشاورات وتدبر قرر الرسول أن يأخذ الفداء منهم. ولكنه مَنَّ على شخص واحد هو أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي الشاعر الذي استعطف الرسول بأن عنده خمس بنات وليس عنده مال، ووعد أنه لا يقاتله، ولا يُكثر عليه أبدًا. ولكنه نكث عهده بعد ذلك واشترك في غزوة أحد فأُسر وقتل. وكان في الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول الذي كان مشركا – وكانت مقيمة معه في مكة – ولم يستطع الرسول أن يفرق بينهما في مكة؛ لأنه لا سلطان له فيها. وقد افتدته بقلادة كانت هدية أمها لها مع مال آخر. فلما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا. فوافقوا.

وقع الخبر على قريش:

فوجئ أهل مكة برجل يقال له: الحيسمان بن عبد الله الخزاعي – وكان في المقاتلين – يحضر إليهم فأسرعوا إليه يسألونه عن الخبر. فأخبرهم بالهزيمة وبمقتل أشرافهم وكبرائهم. وقد ذهل أهل مكة أول الأمر فلم يصدقوا الخبر. ولكنهم تأكدوا بعد ذلك من صدقه. فنزل عليهم نزول الصاعقة حتى لقد حُمَّ أبو لهب ومات بعد سبعة أيام. وأجمعت قريش أمرها على ألا تنوح على قتلاها، وألا تبعث في فداء أسراها حتى لا يتشدد عليها محمد. ولكنهم اضطروا آخر الأمر إلى إرسال الفداء الذي كان يتراوح بين ألف وأربعة آلاف درهم على حسب المقدرة المالية لأهل المفتدى. ولكن جرح الهزيمة في قريش كان غائرًا. وأخذت قريش تعد للثأر من محمد. وكما اضطروا إلى إرسال الفداء إلى محمد اضطروا إلى أن ينوحوا على قتلاهم ليفرجوا ما بأنفسهم من حزن. وناحت نساء قريش على القتلى شهرًا كاملاً إلا هند بنت عتبة التي حرمت على نفسها النياحة حتى لا تشمت فيها محمد، وحتى تثأر لأحبتها ومكثت لا تقرب الدهن الذي يتجمل به النساء، ولا

تقرب فراش أبي سفيان حتى غزوة أحد. وأما أبو سفيان فنذر ألا يغسل رأسه من جنابة حتى يغزو محمدا.

القرآن يتحدث عن غزوة بدر:

نزلت كما ذكرت – سورة كاملة في هذه الغزوة وهي سورة «الأنفال» كما وردت آيات في سورة آل عمران تتحدث عن نصر الله المسلمين ببدر.

سورة الأنفال:

والأنفال جمع نَفَل وهو الغنيمة. وقد سميت السورة بذلك لأنها تناولت – فيما تناولت – الحديث عن الغنائم التي غنمها المسلمون يوم بدر، والتي سيغنمونها بعد ذلك. وقد بدأت السورة بالحديث عن الأنفال يوم بدر. فقد رويتُ الخلاف الذي شجر بين المسلمين بشأن توزيع الغنائم. فذكر الله في أول السورة أن المسلمين يسألون الرسول عن الأنفال منْ حق مَن هي؟ والله يجيبهم أنها من حق الله ورسوله. وقد عرفنا أن الرسول وزعها بين المسلمين على سواء؟ ثم يدعوهم الله أن يتقوه وأن يزيلوا كل دواعي الخلاف بينهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في كل ما يأمرهم به إن كانوا مؤمنين حقا.

يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].

وبعد أن يبين الله صفات المؤمنين الجديرين بهذا الاسم وجزاءهم عنده يصور خروج الرسول من بيته لملاقاة العير، ويصور حال بعض المؤمنين الذين كرهوا قتال قريش بعدما علموا أن أبا سفيان نجا بالعير، وأن أبا جهل أصر على القتال فقد كانوا غير مستعدين للقتال – ولو نفسيًّا على الأقل – فأخذوا يجادلون الرسول ليكف عن القتال بينما هو الحق ويشبههم في نفورهم بقوم يساقون إلى الموت وهم ينظرون إليه.

يقول تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾ [الأنفال: ٥ — ٦].

ثم يذكِّرهم الله بأنه قد وعد نبيه بأنه ضامن له الفوز بأحد الأمرين الاستيلاء على القافلة أو النصر في القتال إذا فاتتهم القافلة. ولكنهم في قرارة أنفسهم كانوا يتمنون أن يتحقق الأمر الأول. فهو أمر مريح، ومكاسبه مضمونة. ولكن لله إرادة غير إرادتهم فهو يريد أن يدور القتال بين الفريقين لينتصر الحق ويمحق الكافرين، ويبطل الباطل رغم أنف المجرمين.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ ﴾ [الأنفال: ٧ — ٨].

ونلاحظ أسلوب القرآن الصريح الذي لا يداري ولا يجامل، بل يكشف للمسلمين ما في نفوسهم بعضهم من كره للقتال وخلاف على الغنيمة، وتَمَنِّي أن ظفروا بالقافلة ولا يتعرضوا للقتال. والقرآن يريد من ذلك أن يربي هؤلاء المسلمين على الجهاد، وأن يكون هدفهم دائمًا السعي لإعزاز دين الله، وتمكينه في الأرض دون نظر إلى أي مكسب مادي. وقد مر بنا ما عبر به بعض المهاجرين والأنصار من رغبة في القتال مهما كلفهم ذلك من مشقة ، حتى لو ذهب بهم الرسول إلى برك الغماد كما قال المقداد، أو خاض بهم البحر كما قال سعد بن معاذ. ولكن القرآن يريد أن يربى الجميع على هذه العقيدة الإيمانية التي تستعذب الموت في سبيل الله.

ثم يذكرهم الله باستغاثتهم به لتحقيق النصر، وبما فعله رسوله من الاجتهاد في مناشدة ربه، وأن الله قد استجاب لدعائهم بأنه سيمدهم بألف من الملائكة متتابعين بعضهم وراء بعض. ثم يذكر الله أن إرسال الملائكة لم يكن إلا بشرى لهم

بالنصر، ولكي تطمئن قلوبهم إلى عون الله لهم. ثم يقرر الله هذه الحقيقة وهي أن النصر من عند الله وليس بوسائل البشر فكثرة العَدَد والعُدَد لا تنفع شيئًا إذا لم يرد الله النصر، وقلة العدد وضعف العدد لا يضران شيئًا إذا أراد الله النصر.

ثم يذكرهم بأمر قد لا يتنبه إليه بعضهم وهو ما أنعم الله عليهم به من نعاس ملأ نفوسهم راحة وطمأنينة فناموا نشيطين متحمسين للقتال، كما أنعم عليهم بنعمة المطر الذي حقق لهم عدة أهداف فقد طهر من أصابته جنابة منهم، وأذهب عنهم وسوسة الشيطان الذي وسوس إليهم أنهم لو كانوا على الحق ما تخلى عنهم ربهم وتركهم للظمأ في هذه الصحراء [وذلك قبل أن يصلوا إلى ماء بدر ويختصوا به] وبذلك تثبيت قلوبهم على الحق. وهدف أخير هام هو أن المطر ثبت لهم الأرض التي كانت تسوخ فيها الأقدام. ثم تعود الآيات إلى الحديث عن الملائكة، وكيف أن الله أوحى إليهم أنه معهم ليحقق النصر وطلب منهم أن يثبتوا الذين آمنوا بطمأنة قلوبهم. وذكر لهم أنه سيلقى في قلوب الذين كفروا الرعب، وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق الكفار، وأن يضربوا أيديهم كي يعجزوهم عن القتال. وبين سبب ذلك وهو كفرهم، وعداؤهم لله ورسوله وهذا جزاء من يفعل ذلك.

يقول تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال: ٩ – ١٣].

وأسأل: هل اشتركت الملائكة فعلًا في القتال؟ ليس في الآيات تعبير صريح

يؤكد ذلك. فالآيات تذكر أن الله أرسل الملائكة ليكونوا بشرى للنصر ولطمأنة قلوب المؤمنين. وقد جعل التعبير عن هذا المعنى على طريق القصر «وما جعله الله إلا بشرى» أي لم يكن لهم عمل غير ذلك. كما أن الآية الأخيرة تؤكد هذا المعنى: «فثبتوا الذين آمنوا» أي - كما نقول في عصرنا الحديث - جاءت الملائكة لرفع الروح المعنوية وهي قوة تفوق أي سلاح. وأما قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ فهو خطاب للمؤمنين. وقد يؤكد هذا الرأي أن ألف ملك نزلوا من السماء لقتال المشركين مأمورين كلهم بذلك لا يمكن أن يعصي أحدهم الأمر فلا يقتل ومعنى ذلك أنه كان يجب أن يقتل ألف مشرك ولكن هذا لم يحدث بل قتل سبعون فقط - يحدد كتاب السيرة اسم كل قتيل واسم من قتله. على أني لا أستطيع أن أجزم أنه لم يقتل أحد من الملائكة أيا من المشركين فقد يكون قتل الملائكة لواحد أو أكثر نوعًا من الرمز لاشتراكهم الفعلي في القتل. ويروى - أيضًا - بعض كتاب السيرة أن بعض المقاتلين في بدر ذكر أنه عندما رفع سيفه ليقتل أحدهم سقط رأسه قبل أن يصل إليه سيفه. والله أعلم أي ذلك كان.

ثم يحث الله المسلمين في الآيات التالية على مواصلة القتال وعدم الفرار من المعركة إلا في حالتين اثنتين: الأولى أن يفر ليتخذ موقفًا آخر يكون فيه أكثر قدرة على القتال والأخرى أن ينحاز إلى فئة مقاتلة من المسلمين يكون قوة لها، وتكون قوة له. والفرار لغير هذين السببين يبوء مرتكبه بغضب الله ويكون مصيره إلى جهنم.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦].

ثم يقرر الله حقيقة على المؤمن أن يدركها، ويعيها جيدا، وهي أن الأمر كله لله وأن النصر بيد الله وحده. وأن كل ما يفعله الإنسان هو وسائل قد يحقق الله عندها

النصر وقد يخلفه. فالمسلمون حينما قتلوا المشركين لم يكن فعلهم هو سبب قتلهم بل كانت إرادة الله وحدها هي التي أحدثت القتل. والرسول حينما رمى المشركين بالحصى فأصاب وجوههم عند بداية المعركة وهو يقول: شاهت الوجوه» لم يكن هو الذي أصاب وجوه القوم وأعينهم بل كانت إرادة الله الفاعلة. وما القتال إلا اختبار لإيمان المسلمين وتضحيتهم في سبيل دينهم، وليظهر ضعف كيد الكافرين، وقلة حيلة الكافرين أمام الله.

يقول تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: ١٧ – ١٨].

فهل لهذه الحقيقة أن تدفع المسلمين إلى التواكل؟ لا، فالله وضع قانونا للنصر لا يتخلف يتمثل في هذه العبارات: «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» «ولينصرن الله من ينصره» فالله لا ينصر إلا من استفرغ جهده كله في الإعداد للمعركة وفي القتال. وقبل ذلك اتقى الله وأطاعه، وأطاع ما يأمر به الله ورسوله وسوف يتأكد لنا هذا المعنى عند الحديث عن غزوة «أحد».

وقد ذكرتُ أن أبا جهل استفتح، أي طلب حكم الله بين الفريقين وأن يهلك أقطعهم للرحم فأهلكه الله ومن معه فظهر بذلك أن الله مع المسلمين فالآية تقرر ذلك ثم تترك الباب مفتوحًا أمام المشركين أن يكفوا عن عدوانهم، ويكون في ذلك خير لهم. وأما إذا عادوا إلى العدوان والقتال فتكون النتيجة مثل يوم بدر مهما بلغت قوتهم.

يقول تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩].

ثم يقرر الله حكم الغنائم في الحروب القادمة وهو أن يكون الخمس لله

ولرسوله وما كان لله فسيوزعه الرسول كما يرى لخير الناس. ويشترك في هذا الخمس أقرباء الرسول الذي تحملوا معه عبء الدعوة في مكة، وأوذوا في سبيلها، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم فهاجروا إلى المدينة، وفقراء اليتامى والمساكين وابن السبيل الذي لا يملك مالا وأنقطع به الطريق. وقد نصت الآية على الخمس، ولم تتحدث عن أربعة الأخماس الباقية فأمرها مفهوم توزع على المقاتلين: كل على حسب بلائه في القتال. ويشدد الله على تقرير هذا الحكم. فيجعل تنفيذه مقياسًا لإيمان المقاتلين بالله وبالقرآن الذي أنزله على عبده يوم بدر الذي سماه يوم الفرقان؛ لأنه فرق بين الحق والباطل. ووصفه بأنه اليوم الذي التقى فيه الجمعان. والله قدير على كل شيء، فلا يعجب أحد من نصره المسلمين على قلتهم على الكافرين على كثرتهم. ثم يذكر الله أماكن الفريقين قبل بدء القتال فقد نزل المسلمون في الجانب الأقرب إلى المدينة من الوادي، ونزل المشركون الجانب الأبعد منه. وأما العير فكانت أسفل الوادي مساحلة للبحر. وهذا اللقاء بين الفريقين.

جاء على غير موعد. ولو أنهم اتفقوا على موعد له لاختلفوا في تحديده. ولكن جعل الله اللقاء صدفة حتى يحقق مات أراده من نصر المسلمين، ودحر المشركين، وليكون استمرار الكافر على كفره عنادا ومكابرة بعد ما تأكد من صدق الرسول، وكذلك الذي دخل في الإيمان دخله عن بينة. ثم يذكر الله أمرًا دبره لرفع الروح المعنوية لدى المسلمين؛ فقد أرى الرسول في منامه أعداد أعدائه قليلة، ولو أنه أراه أعدادهم كثيرة على حقيقتها لدب الضعف فيهم، واختلفوا: فريق يؤيد البقاء للقتال، وفريق يرى الرجوع؛ إذ لا قبل لهم بهذه الأعداد الغفيرة التي تقارب الألف بينما هم لا يزيدون عن ثلاثمائة. ولكن الله وقف بجانب المسلمين، وحقق لهم النصر لأنه أعلم بما في صدورهم من إيمان. كما يذكر أمرا آخر دبره ليشجع الفريين على بدء القتال الذي أراده الله ليحق الحق، ويبطل الباطل. وهذا الأمر هو

أنه أظهر المشركين قلة قليلة في أعين المسلمين، كما أظهر المسلمين قلة قليلة في أعين المشركين. ثم يقرر الله أن مرجع الأمور كلها إلى الله من نصر أو هزيمة.

يقول تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: ٤١ – ٤٤].

ثم يدعو الله المسلمين في الآيات التالية إلى أن يثبتوا في المعركة إذا لقوا جماعة من الأعداء ومما يساعدهم على الثبات أن يستحضروا الله في نفوسهم وقدرته، ويذكروه بألسنتهم ذكرا كثيرا كي يتحقق لهم النصر. كما يأمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول القائد الأعلى فيما يأمرهم به، وينهاهم عن التنازع فيما بينهم والاختلاف، فذلك يؤدي إلى إضعافهم وذهاب قوتهم. ويأمرهم بالصبر في المعركة فالله دائما في جانب الصابرين.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٥ – ٤٦].

فهاتان الآيتان تحددان أهم شروط النصر في القتال. وأول هذه الشروط الثبات في المعركة وعدم الفرار – وقد وضحت آية سابقة أن الفرار جائز في حالتين

فقط ذكرتُهما – وشرط ثان هو أن يمتلئ صدر المقاتل بذكر الله. ويجهر بذكره كثيرا فهذا يرفع روحه المعنوية؛ فهو دائما مع الله. ومن كان مع الله فالله معه. الشرط الثالث طاعة الله وطاعة رسوله فطاعة الله تجعل الإنسان واثقا بنصره، راضيا بقضائه. وطاعة الرسول فهو القائد الأعلى المخطط للمعركة، والإخلال بأمره يؤدي إلى الهزيمة كما حدث في غزوة أحد. وشرط رابع وهو عدم التنازع والاختلاف فليس للجندي والقتال دائر أن يعترض على أمر، أو يبدي وجهة نظر معارضة لرأي المجموع. والشرط الأخير هو الصبر فلا يتعجل المقاتل النصر، وييأس إذا أبطأ عليه. بل يصبر حتى يتحقق وعد الله.

ثم يعرض الله صورة مقابلة لا ينبغي أن يكون عليها المؤمن. وهي صورة المشركين التي ينهي الله المسلمين أن يكونوا مثلها. فقد خرج المشركون من مكة بطرا ورياء. وذلك أن أبا سفيان قائد العير أرسل إليهم يخبرهم أن عيرهم قد نجت ولا داعي لخروجهم للقتال كما نصحهم بذلك بعض ذوى الرأي فيهم. ولكن أبا جهل رفض وقال لا بد أن نذهب وننحر الجزر ونشرب الخمر، وتغنى لنا القيان، ويتسامع العرب بقوتنا فهذا هو البطر والرياء، وأمر ثالث دفعه إلى الخروج وهو صد الناس عن الإيمان بالله ورسوله. وهم في كل هذا غافلون عن أن الله محيط بكل أعمالهم. ثم يبين الله سبب هذا وهو وسوسة الشيطان لهم، إذ أوحى إليهم أنه لن يستطيع أحد من الناس أن يغلبهم لما يتمتعون به من عز وجاه وقوة؛ وأنه سيحميهم من كل عدوان. فلما بدأ القتال، ورأوا شجاعة المسلمين، وحماستهم في القتال زالت أوهامهم، وتخلى عنهم شيطانهم. فقد رأوا أنفسهم أمام قوة لا قبل لهم بها. واعترف الشيطان نفسه بعجزه عن مواجهة هذه القوة، لأنها من الله. وقد زعم لهم بعد فوات الأوان أنه يخاف الله وعقابه الشديد.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ

أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٧ – ٤٨].

وللمرء أن يسأل نفسه أمام هذه الصورة التي رسمها الله لإقدام المشركين على القتال. هل هذه الصورة حقيقية، وأن الشيطان كان معهم حقيقة؟ أو أنها صورة مجازية يشبه الله فيها وسوسة الشيطان للمشركين لاستيلائها على نفوسهم كأنه معهم حقيقة. فأما المفسرون القدامى فقد ذكروا روايات عدة تؤكد أن الشيطان كان معهم حقيقة. فقد ورد أنهم حينما أعدوا للخروج خافوا من بني بكر أن تقاتلهم من خلفهم انتقاما لثأر قديم بينهم وبين قريش. فتمثل لهم الشيطان في صورة سراقة بن مالك من أشراف بني كنانة التي ينتمي إليها بنو بكر. وقال لهم لا تخافوا من بني بكر فأنا سأحميكم منهم، وأمنعهم من إلحاق أي أذى بكم. وذهب معهم ووقفوا جميعا في ساحة المعركة يرى بعضهم بعضا، فلما رأى الشيطان الملائكة حول المسلمين تخلى عنهم، وأعلن براءته منهم زاعما أنه يخاف الله وعقابه الشديد.

وأما بعض المفسرين المحدثين مثل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا فيرون أن الكلام هنا على سبيل التشبيه والتمثيل فقد صور الله وسوسة الشيطان في شدة التأثير كأن الشيطان حاضر بينهم، ولما رأوا قوة المسلمين زال عنهم هذا الوهم، وتخلوا عن وسوسة الشيطان. فكأن الشيطان هرب وتركهم.

ورأيي قد يكون ميالا نحو تفسير المحدثين. ولكني لا أجزم بنفي التفسير الأول فليس هناك ما يمنع أن يحضر الشيطان مثل هذه الأمور الخطيرة ويوجه دفتها نحو الشر.

ثم تمضي الآيات لتبين موقف المنافقين، وضعاف العقيدة من بعض المؤمنين. فماذا كان هذا الموقف؟ كان موقفا سلبيا، موقف المتفرج المتمني

انتصار المشركين وهزيمة المؤمنين. ولا يستطيعون الاشتراك في القتال، فهم لا يضحون بأرواحهم في سبيل عقيدة لا يؤمنون بها. ولا يمكنهم الانضمام إلى المشركين خوفا من العاقبة ولكنهم يستطيعون الكلام فيسخرون من المسلمين بأنهم قد اغتروا بدينهم، ودفعهم هذا الاغترار إلى أن يحاربوا قوة تفوقهم عددا أضعافا مضاعفة. ويطمئن الله المسلمين بأنهم لن يضروهم شيئا فقد توكلوا على الله، والله مانع من يتوكل عليه لعزته وقدرته. ثم يذكر الله مشهدا من مشاهد يوم القيامة يرعب كل هؤلاء من كفار ومنافقين وضعاف الإيمان. هذا المشهد يوم تتوفاهم الملائكة فيضربون وجوههم وأدبارهم قائلين لهم: ذوقوا عذاب جهنم الذي استحققتموه بما قدمتم من معاداة الله ورسوله. فإن الله لا يظلم أحدا من عبيده.

يقول تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٤٩ – ٥١].

ثم يقرر الله بعد ذلك بعض الأمور المتعلقة بأعدائهم وموقف المسلمين منها فيتحدث عن نقض أولئك العهد الذي أبرموه مع المسلمين، ويصف الناكثين للعهد بأنهم شر الدواب عند الله، فقد كفروا وأصروا على كفرهم، وهم ينقضون عهدهم في كل مرة يعاهدون فيها فعلى النبي إزاء هؤلاء الخائنين أن يضربهم بكل قوة وعنف ضربا يجعل من خلفهم من الأعداء لا يفكرون في مهاجمة المسلمين. وإذا عقد عهدا مع قوم، ثم خشي أن يخونوه وينقضوا العهد فعليه أن يعلنهم بأنه لا يعتبر العهد قائما بينه وبينهم، ويفعل ذلك بطريقة صريحة واضحة لا لبس فيها كي لا يتهم بالغدر فالله لا يحب الخيانة، ولا يرشد الخائنين، أو ينجح كيدهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ

عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٥ – ٥٨].

ثم يوصى الله المسلمين أن يكونوا دائمًا على أقصى أهبة من الاستعداد للعدو فيعدوا له كل ما يستطيعون، وخصوصًا الخيل المعدة للقتال، كي يخيفوا به عدو الله وعدوهم من الكافرين، ويخيفوا غيرهم من الأعداء المتسترين الذين يخفون على المسلمين من المنافقين وغيرهم، ولكنهم لا يخفون على الله. ويحثهم على الإنفاق في سبيل هذه الغاية، وسيوفيهم الله أجرهم على ما ينفقون لا ينقصون منه شيئًا. ثم يلفتهم إلى أن الهدف ليس القتال في حد ذاته، بل تأمين الجبهة المسلمة ليتفرغوا للدعوة إلى الله، ونشر دينه. فإذا تحقق هذا دون قتال بأن رغب الأعداء في السلم، فليستجب النبي لهذه الرغبة متوكلا على الله الذي يسمع ما يُسِره الناس، ويعلم ما يدبرونه. ثم يطمئن رسوله إلى حماية الله فلا يخشى خداعهم – في طلب السلم – فهو حسبه وكافيه، ويؤكد له ذلك بتأييده له بالنصر في غزوة بدر. وتأييده بالمؤمنين الذين ألف الله بين قلوبهم المتنافرة تحت راية هذا النبي ولو أن محمدا أنفق كل ما في الأرض ليحقق هذا الائتلاف ما تحقق له ذلك ولشدة ما كان بينهم من تنافر. ولكن الله وحده ألف بينهم؛ فهو العزيز الحكيم.

يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

[الأنفال: ٦٠ – ٦٣].

ثم يدعو الله رسوله أن يحث المسلمين على القتال للدفاع عن الدين، وإعلاء كلمة الله. ثم يبين له أن واجب الفئة المؤمنة أن تتصدى للكثرة الكثيرة دون خوف فيقاتل المؤمن الواحد عشرة من الكافرين فإذا وجد عشرون من المؤمنين الصابرين فواجبهم أن يقاتلوا مائتين من الكفار، وإذا وجد مائة مؤمن صابر فواجبهم قتال ألف من الكفار لأن الكفار ضعاف لعدم إيمانهم بعقيدة قوية دافعة. ولكن الله أشفق على المؤمنين من هذا التكليف المرهق، فقلل العدد الواجب عليهم فجعله ضعف عددهم فقط. فإن زاد على ذلك فليس واجبا عليهم قتالهم – ونلاحظ وصف القرآن للمؤمن المقاتل بالصبر ليبين له أن الأمر ليس هينًا بل يحتاج إلى جهد وصبر وأما المؤمن الجزوع فلا قيمة له في القتال، ولا يأبه الله لخطابه – والله دائمًا مع الصابرين ينصرهم.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٥ – ٦٦].

ثم يعاتب الله رسوله على أخذه الفداء من الأسرى، وتركهم أحياء، فواجب النبي أن يقتل الكافرين الذين صدوا عن دين الله حتى يفل شوكتهم [وقد كان سعد ابن معاذ يحرس عريش الرسول مع نفر من الأنصار، فرأى المشركين يستأثرون للمسلمين فيأسرهم المسلمون. فظهر في وجهه الضيق مما رأى. فقال له النبي ﷺ: أكرهت هذا؟ قال: أجل، والله يا رسول الله كانت أول وقعة وقعها الله بأهل الشرك. فكان الإثخان(١) في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال فكان القرآن مطابقا لقوله] إن ما فعله المؤمنون يحمل معنى الحرص على ماديات

---

(١) المبالغة.

الحياة والله يريد من المسلم أن يكون حريصًا على الآخرة وثوابها – وقد مر بنا أن الرسول شاور أصحابه في أمر الأسرى فكان من رأي عمر قتلهم كما كان من رأي بعض الصحابة ذلك – ولكن الله عفا عن رسوله وعن المؤمنين، وبين لهم أن إرادته سبقت بأن تكون الغنائم حلالا للنبي وللمسلمين. ولولا ذلك لعذبهم الله بسبب هذا الفعل عذابا عظيما. ويدعوهم إلى أن يستمتعوا بما غنموا فهو حلال طيب، وعليهم أن يتقوا الله فهو الغفور الرحيم. ثم يطلب من رسوله أن يرشد الأسرى إلى الإيمان ويدعوهم إليه، وسيجزيهم الله عن إيمانهم بأن يعطيهم خيرا مما أخذ منهم من مال، ويغفر لهم ما اقترفوا من ذنوب قبل إسلامهم. وأما إذا أصروا على كفرهم، وفكروا في خيانة الرسول وقتاله بعد ذلك فليس هذا جديدا عليهم فقد خانوا الله من قبل بإشراكهم معه آلهة أخرى. فانتقم الله منهم بهزيمتهم يوم بدر. والله غالب على أمره، حكيم في تصرفه.

يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٧١].

ثم يختم الله السورة ببيان روابط الأخوة بين المهاجرين والأنصار، والدعوة إلى مقاطعة الذين لم يهاجروا حتى يهاجروا، وأن الكافرين بعضهم أولياء بعض، كما يذكر أن المهاجرين والأنصار هم المؤمنون حقا والذين يهاجرون بعد ويكونون مثلهم وأن جزاءهم عند الله مغفرة ورزق كريم.

في سورة آل عمران:

ورد الحديث عن غزوة بدر في موضعين من سورة «آل عمران». الموضع الأول: ذكرت في معرض تهديد اليهود بالهزيمة والقهر، ثم عذاب جهنم. ويدلل الله على قدرته بما صنعه في غزوة بدر حيث التقت فئتان: فئة مؤمنة تنصر دين الله، وأخرى كافرة. وقد ألقى الله الرعب في قلوب المشركين فجعلهم يرون المسلمين مثليهم في نظر العين، فأدى ذلك إلى هزيمتهم وإن في ذلك الأمر عبرة وعظة لمن يتأمل ويتدبر.

يقول تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢ – ١٣].

والموضع الآخر: ورد ذكر بدر في الحديث عن غزوة أحد ودعوة المسلمين إلى التوكل على الله فيذكرهم الله بنصره إياهم في بدر، وهم قلة ذليلة مستضعفة، ويدعوهم إلى تقوى الله فهي الأساس في النصر – كي يؤدوا واجب الشكر لله. ثم يذكر لهم موقفا من مواقف بدر حينما كان الرسول يطمئن المسلمين بأن الله سينزل عليهم ملائكة. أليس يكفيهم أن يمدهم الله بثلاثة آلاف ملك؟ هذا أمر محقق. بل لو صبروا واتقوا الله، وأتاهم الكفار من وقتهم هذا فسيمدهم الله بخمسة آلاف ملك ذي هيئة خاصة تميزه.

وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة إلا أن يكون بشرى للمؤمنين بالنصر، وليثبت به قلوبهم... وما النصر إلا بيد الله وحده فهو العزيز الحكيم. وقد أيد الله المؤمنين بالنصر ليذل الكافرين بالقتل والأسر والهزيمة ثم الرجوع إلى مكة خائبين.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ

تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣ – ١٢٧].

قد أخبر الله في سورة الأنفال أن عدد الملائكة ألف، وفي هذه السورة ذكر أنهم ثلاثة آلاف بل قد يصلون إلى خمسة آلاف. فكيف نوفق بين هذا؟ يقول المفسرون إن الله أمدهم بألف ثم بثلاثة آلاف ثم بخمسة آلاف. وأرى أن العدد يفيد الكثرة، ولا يفيد التحديد. فالرسول يطمئن أصحابه أن الله منزل عليهم ملائكة كثيرة يحسبون بالآلاف. وفي سورة الأنفال يخبر الله أنه سيمدهم بعدد كبير من الملائكة يقدر بالألف. فالألف في جميع الحالات كناية عن الكثرة الكثيرة.

خواطر حول الغزوة:

إن أحداث هذه الغزوة الحاسمة تثير في النفس خواطر عدة لعل أولها حرص الرسول ﷺ على أن يوضح الهدف دائما لأصحابه، وأن يستشيرهم، ويسمع لرأيهم. فعندما أراد الرسول الخروج كان الهدف محددا وهو الاستيلاء على عير قريش. فلما تغير الهدف استشار أصحابه، وألح في الاستشارة وكان يكرر قوله: أشيروا علي أيها الناس، حتى تأكد من إجماعهم على المضي إلى الهدف الجديد وهو القتال. ومعنى هذا أن الرسول لم يكن قائدا مستبدا برأيه بل كان دائم الاستشارة لأصحابه كما فعل في أسارى بدر. كذلك كان يسمع لرأيهم، فقد استجاب لرأي الحباب بن المنذر في موقع المعركة، واستجاب لرأي سعد بن معاذ في بناء العريش.

النفس البشرية يتجلى فيها الحرص على المال والحرص على الحياة. وقد ظهر

الأمران في هذه الغزوة. فالحرص على المال اتضح في ذهاب المسلمين لمصادرة العبر كما اتضح في اختلافهم على تقسيم الغنائم كل فريق يرى أحقيته في النصيب الأكبر منها وأما الحرص على الحياة فقد صوره الله خير تصوير عندما ذكر جدالهم للرسول حول قتال المشركين بعد إفلات العير منه، ورغبتهم في عدم القتال وعندما تأكد أمر القتال ذهبوا إليه ثقالا كأنه يساقون إلى الموت وهم يرونه بأعينهم. لقد كانوا يتمنون المال لا الموت.

هذه الأمور من طبيعة النفس البشرية. ولكن شتان ما بين هذه الفئة المؤمنة وبين غيرها من البشر الذين لا يؤمنون بعقيدة في مواجهة الموقف. لقد استجابت الفئة المؤمنة سريعا إلى أمر القائد. فلم يفكر أحد منهم في تركه بعد اليأس من العير، بل إزعنوا لأمره. وسرعان ما اندمجوا في القتال، ونسوا كل شيء يتعلق بالدنيا ودخلوا المعركة راغبين في الموت لينالوا أجر الله وظهرت منهم البطولات التي ذكرت أمثلة لها .. ولما اختلفوا على الغنائم لم يستمر خلافهم إلا ريثما يصدر الرسول أمره بقَسْمِها على السواء. وهذا هو تأثير الإيمان الصادق في الغرائز البشرية.

قد تجلى في هذه الغزوة إجماع المسلمين على حب الرسول وحمايته من كل سوء لأنه صاحب الدعوة، وفي بقائه بقاء للدعوة. فليجنبوه إذن كل تعرض لسهام الأعداء، وليبنوا له عريشا، وليعدوا له ركائب تحمله إلى المدينة لو هزم المسلمون.

خاطر أخير، إن الله سبحانه وتعالى كان يوجه هذه الفئة المؤمنة أولا بأول يسدد خطاها، ويعاتبها على أي تقصير يحدث. وأول من يعاتبه هو رسوله كما فعل في شأن الأسرى عندما ذكر لهم صراحة أنهم حريصون على الدنيا أكثر من حرصهم على الآخرة. وعاتب نبيه قائلاً: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض» كما صور الكارهين للقتال في هذه الصورة الحسية «كأنما

يساقون إلى الموت وهم ينظرون». ولكن الله كان يطمئنهم دائما إلى مغفرته لهم، وتجاوزه عن سيئاتهم.

فإذا كانوا أخطئوا في أمر الأسرى فالله غفور رحيم. ولهم أن يأكلوا من الغنيمة حلالا طيبا. وما ذلك إلا لأن الله يريد أن يربي هذه الفئة حتى تكون الطليعة التي يُقْتَدَى بها، والمثل الذي يُحْتذَى.



إجلاء بني قينقاع عن المدينة

كان لغزوة بدر، وانتصار المسلمين فيها دوي كبير بالمدينة؛ فقد شعر اليهود أن محمدا بدأ يقوى، وأن سلطانه في المدينة أخذ يتعاظم، وعليهم أن يحاولوا الكيد له. ولكن كيف؟ وليس لديهم طاقة به وبأصحابه، فلجئوا إلى الحرب الدعائية. وكان الشعر – وهو سلاح مثير – وسيلتهم في ذلك. فأخذ شعراء من العرب واليهود بل شاعرات أيضا يرسلون شعرهم المسموم ليثيروا الفتنة بين المسلمين وبين غيرهم من الطوائف، ويهجموا محمدا وأصحابه. وقد استفز هذا الشعر بعض المسلمين فقتل بعضهم. وكان من أهمهم كعب بن الأشرف اليهودي الذي نشط في استخدام الشعر ضد المسلمين، وذهب إلى مكة، ورثى قتلاهم في بدر وحرضهم على حرب محمد والمسلمين. وقد قال – حين بلغه خبر انتصار المسلمين ومقتل أشراف قريش: أحق هذا؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يُسَمى هذان الرحلان – يعني الرجلين اللذين سمع منهما الخبر؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. وقد استاء المسلمون جميعا من أقواله، وأجمعوا على قتله. فاستأذن بعض المسلمين النبي في قتله، فأذن لهم، فاحتالوا حتى أخرجوه من حصنه [وكانت اليهود تقيم في أماكن منعزلة عن الأنصار يسمى الواحد منها حصنا أو أطما وجمعه آطام] وبعد أن سار معهم قليلا قتلوه. [وكيف نبرر هذا القتل في غير معركة؟ إن تبريره سهل فقتل مثل هذا الإنسان واجب، فهو مثير للفتن وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾.

زاد هذا الحادث في مخاوف اليهود من الرسول وصحبه، ولكنهم لم يسكنوا عن الاستهزاء بالمسلمين، وإلحاق الأذى بهم كلما استطاعوا حتى وقعت حادثة من يهود بني قينقاع دفعت الرسول إلى إجلائهم عن المدينة. فقد كان لبني قينقاع سوق، فقد كانوا تجارا وصاغة ذهب. فذهبت امرأة مسلمة لشراء بعض حاجاتها

من هذه السوق. وكانت مغطاه الوجه، فطلب منها بعض اليهود أن تكشف عن وجهها فأبت. فاحتالوا عليها حيلة دنيئة تبين خبث معدنهم، ومدى كرههم للمسلمين واحتقارهم إياهم. فقد شبك أحدهم ذيل ثوبها في أعلى ظهرها دون أن تدري. فلما قامت انكشفت عورتها فأخذوا يضحكون. رأى هذا المنظر أحد المسلمين فقتل اليهودي الذي فعل ذلك فاجتمع عليه اليهود فقتلوه. حادثة كفيلة أن تثير في نفس العربي المسلم أشد الحنق فقد انتهك شرف نسائهم جميعا متمثلا في هذه المرأة. وعلم الرسول ﷺ بالأمر، وبمقتل المسلم. فقرر مواجهتهم، لقد غدروا، ونقضوا العهد ولم يكتفوا بالقول، بل تجاوزوه إلى الفعل، والفعل الخسيس.

حاصرهم رسول الله ﷺ في حصونهم خمسة عشر يوما، حتى اضطروا للتسليم، والنزول على حكم رسول الله. فأراد قتلهم – وكانوا حلفاء لعبد الله بن أبي في الجاهلية وهو كما نعلم رأس المنافقين، كما كانوا حلفاء لعبادة بن الصامت المؤمن الصادق الذي سارع إلى التبرؤ منهم – فقام عبد الله بن أبي إلى الرسول فقال: يا محمد أحسن إلى مواليّ. فأعرض عنه الرسول. فكرر قوله فأعرض عنه الرسول ثانية. فأدخل يده في جيب درعه – أي في طوقه – فقال له الرسول: أرسلني. وظهر الغضب في وجهه. قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي: أربعمائه حاسر – لا يلبس درعا – وثلاثمائة دارع – يلبس درعا – قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر. وكان عبد الله ذا سلطان في المشركين من الأوس والخزرج. وجاء عبادة ابن الصامت إلى الرسول ورجاه أن يسدي إلى عبد الله هذه اليد وإلى مشركي الأوس والخزرج المحالفين لليهود حتى يصبحوا مدينين لإحسانه. على أن يجلو بنو قينقاع عن المدينة عقابا لهم. وقد حاول عبد الله بن أبي أن يتحدث إلى الرسول في أمر بقائهم. ولكن أحد المسلمين حال بين ابن أبي وبين الرسول فتشاجرا

وشبح ها المسلم عبد الله. فقالت بنو قينقاع: والله لا نقيم ببلد تشج فيه يا بن أُبيّ ولا نستطيع عنك دفاعا. وارتحلوا تاركين وراءهم السلاح وأدوات الذهب التي كانوا يصوغون. وذهبوا إلى وادي القرى.

وأنزل الله في هذه الحادثة آيات في سورة المائدة تنهى المسلمين عن أن يتخذوا من اليهود والنصارى حلفاء. فحلف اليهود والنصارى يكون بينهم فهم ملة واحدة، وأما من يتولاهم من المسلمين فقد خرج عن دينه، وأصبح مثلهم. ثم يذكر الله مقولة عبد الله إنه يخشى الدوائر، ويعقب عليها بأن نصر الله آت وحينئذ يندم المنافقون.

يقول تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة: ٥١ – ٥٢].

ويقرر الله لمن يكون الولاء؟ الولاء للمسلم الحق – ويشير بذلك إلى موقف عبادة بن الصامت – يكون لله ورسوله والذين آمنوا الذين يؤدون فرائض دينهم من صلاة وزكاة وركوع. وهؤلاء هم الحزب الغالب.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة: ٥٥- ٥٦].

غزوات وسرايا:

بعد عودة الرسول ﷺ منتصرا من بدر، أحس العرب جميعا بعلو مكانته ولكن داخلهم الخوف من قوته، فهم لم يؤمنوا وليس لديهم نية الإيمان، فخشوا بأسه فكانوا يدبرون له المكايد، ويحاولون أن يغيروا على أطراف المدينة. ولكن كان الرسول دائما يبطل كيدهم بمسارعته للقائهم فيفرون منه. وقد قاد الرسول عدة

غزوات منها:

غزوة بني سليم بالكدر التي لم يجد فيها أحدا منهم ولم يلق كيدا. وغزوة السويق. فقد حاول أبو سفيان أن يبر يمينه التي أقسمها بألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا فخرج في مائتي راكب من قريش وصلوا إلى ناحية من المدينة يقال لها العريض فقتلوا رجلين من المسلمين وجدوهما فيها، وحرقوا بيتين وبعض النخيل. ثم انصرفوا راجعين. فعلم الرسول بهم فخرج إليهم فلم يدركهم، ووجد كثيرا من زادهم ألقوه على الطريق ليتخففوا من أحمالهم وكان سويقا فسميت الغزوة بهذا الاسم. وكانت ضربة ثانية لقريش فلم يستطيعوا أن يواجهوا محمدا بل فروا منه.

وقد أدركت القبائل العربية القريبة من المدينة أن انتصار الرسول على قريش في بدر، وسيطرته على الساحل حيث عقد أحلافا مع القبائل القريبة منه – سيحول دون قريش والقيام برحلة الصيف إلى الشام التي كانت تمر بالقرب من المدينة، وكانوا يستفيدون من خِفارتها. وخشي الرسول من أن تغير هذه القبائل على المدينة. وهي قبائل غطفان فخرج إلى مكان يعرف بقرقرة الكدر ليأخذ عليهم الطريق فلم يجد إلا أنعامهم وعرف أنهم ذهبوا إلى الماء فاستاق أنعامهم وكانت خمسمائة بعير. قسمها كما نص القرآن الخمس لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فأخذ لهذا الغرض مائة بعير، وأصاب كلَّ مسلم منها بعيران.

ولعل أهم نصر في هذه الفترة ما حققته سرية زيد بن حارثة عند القردة – ماء من مياه نجد – وذلك أن قريشا أصابها ارتباك شديد بشأن تجارتها لا تدري كيف تذهب بها إلى الشام فاقترح أحدهم أن يأخذوا طريق العراق إلى الشام، ودلهم على رجل خبير بهذا الطريق فأعدوا تجارتهم التي بلغت قيمتها مائة ألف درهم وساروا بها في هذا الطريق. وكان في مكة في هذا الوقت رجل من المدينة عرف هذا الخبر

فلما عاد إلى المدينة أخبر به. فبلغ الخبر الرسول الذي كلف زيد بن حارثة قيادة سرية بها مائة مسلم، واستطاعوا أن يحاصروا القافلة ويستولوا على كل ما فيها.



غزوة أحد (شوال ٣هـ)

تناول القرآن الكريم وصف بعض أحداث هذه الغزوة فيما يقرب من ستين آية من سورة آل عمران. ولم يهتم القرآن بترتيب أو تفصيل هذه الأحداث كعادته بل عني بالدروس والعبر التي يربى الله بها المسلمين. سأذكر أولًا تفصيلات هذه الغزوة ثم أذكر الآيات المتصلة بالغزوة مباشرة.

قريش تعد للثأر:

بعد هزيمة قريش المنكرة في بدر، وعودتهم إلى مكة مقهورين، كان الغيظ يغلي في صدورهم، والرغبة في الانتقام تملأ نفوسهم. فمشى جماعة من أكابرهم إلى أبي سفيان قائد العير، وكذلك إلى من كانت لهم في العير تجارة. وقالوا لهم: إن محمدا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك من ثأرنا بمن أصابوا منا». فوافقوا ورصدت أموال القافلة للإعداد للثأر.

وقد أنزل الله في هذه المحاولة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الأنفال: ٣٦].

وأخذت قريش تعد عدتها للحرب، وضمت إليها الأحابيش – وهم من يقيمون حول مكة – ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة. وأخذوا يجندون كل من يكون ذا نفع لهم في حربهم ماديا أو معنويا. كما فعل صفوان بن أمية مع أبي عزة الشاعر الذي منَّ عليه رسول الله يوم بدر، وعاهده ألا يظاهر عليه. فما زال صفوان يعزيه بالمال حتى استجاب له، وأخذ يحرض على حرب الرسول، وكما فعل جبير بن مطعم مع غلامه الحبشي وحشي الذي كان يقذف بحربة له قذف الحبشة فلما يخطئ بها. فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد

بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق. وخرج أحدهم إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب الرسول ﷺ.

وقرروا أن يأخذوا معهم النساء ليثيروا حميتهم، ويحملوهم على الثبات في المعركة حفاظًا عليهن. وقد اعترض بعضهم على فروجهن خوفا عليهن. ولكن هند بنت عتبة التي قتل أبوها وأخوها وعمها في المعركة ردت عليهم ردا عنيفا. فاستقر الرأي على خروجهن.

خرجت قريش في جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل، وقد أخذوا معهم من العدة والسلاح الشيء الكثير. وقادوا مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير ومن بينهم سبعمائة يلبسون الدروع.

الرسول يبلغه الخبر ويستشير أصحابه:

كان يقيم بمكة العباس بن عبد المطلب، وكان على دين قومه، ولكنه كان متعاطفا مع ابن أخيه محمد – كما رأينا من موقفه في بيعة العقبة – فكتب كتابا إلى الرسول وأعطاه إلى رجل من قبيلة غفار وكان بمكة ليسلمه إلى الرسول. ففعل. وعرف الرسول أنهم اقتربوا من المدينة فأرسل بعض أصحابه لاستطلاع الخبر فأكدوه له وأنهم قريبون من المدينة فخشى الأوس والخزرج عاقبة هذه الغزوة. وبات جمع كبير بالمسجد ومعهم السلاح خوفا على الرسول. وحرست المدينة كلها طوال الليل. فلما أصبحوا جمع الرسول أهل الرأي من المسلمين – وكان من بينهم منافقون – ليتشاوروا كيف يلقون عدوهم.

وقال الرسول في بداية الاجتماع: «إني قد رأيت والله بقرا لي تذبح، ورأيت في ذباب – حد سيفي ثلما – كسرا – ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة.

فأما البقر فأناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل، وأما الدرع الحصينة فهي المدينة [وواضح أن سرد الرسول لهذه الرؤيا ليبين لأصحابه خطورة الموقف وأن شرًّا سيصيبهم، وأن

الذي يحميهم من كل هذا هو البقاء في المدينة]. فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا. فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وأيد هذا الرأي عبد الله بن أبي ابن سلول – رأس المنافقين – فقال: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا عدد إلا أصبنا منه فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة. وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج. ولكن رجالا من المسلمين ممن فاتهم حضور بدر كانوا متحمسين للخروج إليهم ليقاتلوهم. فقالوا للرسول: اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا، ويرجعون إلى قومهم فيقولون: حصرنا محمدا في صياصي[١] يثرب وأطامها[٢] فتكون هذه مُجَرئة لقريش. وتحمس كثير من الحاضرين لهذا الرأي فلما رأى كثرتهم على هذا الرأي نزل على رأيهم. ودخل بيته ليهيىء نفسه للحرب فلبس سلاحه ودرعه. وكان الناس في أثناء غيبته في جدل يتحاورون. فقال بعضهم ممن كان يرى عدم الخروج لمن كان يحبذ الخروج: لقد رأيتم رسول الله ﷺ يرى التحصن بالمدينة فقلت ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره. فردوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه. وما رأيتم له فيه هوى أو رأيا فأطيعوه». فوافقوا على هذا الرأي خاشين أن يكونوا خالفوا الرسول إلى أمر له فيه آية. فلما خرج إليهم النبي لابسا درعه متقلدا سيفه أقبلوا عليه قائلين: «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدا لك وما كان لنا أن نستكرهك فالأمر لله ثم إليك». قال الرسول قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، وما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته[٣]

---

(١) حصون.

(٢) منازل محصنة.

(٣) سلاحه.

أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه انظروا ما أمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم». وهكذا حسم الرسول الأمر.

خرج الرسول ﷺ بمن معه من المسلمين، وكان جيشه يقارب الألف، بعضهم من المنافقين على رأسهم عبد الله بن أبي. وفي أثناء الطريق انضمت إليهم كتيبة لم يعرف الرسول هويتها. فسأل عن ذلك. فقيل له: إنهم حلفاء عبد الله ابن أبي من اليهود. فرفض الرسول ضمهم إلى الجيش قائلا: لا يقاتل معنا غير مسلم فأخذ اليهود يحرضون عبد الله بن أبي على العودة إلى المدينة قائلين له: لقد رفض رأيك وأطاع الغلمان الذين معه. وصادف حديثهم هوى من نفسه. فلما أصبحوا انخذل مع كتيبة من أصحابه. وقال: أطاعهم وعصاني. ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ فذهب إليهم أحد مسلمي الأنصار وقال لهم: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم. فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم. وأصروا على موقفهم.

الإعداد للقتال وتحريض الرسول المؤمنين:

مضى رسول الله حتى نزل عند جبل أحد، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد. وقال: لا يقاتلن أحد منكم حتى آمره بالقتال. واختار خمسين رجلا جعلهم على الجبل ليكونوا رماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير. وقال له: انضح[1] الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك. ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وقد انضم إلى الجيش عدد من صبيان المسلمين فكان الرسول لا يقبل إلا سن بلغ خمس عشرة ويرد مَن دون ذلك. وكان الرسول يحرض المؤمنين، ويملؤهم شجاعة بما يذكر لهم من وعد الله له بالنصر وقال رسول الله ﷺ من يأخذ هذا السيف بحقه فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام

---

(١) ارمها.

إليه أبو دجانة سماك بن فرشة من بني ساعدة فقال: وما حقه يا رسول الله قال أن تضرب به العدد حتى ينحني. قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة معروفا بالشجاعة، وكانت له عصابة حمراء إذا لبسها علم الناس أنه سيفعل الأعاجيب في القتال. فلبسها ومشى يتبختر، وكانت هذه عادته عند بدء القتال.

فقال الرسول: إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن. وقد كان أبو دجانة عند وعده فعندما احتدم القتال كان لا يلقى أحدا إلا قتله. وكان شعار المسلمين يوم أحد: أمِتْ – أَمِت.

وتعبأت قريش للقتال، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل. وأخذ أبو سفيان، يحرض المشركين على القتال، ويحث أصحاب اللواء من بني عبد الدار على ألا يفعلوا ما فعلوا ببدر فيتخلوا عن اللواء ويفروا. فإنما يُؤْتَي المحاربون من قبل راياتهم إذا زالت زالوا. فوعدوه بأنهم لن يتخلوا أبدا عنه.

وكانت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان تقود النسوة ويضربن بالدفوف خلف الرجال ليحمسنهم للقتال وكانت تشجع أصحاب اللواء من بنى عبد الدار قائلة ومعها نساؤها.

وَيْهًا بنى عبد الدار وَيْهًا حماة الأدبار
ضربا بكل بتار

وكن يقلن للرجال المقاتلين من أزواجهن:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

بدء القتال:

وكان أول من بدأ القتال أبو عامر الفاسق واسمه عبد عمرو بن صيفي من مشركي الأوس الذين لم يؤمنوا، وترك المدينة وذهب إلى مكة ومعه عدد من الغلمان من الأوس، يختلف كتاب السيرة في عددهم فبعضهم يقول: خمسون، وبعضهم يقول: خمسة عشر. وكان أبو عامر هذا يلقب بالراهب. فسماه الرسول: الفاسق. وكان يعد قريشا أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم اثنان. فلما التقى الناس كان هو أول من لقيهم ومعه غلمانه والأحابيش وعبيد أهل مكة. فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق. فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم نشب القتال بينهم، وقاتلهم المسلمون بشجاعة، ورشقوهم بالحجارة حتى ولى أبو عامر ومن معه مدبرين. ودخل حمزة المعركة وهو يصيح صيحة الحرب «أمت – أمت» واندفع إلى قلب جيش قريش. وطلب طلحة بن أبي طلحة المبارزة.

فبرز له علي بن أبي طالب ففلق رأسه. وكبّر النبي وكبر المسلمون. واندفع أبو دجانة يشق صفوف المشركين، ويقتل منهم. وبينما هو كذلك رأى إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا، فحمل عليه بالسيف فولول. فإذا هند بنت عتبة فارتد عنها مكرما سيف رسول الله أن يضرب به امرأة.

مقتل حمزة:

كان حمزة بن عبد المطلب من أشجع العرب، وكان لا يصادف أحدا في غزوة بدر إلا قتله. وكان ممن قتل عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وهما أبو هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأخوها. كما قتل طعيمة بن عدي عم جبير بن مطعم. وكان وحشي عبده – كما ذكرت – فوعده إن قتل حمزة أعتقه. كما وعدته هند أنه إن قتل حمزة فستجزل له العطاء. وما ذاك إلا لشهرته في رمي الحربة التي لا تخطئ أحدا اتجهت إليه. فيروي وحشي عن قتله قائلا: والله إني لأنظر إلى حمزة يهدّ الناس

بسيفه ما يبقى على أحد مثل الجمل الأورق، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فضربه حمزة فقتله. وهززت حربتي حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه. فوقعت أسفل بطنه حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي، فغلب فوقع، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي. ثم تنحيت إلى العسكر، ولم تكن لي بشيء حاجة غيره.

وقاتل المسلمون قتالًا شديدًا، وأظهروا من ألوان البطولة ما سأذكره بعد، وكان دافعهم الأول إلى الاستبسال حبهم لله ورسوله، وإيمانهم القوي الصادق بدعوة الإسلام فكانوا لا يبالون قلة عددهم أمام كثرة عددهم الذي يبلغ جنده خمسة أضعافهم؛ فهم يعلمون أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

بل لقد قاتل بعض المنافقين بشجاعة نادرة، ولكن لم يكن الإيمان دافعهم، وإنما خوفهم على بلدهم المدينة أن يدخلها الأعداء مثل «قزمان» الذي تخلف عن الخروج يوم خرج المسلمون إلى أحد. فلما أصبح عيره نساء قومه ووصفوه بأنه امرأة، فلبس سلاحه وخرج وقاتل قتالا شديدا، وأعجب المسلمون بشجاعته، وأخبروا بها رسول الله فقال: هو في النار إنه منافق. وقد صدق رسول الله فلم ينته النهار حتى أصابته جراحة لم يصبر لها فقتل نفسه.

ومر به أحد المسلمين – وهو يسلم الروح – وظن أنه قتل في المعركة. فقال له: هنئيًا لك الشهادة يا قزمان. فقال قزمان: إنني والله ما قاتلت على دين. ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمنا، وتطأ زروعنا، والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي. ولولا ذلك ما قاتلت.

ولكن قزمان هذا فرد لا يتكرر، وإذا تكرر فاثنان أو ثلاثة، ولكن سائر الجند يقاتلون حمية لله وللرسول وللدين، وتراجع أمامهم أبطال قريش الذين كانوا مضرب المثل في الشجاعة، وكان لواؤهم لا يسقط من يد حامله حتى يأخذه من

خلفه. وتعاقب حملة اللواء من بني عبد الدار حتى قتل منهم تسعة كان آخرهم غلام حبشي لهم اسمه صؤاب. وقد ضربه قزمان على يده اليمنى، فتناول اللواء بيده اليسرى، فقطعها قزمان بسيفه، ثم حنى عليه بظهره وهو يقول: يا بني عبد الدار، هل أعذرت. ثم قتله سعد بن أبي وقاص. فلما قتل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء، حتى أحيط بنسائهم. يقول الزبير: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم[١] هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل أوِ كثير». وحتى وقع الصنم الذي احتملوه معهم تيمنا من فوق الجمل الذي كان يحمله.

تحول نصر المسلمين إلى هزيمة:

فر المشركون أمام المسلمين، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى بعدوا عن معسكرهم. فجعل المسلمون ينتهبون الغنيمة، وكانت كثيرة، وانشغلوا بها عن اتباع عدوهم. ورآهم الرماة الذين أمرهم الرسول إلا يبرحوا أماكنهم ولو رأوه وأصحابه يقتلون. فقال بعضهم لبعض: «لم تقيمون هاهنا في غير شيء، وقد هزم الله عدوكم، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون معسكرهم، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين». فقال لهم أميرهم عبد الله ابن جبير: «ألم يقل لكم رسول الله ﷺ: لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا؟» فقال بعضهم: لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين». وخالف أكثر الرماة أمر أميرهم، كما خالفوا عن أمر رسول الله، وانطلقوا ولم يبق مع عبد الله بن جبير إلا نفر دون العشرة، واشتركوا في جمع الغنائم كما اشترك سائر المسلمين فيها، حينئذ انتهز خالد بن الوليد الفرصة – وكان كما عرفنا قائد فرسان المشركين – فشد برجاله على مكان الرماة فأجلاهم عنه. ولم يفطن المسلمون لفعله لأنهم شغلوا عن

---

(١) خلخالها.

كل شيء بهذه الغنائم التي يجمعونها. ولم ينتبهوا إلا لصيحة خالد بن الوليد على جيش المشركين أن يعودوا. فعاد منهم كل منهزم، فأثخنوا المسلمين ضربًا وقتلًا. فألقى كل مسلم ما كان بيده مما أخذ، وعاد إلى سيفه ليقاتل به، ولكن بعد فوات الأوان. فقد صاروا يقاتلون بغير خطة ولا قيادة بعد أن تخلوا عن رسول الله، فأصبحوا يضربون على غير هدى. حتى لقد قتلوا بعض المسلمين، وهو حسيل ابن جابر أبو حذيفة بن اليمان. وحاول ابنه حذيفة أن ينبه قاتليه إلى أنه مسلم، ولكن كان قد قتل، وقال من قتله: والله ما عرفناه. وصدقوا. فقد كانوا في دهشة لا يعرفون ما يصنعون.

وصرخ صارخ: ألا إن محمدا قد قتل، فازدادت الفوضى وعمت البلية. وحينما سمعت قريش بمقتل الرسول تدافعت تدافع السيل إلى الناحية التي هو فيها. فأحاط المسلمون به من كل ناحية يحمونه، وأخذت قريش تقذف بالحجارة، فأصابت الرسول فوقع لشقه فأصيبت رباعيته[١]، وشج في وجهه، وجرحت شفته، ودخلت حلقتان من المغفر الذي يستر به وجهه في وجنته. وتمالك الرسول وسار وأصحابه من حوله فإذا به يقع في حفرة حفرها أبو عامر ليقع المسلمون فيها. فأسرع إليه علي بن أبي طالب فأخذ بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى وجعل يسير بين أصحابه متسلقين أحدا للنجاة من العدو الذي كان يتبعهم. واجتمع حول الرسول فريق من أصحابه، واستماتوا في الدفاع عنه استماتة لا يقهر صاحبها. وقد ظن أبو بكر وعمر أن محمدا قد مات فانتحيا ناحية من الجبل مع بعض المؤمنين وجلسوا يكاد يقتلهم الحزن واليأس. فمر عليهم أنس بن النضر فقال: ما يجلسكم؟ قالا قتل رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه نبيكم ثم استقبل القوم فقاتل قتالا

---

(١) السن التي بين الثنية والناب.

شديدا، وأبلى بلاء منقطع النظير حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضُرِب سبعين ضربة، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه.

فرحت قريش بشائعة موت محمد، وظنتها حقيقة. وأخذ أبو سفيان ينادي: محمد. محمد، يا أبا بكر، يا عمر. فأمر الرسول بعدم الرد عليه. فقال أبو سفيان لأصحابه أما هؤلاء فقد كفيتموهم. ولكن كعب بن مالك الأنصاري أقبل إلى ناحية المحيطين بالرسول فعرف الرسول حين رأى عينيه تزهران تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا. هذا رسول الله. فأشار إليه ليسكت. لكن المسلمين ما لبثوا حين عرفوا أن نهضوا بالنبي، ونهض معهم نحو الشعب. وقد سمع المشركون أيضا الصيحة، ولكن أكثرهم لم يصدقها، وظنوا أنهم يفعلون ذلك لرفع الروح المعنوية لدى المسلمين. إلا أن بعضهم اندفع وراء النبي والذين معه، وعلى رأسهم أبي بن خلف الذي أدرك المسلمين وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا. فقال المسلمون: يا رسول الله: أيميل عليه رجل منا [فيقتله] فقال الرسول: دعوه فلما دنا تناول رسول الله حربة؟ ثم استقبله فطعنه بها في عنقه طعنة كاد يسقط منها عن فرسه. فلما رجع إلى قريش قال: قتلني والله محمد. فقالوا له: ذهب والله فؤادك. ما بك من بأس. قال: إنه قد كان قال لي في مكة. أنا أقتلك. فوالله لو بصق علي لقتلني. فمات بعد أيام قليلة.

فلما انتهى المسلمون إلى فم الشعب خرج علي فملأ درقته ماء، فغسل النبي به الدم عن وجهه، وصب منه على رأسه، ونزع أبو عبيدة بن الجراح حلقتي المغفر من وجه الرسول فسقطت ثنيتاه. ولكنهم فوجئوا بخالد بن الوليد يصعد – على رأس فرسان له – إلى الجبل فقاتلهم عمر بن الخطاب، وجماعة من أصحاب الرسول فردوهم. وازداد المسلمون تصعيدا في الجبل، وقد أنهكهم التعب، وهدهم الجهد. حتى صلى النبيﷺ الظهر جالسا من الجراح التي أصابته. وصلى المسلمون خلفه جلوسا.

كان لانتصار قريش في أحد فرحة طاغية ملكت عليهم نفوسهم، فقد ظنوا أنهم ثأروا لبدر. وقال أبو سفيان معبرا عن فرحته وهو يخاطب المسلمين: يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل. وقد كان فعل هند بنت عتبة زوج أبي سفيان صورة للتشفي والانتقام الأعمى. فقد انطلقت هي والنساء اللائي معها يمثلن بالقتلى من المسلمين فيجدعن الآذان والأنوف، ويجعلن منها قلائد وأقراطا. وقد بحثت هند عن حمزة فلما رأت جثته بقرت بطنه، وأخرجت كبده، وأرادت أن تأكلها، ولكنها لم تستسغها فلفظتها، وقد شارك الرجال أيضا في التمثيل بالقتلى. وقد أشار أبو سفيان إلى هذا الأمر مبينا عدم مسئوليته عن ذلك. وإن كان لم يعبر عن أسفه ذلك فقد قال: إنه كان في قتلاكم مثلة. والله ما رضيت وما سخطت، وما أمرت وما نهيت.

وحزن رسول الله ﷺ على حمزة حزنا شديدا. فقد خرج بعد المعركة يلتمسه في القتلى. فلما رآه وقد بقر بطنه، وأخرج كبده، وقطع أنفه وأذناه. فقال: لن أصاب بمثلك أبدا. ما وقفتُ موقفا أغيظ إليَّ من هذا. لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير. ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم. فلما رأى المسلمون حزن رسول الله وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب. ولكن الله لم يرض عن هذا الفكر فأنزل قرآنا ينهي عن ذلك، ويقرر أن العقاب يكون بالمثل: واحد بواحد. والصبر خير.

يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٦].

فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة.

ثم أمر رسول الله أن يدفن الشهداء كما هم فلا يغسلوا ولا يكفنوا. وإنما يصلى عليهم فقط. فوضع حمزة أمامه فصلى عليه. ثم كان يؤتي بالشهداء واحدا واحدا فيوضع بجوار حمزة فيصلى عليهما. فصلى على حمزة سبعين صلاة بعدد الشهداء.

ودفن الشهداء في أماكنهم. وكان قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فنهى الرسول عن ذلك. وقال: ادفنوهم حيث صرعوا. وقد قال ﷺ لما أشرف على القتلى يوم أحد: إنه ما من جريح يجرح في الله إلا ويبعثه الله يوم القيامة يدمي جرحه اللون لون الدم، والريح ريح مسك. انظروا أكثر هؤلاء جمعا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر. وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد.

من صور البطولة الإسلامية في غزوة أحد:

لقد تجلت في غزوة أحد صور من بطولات المسلمين ندر أن توجد في معركة من المعارك وما ذلك إلا لأن الإيمان بالله الواحد كان مسيطرًا على نفوس المسلمين، ولولا المخالفة التي نشأت عن حسن نية، وسوء رأي لسجل المسلمون في أحد نصرًا لا يقل عن نصرهم في بدر. ولكن الله أراد ذلك ليمحص الذين آمنوا. وقد ذكرت في أثناء الحديث عن الغزوة بعض مظاهر البطولة، وأضيف إليها نماذج أخرى تجلت في حماية الصحابة للرسول بعد الهزيمة وفي حبهم للنبي، وفي رغبتهم في الاستشهاد.

فمن ذلك موقف أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية فقد وقفت تقاتل عن رسول الله ﷺ قتالا شديدا. وقد ضربت عمرو بن قميئة بسيفها ضربات عدة، ولكن وقيه درعان كان يلبسهما. وضربها هو بالسيف فجرحها جرحًا شديدًا. وكان أبو دجانة يقف أمام الرسول حاميًا الرسول، وظهره معرض للنبل. فكان النبل يقع فيه ولا يتحرك. وكان طلحة بن عبيد الله يرجع سريعًا إلى رسول الله، ويقف دونه وحده حتى يسقط من الضربات التي تصيبه. قال أبو بكر لما كان يوم

أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ فكنت أول من فاء إلى الرسول فرأيت بين يديه رجلا يقاتل عنه ويحميه. فتمنيت أن يكون طلحة. ثم أدركني أبو عبيدة بن الجراح حتى لحقني. فدفعنا إلى النبي ﷺ فإذا طلحة بين يديه صريعًا[(١)] فقال ﷺ «دونكم أخاكم فقد أوجب»[(٢)]. وقد رُمِي النبي ﷺ في وجنته حتى غابت حلقة المغفر في وجنته، فذهبت لأنزعها فقال أبو عبيدة نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتني أنزعها. ثم أخذ يعالجها برفق كي لا يؤذي الرسول حتى نزعها وسقطت معه ثنيته، وأردت أن أنزع الأخرى. فقال لي مثلما قال قبل. وعالجها حتى نزعها وسقطت معها ثنيته الأخرى. ثم قال رسول الله أدركوا أخاكم فقد أوجب. فأقبلنا على طلحة نعالجه وقد أصابته بضع عشرة ضربة.

وقال زيد بن ثابت بعثني رسول الله يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فجعلت أطوف بين القتلى وهو بآخر رمق، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح، وضربة سيف فقلت له: إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: كيف تجدك؟ فقال: وعلي رسول الله السلام. قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة. وقل لقومي من الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى رسول الله، وفيكم عين تطرف. وفاضت نفسه من وقته.

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه. فقال: يا فلان، أشعرت أن محمدا قتل. فقال الأنصاري: إن كان محمد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم.

وكانت امرأة أنصارية من بني دينار نُعِيَ لها زوجها وأخوها وأبوها. فسألت: فما فعل رسول الله؟ قالوا خيرًا يا أم فلان. هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه

---

(١) ساقطا.

(٢) عمل عملا وجبت له من أجله الجنة.

حتى أنظر إليه، فأشير إليه – وكان على مقربة منها- حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعد رسول الله جلل – تريد صغيرة – [الجلل يطلق على العظيم والحقير فهو من أسماء الأضداد].

وقال أبو خيثمة الأنصاري – وكان ابنه قد استشهد يوم بدر: لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت عليها حريصًا، حتى ساهمت [(١)] ابني في الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة. وقد رأيت ابني البارحة في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها يقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا وقد – والله يا رسول الله – أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني ورقَّ عظمي وأحببت لقاء ربي. فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد – ابنه – في الجنة . فدعا له رسول الله فقتل بأحد شهيدا.

وقال عبد الله بن جحش في يوم أحد: اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو فيقتلوني ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي وأذني. ثم تسألني: فيم ذلك؟ فأقول فيك.

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا. فلما توجه الرسول إلى أحد أراد أن يتوجه معه. فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة. فلو قعدت ونحن نكفيك. وقد وضع الله عنك الجهاد. فأتى عمرو رسول الله. فقال: يا رسول الله، إن بني هؤلاء يمنعونني من أن أخرج معك. والله إني لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد. وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة؟ فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا.

---

(١) أجريت قرعة: أينا يخرج.

العودة إلى المدينة وحمراء الأسد:

لما انتهت المعركة، نادى أبو سفيان – وهو منصرف ومن معه – إن موعدكم بدر للعام القابل. فقال الرسول لرجل من أصحابه: قل: نعم. هو بيننا وبينكم موعد. ثم بعث رسول الله على بن أبي طالب، فقال: اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون: فإن كانوا قد جنبوا الخيل. وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة. وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم. قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون. فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة.

فانصرف رسول الله ﷺ راجعا إلى المدينة. فلقيته حمنه بنت جحش فلما سألت عن أخيها عبد الله وخالها حمزة وعرفت خبر استشهادها استرجعت واستغفرت فلما نعى إليها زوجها مصعب بن عمير صاحت وولولت. فقال رسول الله: إن زوج المرأة منها لبمكان.

ومر رسول الله بدار من دور الأنصار، فسمع البكاء والنواح على قتلاهم، فزرفت عينا رسول الله فبكى. ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له. فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير أمرا نساءهم أن يتحزمن، ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ فلما سمع رسول الله بكاءهن على حمزة خرج عليهن، وهن على باب مسجده يبكين عليه فقال: ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتنَّ بأنفسكن. رحم الله الأنصار فإن المؤاساة منهن لقديمة.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى بيته ناول سيفه بنته فاطمة، فقال: اغسلي عن هذا دمه يا بنية. لقد صدقني اليوم. وفعل عليٌّ مثل ذلك. فقال الرسول لعلى: لئن كنت قد صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة. ثم قال له: لا يصيب منا المشركون مثلها حتى يفتح الله علينا.

وكان يوم أحد يوم السبت الخامس عشر من شوال للسنة الثالثة من الهجرة.

فلما كان من الغد أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس يدعوهم إلى الخروج لطلب العدو، وألا يخرج معه أحد إلا من حضر القتال أمس. واستثنى من ذلك جابر بن عبد الله الذي كلم رسول الله ﷺ قائلا: إن أبي كان خلَّفني أمس على أخوات لي سبع. وآثر هو نفسه بالجهاد مع رسول الله. ورجا أن يسمح له الرسول بصحبته فأذن له.

وقد كان لخروج الرسول – وأصحابه ما زالوا مرهقين من القتال – أهداف منها أن يرهبوا العدو، ويُشْعروهم أنه لا زال بالمسلمين قوة على قتالهم. وهدف آخر هو أن يُشْعِر الأعداء المستترين بالمدينة من المنافقين واليهود أن المسلمين أقوياء، ولن يسمحوا لأعدائهم أن يهزموهم.

ولقد كان المسلمون – على الرغم من تعبهم وجراحهم من معركة لأمس – يتسابقون إلى الخروج مع الرسول. كما يروي أحد الأنصار يقول: لقد شهدت أحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي. فرجعنا جريحين. فلما أذن مؤذن رسول الله بالخروج في طلب العدو وقلت لأخي: أو تفوتنا غزوة مع رسول الله؟ والله ما لنا دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل فخرجنا مع رسول الله ﷺ. وكنت أيسر جرحًا. فكان إذا غُلِبَ حملته، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

فخرج رسول الله حتى انتهى إلى حمراء الأسد. وهي من المدينة على بعد ثمانية أميال فمر به أحد الأفراد قبيلة خزاعة – وكان مسلمهم ومشركهم – يُخلص لرسول الله. وكان هذا الرجل – واسمه معبد – مشركًا. فقال: يا محمد، لقد عز علينا والله ما أصابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم.

وكان أبو سفيان قد تشاور مع من معه في أمر محمد. وقالوا: لقد أصبنا أصحابه وأشرافهم وقادتهم. ثم نرجع قبل أن نستأصلهم – لنكرنَّ على بقيتهم، ونفرغ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك يا معبد. قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه

من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا. فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال أبو سفيان: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى إلا أن ترتحل. قال أبو سفيان: لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإني أنهاك عن ذلك». فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وقرر العودة.

ومر بأبي سفيان ركب من بني عبد القيس. فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة[1]. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها إليه؟ وأحمّل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتم محمدا وأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فلما بلغوا المدينة أخبروا الرسول بذلك. فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. فأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ويتضح لنا من الموقفين: موقف الرسول وموقف قريش أنهم جميعا استعانوا بما نسميه الآن الحرب النفسية، وإن كان الرسول لم يعمد إلى ذلك. بل قام به معبد المشرك الذي أحس أن واجب الحلف بين قبيلته وبين الرسول يقتضيه أن يفعل شيئا ينفع به محمدا وصحبه. وقد اختلف وقع الخبر على كلا الجانبين. فأبو سفيان غير خطته، وأزمع العودة خوفا من قوة محمد، وأما الرسول فلم يتضعضع ولم يغير شيئا من خططه بل قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. فهو لا يخشى أحدا من الناس لأن الله حسبه وكافيه ووكيله. وهذا فرق ما بين الإيمان والكفر.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة موفورا بعد أن أكد لمن فيها أنه لازالت بهم قوة، ولا زالت قريش تخشى بأسهم، وإلا كانت عادت إليهم لتستأصلهم.

❁❁❁

---

(١) إحضار الطعام.

القرآن يتحدث عن أحد

أنزل الله في سورة آل عمران حوالي ستين آية تتناول أحداث أحد منه ما هو متصل اتصالا مباشرا بالمعركة، ومنها ما هدفه تربية المسلمين، وحفزهم إلى العمل الصالح وتنفيرهم من الرذائل. وأسلوب القرآن في تناول الغزوات – كشأنه في تناول قصص الأنبياء – لا يرتبها تاريخيا، أو يعنى بكل تفصيلاتها. وإنما يلتقط من الغزوة أحداثا يقصها في إيجاز بأسلوبه البليغ يتوخى فيها العبرة، وتربية المسلمين، وبيان نصرته للمسلمين إذا استمسكوا بتعاليمه وتعاليم رسوله. ولذلك لا يذكر أسماء أشخاص ولا أسماء قبائل.

وقد بدأت الآيات بتذكير الرسول بوقفته يوم أحد، يهيئ الصفوف لقتال المشركين، والله يسمع سرهم ونجواهم، ويعلم خفايا صدورهم. وبمحاولة مجموعتين من المسلمين أن تضعفا عن مواجهة الموقف، وتنسحبا من القتال. ولكنهم كانوا صادقي الإيمان فلم يتخل الله عنهم في هذه اللحظات الحرجة التي مسهم فيها طائف من الشيطان فرجعوا إلى الحق، وعادوا إلى مواقعهم. وهاتان الطائفتان هما بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار أثر فيهما انسحاب عبد الله بن أبي الذي كان يتظاهر بالإيمان. ففكروا اللحظة في اتباعه، ولكن الله تولاهما برعايته وتوفيقه وتثبيته. يقول جابر بن عبد الله: فينا نزلت هذه الآية: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فنحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة. وما نحب أنها لم تنزل لقول الله: «والله وليهما». فعلى الرغم من أن الله كشف عن نية هاتين الطائفتين في التراجع وهو أمر معيب فإنهم مسرورون بهذا الكشف لأن الله أتبعه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢١ – ١٢٢].

ثم يذكرهم الله بنصرهم في بدر وهم ضعاف أذلة وإمدادهم إياهم بالملائكـة. وقد تقدم ذكر هذه الآيات والتعليق عليها في غزوة بدر.

وبعد التذكير بالنصر في بدر، وأنه من عند الله، وليس لمحمد شيء من الأمـر تنهى الآيات عن أكل الربا. ثم يدعو المؤمنين إلى المسـارعة لعمـل مـا يـؤدي إلى مغفرة الله وجنته من إنفاق في السراء والضراء، وكظم الغـيظ، والعفـو عـن النـاس والإحسان إليهم، واستغفار الله والتوبة إليه[١].

وقد يسأل سائل ما علاقة هذه الأوامر والنواهي في الحديث عن غزوة أحـد؟ يجيب المرحوم سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن» قائلا: «والمنهج الإسـلامي يأخذ النفس من أقطارها، وينظم حيـاة الجماعـة جملـة لا تفـاريق. ومـن ثـم هـذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية، وبين تطهيـر النفـوس، ونظافـة القلوب، والسيطرة على الأهواء والشهوات وإشاعة الـود والسـماحة في الجماعـة فكلها قريب من قريب».

ثم يتحدث القرآن عن سننه التي لا تتخلف وهي نصرة دينـه في نهايـة الأمـر، وإهلاك المكذبين. وينهاهم عن الضعف والوهن أمـام العـدو، والحـزن عـلى مـا فاتهم فهم الأعلون في خاتمة المطاف إن كانوا صـادقين في إيمـانهم. وليتـدبروا في الأمر مليا. فإن تكن أصابتهم جراح في أحد، وقتل منهم سبعون شهيدا. فقد قتلـوا من المشركين مثل ذلك في بدر كما أنهـم أحـدثوا بالمشـركين إصـابات كثيـرة في المرحلة الأولى من يوم أحد والأيام دول بين الناس كما اقتضـت سـنة الله. ثـم إن حكمة الله في هذه الهزيمة أن الله يريد أن تظهر حقيقـة الإنسـان المـؤمن واضـحة جلية، فهو الذي سيثبت عند الهزيمة، ويرض بقضاء الله ولا يرتد على عقبيه كافرا، وأنه يريد أن يرزق قوما الشهادة، ويكرمهم بها. ثم يقرر الله كرهـه للظـالمين – أي

---

[١] اقرأ الآيات من ١٢٨ – ١٣٦.

الكافرين – فالمؤمن الذي يقاتلهم، ويبذل روحه في سبيل ذلك إنما يفعل ما يحب الله، وحكمة ثالثة لما أصاب المسلمين يوم أحد وهو تمحيص الذين آمنوا، أي تنقيتهم من كل شائبة ميل عن منهج الله الحق، وبعد هذا كله لا بد أن يبيد الله الكافرين، تحقيقا لسنته في أن يعلو الحق متى أخلص القائمون به نيتهم لله. والجنة جزاء المجاهدين الصابرين.

يقول تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

[آل عمران: ١٣٧ – ١٤١].

ثم يبين الله لهم أن دخول الجنة ليس أمرا سهلا، فقد حفت الجنة بالمكاره، وبالمشاق الكثيرة. ولا بد أن يجاهد المؤمن في سبيلها حتى تظهر حقيقة جهاده مستعلنة واضحة وحتى يتأكد صبره على مشاق الدعوة إلى الله، والصعاب المبثوثة في طريقها.

يقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

لنتأمل الاستفهام الاستنكاري في هذا التعبير «أم حسبتم» فأَمْ هنا – كما يقول النحاة – تتضمن الاستفهام ومعنى «بل» وكأن الكلام. بل أحسبتم. وهذا الاستفهام الاستنكاري يقرر الحقيقة الواقعة بعده وهي حسبان دخول الجنة أقوى تقرير.

ثم ينبههم الله إلى أمنية كانوا يتمنونها، فلما صارت واقعا خافوها، ولم يؤدوا حقها. لقد كانوا قبل المعركة يتمنون الموت في سبيل الله، وكانوا تواقين إلى

الاستشهاد في سبيله. فها هو ذا الموت في سبيل الله أمامهم ينظرونه بأعينهم فلماذا خاف كثير منه؟ ثم ما هذا الجزع الذي أصابهم عندما أشيع أن محمدا قتل. فماذا كانوا يظنونه؟ أليس رسولا كسائر الرسل السابقة. أو لم يمت الرسل السابقون؛ فما بالهم يريدون أن يكفوا عن جهادهم في سبيل الدين، ما دام محمد قد مات؟ إنهم لو فعلوا وانقلبوا على أعقابهم. فلن يضر الله ذلك في شيء. ولكن الشاكرين الذين قدروا نعمة الله عليهم بمنحهم هذا الدين، فأدوا حقها من جهاد في سبيل الحفاظ عليها، واتباع منهج الله الذي رسمه لهم الدين فسيجزيهم الله خير الجزاء. ثم يبين الله لهم حقيقة هامة وهي أن الموت موعده لكل فرد محدد عند الله لا يتخلف في قتال أو في غير قتال متى جاء موعده. فلماذا يخشى المؤمنون القتال ما دام أجلهم لن يتأخر أو يتقدم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٣ – ١٤٥].

لقد عقب الله بعد تقرير حقيقة أن الموت بإذن الله، وأجله محدد – بأمر ينبغي للمؤمن أن يعيه وهو أن الله يؤتي كل امرئ على حسب ما يرغب، وما يسعى إليه. فإذا كانت رغبته الدنيا وحدها وما فيها من متاع فسيعطيه الله منها بقدر ما يريد الله، وإن كانت رغبته الآخرة وسعى لها سعيها فسيعطيه الله ثواب الآخرة وسيكون ثوابا عظيما لأنه شكر نعمة الله عليه وهي نعمة الدين فعمل بها ولها والله يجزي الشاكرين. وقريب من هذا قول الله تعالى في سورة الإسراء ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ

أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

[الإسراء: ١٨ – ١٩].

ولما كان وقع الهزيمة في أحد شديدا على المسلمين، بعد ما ذاقوا النصر في بدر، وظنوا أن معاركهم كلها ستكلل بالنصر مهما حدث منهم من التقصير. نبههم الله إلى نماذج إيمانية كثيرة ابتلاهم بمثل ما ابتلَى به المسلمين في أحد. ولكن لم تضعف عزائمهم، ولم تهن قواهم – وكان يقودهم أنبياء – لمَّا نزل بهم ابتلاء الله من استشهاد وجراح وتغلب الكافرين عليهم أحيانا. وقد أحبهم الله لصبرهم في مواقف الشدة، والله دائما يحب الصابرين. ثم يذكر الله دعاء هؤلاء المقاتلين المستبسلين الذي لم يتضمن إلا طلبهم المغفرة من الله لما ارتكبوا من ذنوب، وتثبيت أقدامهم في القتال، ونصرهم على الكافرين. فاستجاب الله دعاءهم، وضاعف لهم من الثواب في الدنيا والآخرة لأنهم أحسنوا في إيمانهم، وفي جهادهم والله يحب المحسنين.

يقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٦ – ١٤٨].

ثم أخذ القرآن يحارب دسائس الكفار في المدينة، ويحذر المؤمنين منها فدائما بعد الهزيمة في الحرب تضعف النفوس، وتصبح قابلة لأي تأثير يأتيها، ولو من الأعداء، وقد عاد المسلمون إلى المدينة ضعافا مهزومين، وأخذ اليهود ومشركوا المدينة ومنافقوها يوسوسون للمسلمين بما يبث الوهن في قلوبهم. فالله يحذرهم من طاعة الكافرين، ويبين لهم أن عاقبته الارتداد عن دينه، وليس وراء ذاك إلا الخسران. ويطمئنهم بأن الله لن يتخلى عنهم فهو مولاهم، وهو وحده

الذي يستطيع نصرهم فهو خير الناصرين. ويذكر لهم سببًا من أسباب نصره إياهم وهو أنه سيلقى في قلوب الذين كفروا الرعب وإذا ألقى في قلوبهم الرعب فلن يثبتوا أمام المسلمين بل ينهزموا. وذلك لإشراكهم بالله آلهة لا قوة لها، ولا سلطان لها من الله لأنها معبودات زائفة بعيدة عن الحق وهؤلاء المشركون مصيرهم النار لأنهم ظلموا أنفسهم بعبادتهم غير الله وبئس مكانا يأوي إليه الظالمون.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥١].

ثم يذكر الله لهم دليلًا محسوسًا من المعركة وهو أن نصر الله الذي وعد به عباده المؤمنين مرتبط بصدق عزائمهم في القتال. فقد أنجز الله لهم وعده بالنصر عندما كانوا يقاتلون بحماسة، ويستأصلون الكفار. ولكن عندما ضعفوا عن ذلك، وتنازعوا في تنفيذ ما أمر به الرسول – والآية هنا تشير إلى موقف الرماة – بل عصوا هذا الأمر من بعد ما أظهر الله لهم ما يحبونه من بشائر النصر. وانقسموا فريقين: فريقا يبتغي الغنائم ويسعى إليها. وفريقا يريد وجه الله. فصرف الله قلوبهم عن تتبع الكافرين وقتالهم فالله لا يرضى أن يشرك أحد معه هدفا آخر. وكان هذا ابتلاء من الله ثم عفا عنكم لأنه يعلم صدق إيمانكم، وأن ما حدث منكم لم يكن إلا أمرا غير مقصود به الانحراف عن أوامر الرسول، بل نتيجة تفكير قاصر ظن طلائع النصر نصرًا نهائيًّا. والله يتفضل دائما على المؤمنين.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ثم يصور الله جانبا من المعركة، فها هم أولاء المؤمنون يفرون مصعدين في الجبل، ولا يلتفتون وراءهم، ولا يستجيبون لدعوة داع. والرسول من ورائهم يناديهم ليطمئنهم على حياته بعدما أشيع أنه قتل. فجزاهم الله بسبب الغم الذي أحدثوه للرسول بفرارهم وعصيانهم غما ملأ نفوسهم بعدما ثابوا إلى رشدهم، وفكروا في أمرهم، فشعروا بندم عميق لما سببوه للرسول. وهذا درس يعلمهم ألا يحزنوا على شيء فاتهم أو أصابهم، والله مطلع على كل عمل يعملونه، خبير بأحوالهم وهذا الغم الذي ملأ نفوسهم لطف الله بهم فيه فأرسل إليهم نعاسا مريحا لأعصابهم، شعروا بعده بأمن واطمئنان. وهذا النعاس كان يغشى المؤمنين الصادقين. أما الذين في قلوبهم مرض من المنافقين وضعاف الإيمان فقد شغلوا بأنفسهم وسلامتها، وأخذوا يظنون بالله ظنا سيئا مثل ظن الجاهلية، وهو أن الله قد ضيعهم بدخولهم هذه الحرب التي لا إرادة لهم فيها، وما كانوا يريدونها وبسائل بعضهم: هل نملك من أمر القيادة شيئا؟ لقد أخرجنا على غير إرادتنا، ودفعنا إلى معركة غير متكافئة وهذا يعني أننا لا نملك من أمرنا شيئا بل يسيره محمد وأتباعه كما يشاءون فيدعو الله نبيه أن يرد على هذه الطائفة قائلا: إن الأمر كله لله، فهو وحده المتصرف في شئون العباد. ثم يكشف له عما في نفسية هذه الطائفة الذي يحاولون إخفاءه عن الرسول وهو اعتقادهم أنه لو كان لهم مشاركة في قيادة المدينة ما كانوا خرجوا منها، ولا قتل من قتل منهم في أحد. ويدعوا الله رسوله إلى أن يقول لهم: إن الموت قدر قدره الله على عباده في زمان محدد ومكان معين. ولو كانوا في بيوتهم بعيدين عن المعركة لدفع الله الذين كتب عليهم القتل إلى أن يذهبوا طواعية إلى المكان الذي يقتلون فيه ليقتلوا. وكل هذا اختبار من الله ليكشف خبيئة الصدور، ويميز المؤمن من الكافر.

يقول تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٣ – ١٥٤].

ثم يذكر السبب الذي دفع الرماة أن يتركوا أماكنهم التي أمرهم الرسول بعدم تركها مهما حدث. وهو وسوسة الشيطان التي تمكنت منهم بعد تفكيرهم في أمر الغنيمة وظنهم أن الرسول قد يحرمهم منها، عندئذ فتحوا للشيطان مدخلا إلى نفوسهم. ولعلم الله بحقيقة إيمانهم عفا عنهم فهو غفور للذنوب، حليم لا يعاجل بالعقوبة.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

ثم يلقن الله المؤمنين درسًا هو أن يعلموا أن الموت والحياة بإذن الله وإرادته وأن عليهم أن يعوا ذلك جيدًا، ولا يتشبهوا بكفار المدينة ومنافقيها الذين يحاولون بث الحسرة والندم في نفوسهم بقولهم عمن يموت خارج بلده سواء أكان ضاربا في الأرض يطلب الرزق، أم كان مجاهدا في سبيل الله – أن سبب موتهم هو هذا الخروج، وأنهم لو مكثوا في المدينة ما ماتو أو قتلوا، ولا يدركون أن المحيي والمميت هو الله. وهو البصير بكل ما يعملون. ولو عرف هؤلاء الكفار

أن القتل في سبيل الله أو الموت له ثواب عند الله ومغفرة خير من كل ما يجمعون في الدنيا لما قالوا هذا ثم إن المصير بعد الموت أو القتل إلى الله الذي يُجْمَعُ إليه كل الخلائق، فيحاسبهم على ما قدموا من خير أو شر.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: ١٥٦ – ١٥٨].

ثم يخاطب الله رسوله مشيرا بما وهبه إياه – بسبب رحمته بالمؤمنين – من دماثة الخلق، ولين الطباع، ورقة القلب. ولو فطره الله غير هذه الصفات فجعله فظًّا جافيًا غليظ القلب والمشاعر لانفض هؤلاء المؤمنون من حوله، ولنفروا منه. ثم يدعوه إلى العفو عن المخطئين، والاستغفار لهم. وأن يشاورهم دائمًا في كل أمر ينوبهم، فإذا استقرت المشورة على رأيه فعليه أن يمضيه، ولا يتراجع عنه. كما فعل الرسول بعد مشاورتهم في أمر المكث في المدينة والدفاع عنها، أو الخروج للقاء العدو وقتاله، فكان رأي غالبيتهم الخروج. فاستجاب لرأيهم. وبعد أن أعد نفسه للقتال حاولوا الرجوع عن رأيهم مخافة أن يكونوا أكرهوه على أمر لم يكن يريده، ولكنه أصر على ما صار إليه رأيهم بحزم قاطع – كما مر بنا – والله يؤيده في ذلك في هذه الآية، فيدعوه إلى العزم والتوكل على الله بمعنى ترك الأمر كله إليه، والإيمان بأن أي أمر يحدث بعد ذلك فهو بإرادة الله وحده، وأن كل استعداد سابق ما هو إلا سبب قد يؤدي إلى النتيجة المرجوة وقد لا يؤدي إليها. ويؤكد الله هذا المعنى بأن النصر من عند الله إذا أراده فليست هناك قوة تمنعه عنهم، وأما إذا أراد لهم الهزيمة، فليس هناك ناصر من بعده. ثم يكرر الله الدعوة إلى التوكل عليه؛ لأن ذلك من صفات المؤمن.

يقول تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[آل عمران: ١٥٩ – ١٦٠].

تؤكد هذه الآيات مبدأ الشورى في الإسلام؛ فالله يدعو نبيه آمرًا إياه أن يشاور قومه. وفي أية مناسبة يدعوهم؟ بعد أن خالفوا رأيه، واقترفوا خطأ فادحًا حرصًا على الغنيمة أكثر من حرصهم على نصرة الدين. لقد كان في هذا الموقف مندوحة للرسول أن يعرض عن استشارتهم، وينفرد برأيه – وهو نبي يوحى إليه – ولكن الله أمره بمشاورتهم. ولكنه أضاف أمرًا آخر للمشاورة. وهو العزم على ما انتهت إليه المشاورة، وعدم التذبذب، وإلا أفلت الأمر منهم، وأصبح القائد مقودًا وليس قائدًا.

ثم تأتي الآية التالية لترد على مخاوف بعض المسلمين، وعلى ما أشاعه المنافقون عن غنائم بدر. فقد كان من الأسباب التي دعت الرماة أن يتخلوا عن أماكنهم خوفهم أن يحرمهم الرسول من نصيبهم في الغنائم، ويوزعها على غيرهم. كما أن المنافقين أشاعوا أن بعض الغنائم اختفت، وألمحوا إلى أن الرسول اختص بها نفسه فجاءت هذه الآية تقرر أن كل الأنبياء – ومنهم محمد – لا يخونون أبدًا في الغنائم بأخذ أكثر من نصيبهم الذي قرره الله لهم منها، أو بإعطاء من لا يستحق منها، أو توزيعها توزيعًا غير عادل. وأنه لو حدث ذلك – وهو فرض مستحيل على الأنبياء – يفضح مقترفه يوم القيامة على رءوس الأشهاد فيأتي حاملًا ما أخذه من الغنيمة عن طريق الخيانة سواء أكان جملًا أم شاة أم بقرة أم غير ذلك. ويسري هذا الحكم على كل من يأخذ من الغنائم غير ما يستحق ثم يحاسب الله كلًّا على ما أخذه بغير وجه حق حسابا عادلا لا ظلم فيه. ويجيء الحديث الشريف مصدقا لهذا في قوله ﷺ: «لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء.

فيقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد بلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على لا رقبته فرس لها حمحمة. فيقول: يا رسول الله أغثني: فأقول لا أملك لك من الله شيئًا. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت – أي ذهب أو فضة فيقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئا. قد بلغتك».

ثم يقارن الله سبحانه بين نوعين من الناس: نوع سار على منهج الله، واتبع مبادئ دينه، ولم يحد عنها، ولم يخالف عن أمر الله في أي موقف، ونوع اتبع هواه، وانحاز لحزب الشيطان، فباء بغضب الله وسخطه، واستحق جهنم مأوى له ومصيرًا. هل يستويان؟ وهذا استفهام للنفي. وهو أقوى من النفي التقريري، لأن الاستفهام هنا يلزم كل من يسمعه أن يصدر حكمه على كلا الفريقين. والحكم لا يختلف عليه اثنان فالذي يتبع رضوان الله مأواه الجنة. والذي ينحرف عنه مأواه جهنم وبئس المصير. إنهم درجات متفاوتة في الثواب والعقاب. وكل ينال جزاءه على حسب عمله دون ظلم أو محاباة فالله بصير بكل ما يعمل الإنسان. والله سبحانه يقصد بهذين النوعين: المجاهدين في سبيله والمخذلين عنه يوم أحد يقول تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

[آل عمران: ١٦١ – ١٦٣].

ويذكر الله المؤمنين بالمنة العظمى التي منها الله عليهم بأن بعث فيهم هذا الرسول محمدا ﷺ. وهذه المنة تتمثل في أنه جعل هذا الرسول واحدا منهم ليس غريبا عنهم، يألفهم ويألفونه. عرفوا خلقه وأنسوا إلى طباعه، وأدركوا ما يمتاز به من فضائل قبل أن يبعث. ثم أرسل مع رسوله القرآن يتلو عليهم منه آيات تطهر

نفوسهم، وتنقى أرواحهم من أدران الشرك، وشوائب الرذيلة، ويفتح أمامهم باب الحضارة، فيتعلمون الكتابة بعد أن كانوا أميين. ويرتفع سلوكهم، وترقى نظرتهم إلى الأمور، والقدرة على الفصل فيها بالصواب والسداد. ولقد كانوا قبل ذلك في ضلال عن الحق، وعن الروح الإنسانية. واضح ملموس يعرفه كل من اطلع على حياتهم المملوءة بالرجس رجس العقائد، ورجس الأخلاق، ورجس العادات. هذه المنة العظمى ينبغي أن تفعم قلوبهم بالثقة بالله، وبهذا الدين فلا تهزهم هزيمة في معركة، وتزعزع ثقتهم بربهم يقول تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ثم يعاتب الله المسلمين الذين أصابهم الدهش والفزع لأن تحيق الهزيمة بهم وهم المسلمون فيذكرهم بأن ما لحقهم من أذى وإصابات قد أصابوا مثليهما. فإذا كان قتل منهم سبعون شهيدا فقد قتلوا في غزوة بدر سبعين مشركًا، وأسروا سبعين آخرين. كما أنهم حققوا نصرًا في أول المعركة في أحد وأثخنوا في المشركين. فلم العجب؟ ولم الحزن؟ فليعلم المسلمون أمرين هامين: أولهما أن ما حاق بهم من هزيمة هو من عند أنفسهم لأنهم فشلوا وتنازعوا وخالفوا عن أمر الرسول. والله سبحانه لا يحابي أحدًا، فقد وضع شروطًا للنصر إذا التزم بها المسلمون تحقق لهم النصر، وإذا حادوا عنها حاقت بهم الهزيمة. ولا ينفعهم حينئذ أن يقولوا: كيف هذا ونحن المسلمون؟ الأمر الآخر أن ما أصابهم من هزيمة عند التقاء الجيشين هو بإذن الله وإرادته لحكمة علمها وهو أن تظهر أمام الجميع وبطريقة شديدة الوضوح حقيقة كل فرد الإيمانية، فيتميز المؤمن الصادق الإيمان من المناقين الذين حاولوا تثبيط همم المؤمنين في أول المعركة بانسحابهم من صفوف المؤمنين بقيادة عبد الله بن أبي. ولما حاول بعض المؤمنين ردهم إلى

صفوف المقاتلين أجابوهم أنه لن يحدث قتال، وأنَّا لو كنا نعلم أن القتال سينشب لما تخلفنا عنكم – وهم غير صادقين فالذي دفعهم إلى ذلك رغبتهم في إثارة البلبلة في نفوس المسلمين. لقد كانوا في هذا الوقت أقرب إلى الفكر منهم للإيمان. إن ما يقولونه لا يعبر عما في قلوبهم لكن الله مطلع على سرائرهم وما يكتمونه عن المسلمين. ولقد شمت هؤلاء المنافقون بقتلى المؤمنين وقالوا لو أطاعوا أمرنا في الانسحاب من صفوف المحاربين ما كانوا قتلوا. ويجيبهم الله: فادفعوا الموت إذن عن أنفسكم عندما تحين آجالكم إن كنتم صادقين في قولكم هذا. لقد حدد لكل إنسان أجله لا يستقدم عنه ولا يستأخر يقول تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥– ١٦٨].

ويريد الله أن يطمئن نفوس المؤمنين، ويثلج صدورهم، فيقرر لهم أن إخوانهم الذين استشهدوا في غزوة أحد أحياء وليسوا أمواتًا. وينهى رسوله والمؤمنين أن يحسبوا هؤلاء في عتاد القتلى بل هم أحياء لهم كل خصائص الأحياء فهم يرزقون من رزق الله، وهم فرحون بما أغدق عليهم من رضوانه، ومنَّ عليهم من فضله. وهم يتابعون ما يحدث لإخوانهم الذين لم يستشهدوا في المعركة، وهم مستبشرون برضوان الله عليهم، وأنه لن يلحق بهم خوف ولا حزن، مستبشرون بأن الله لن يضيع أجر إخوانهم المؤمنين في جهادهم، بل سيغمرهم بنعمته وفضله، وسيتحقق لهم النصر في الدنيا، والثواب العظيم في الآخرة جزاء صلابتهم في

مناصرة الرسول، وتضحيتهم بالراحة عندما دعاهم الرسول بعد عودتهم إلى المدينة إلى الخروج في اليوم التالي لعودتهم لملاقاة العدو فلم يتخلفوا عنه على الرغم مما كان بهم من جراح لقد وعد الله هؤلاء المحسنين المتقين أجرًا عظيمًا. إن هؤلاء المؤمنين لم يتأثروا بما نقله إليهم من أغراهم أبو سفيان بتخويفهم بأن قريشا قد جمعت جموعا لتكرّ عليهم، فلم يصبهم خوف أو جزع بل قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فحفظهم الله من شر هؤلاء المشركين وعادوا إلى المدينة موفورين لم يصبهم أذى. وقد اتعبوا ما يرضى الله عنهم بخروجهم مع رسوله لما دعاهم لذلك. وفضل الله واسع يعطيه من يشاء.

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

[آل عمران: ١٦٩ – ١٧٤].

ثم يبين الله مظهرًا من مظاهر ما نسميه الآن بالحرب النفسية، وهو مبالغة الأعداء في بيان ما لديهم من قوة مبالغة كبيرة. فيوهم الشيطان المؤمنين أن أعداءه ذوو قومة رهيبة لا يستطيع المؤمنون مقاومتها. فيحذر الله المؤمنين من التأثر بذلك، وألا يخافوا المشركين مهما أشيع عن قوتهم – كما فعل أبو سفيان في الرسالة التي أوصلها بعض المشركين إلى المؤمنين – وعليهم ألا يخافوا إلا الله وحده، وألا يعصوا له أمرًا إن كان إيمانهم صادقًا. فهذا الخوف الدائم في قلوبهم من الله هو الذي ينفي عنهم أي خوف من بشر مهما كان لديه من قوة فالله أكبر

ويطلب للرسول ألا يحزن على ما فعله المنافقون من انسحابهم عن القتال فإن ذلك لن يضر الله شيئًا. وقد أراد الله لهم ذلك لأنه يريد أن يحرمهم من ثواب الآخرة ويذيقهم عذاب جهنم؛ لأنه اطلع على ما في قلوبهم، وعرف ما تكنه من كفر وضلال.

ويؤكد الله أن هؤلاء المسلمين الذين نافقوا فكفروا بعد إيمانهم لن يضروا الله شيئًا، وسيكون لهم عذاب مُخْزٍ. ثم يطمئن الله المسلمين إلى أن إمهاله للكفار، وإتاحة فرص النصر لهم أحيانًا ليس لحب الله لهم، أو لإرادته الخير لهم، بل هو استدراج لهم ليتمادوا في طغيانهم، وتزداد معاصيهم حتى إذا جاءهم العذاب المخزي الذي لا بد أن ينزل بهم، والذي ظنوا أنه لن يجئ يكون وقعه عليهم وبيلًا ويكون أخذ الله لهم شديدًا. وأخيرًا يذكر الله حكمته في إنزال الهزيمة بالمسلمين في أحد وهي فرز الصالح من الطالح وتمييز الطيب من الخبيث؛ فالله لا يرضي أن يظل المؤمنون على حالهم المستورة، لا يعرف منهم صادق الإيمان من المتظاهر به. بل لا بد من فرز، لا بد من غربلة، حتى تسير الطليعة المؤمنة في طريقها لنشر دين الله لا يوهن عزمها خائن، أو يعطل مسيرتها منافق. وهذه الحكمة الخفية هي من غيب الله. والله لا يطلع على غيبه أحدًا إلا بعض رسله المصْطَفَيْن – وفيهم محمد – ثم يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسله. وعاقبة هذا الإيمان، وتقواهم الله الأجر العظيم عنده في الآخرة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

[آل عمران: ١٧٥- ١٧٩].

هذه هي الآيات التي تناولت غزوة أحد، وكان هدفها الأول الدرس والعبرة والتربية لا سرد التاريخ، وتفصيل الأحداث.

خواطر حول غزوة أحد:

تمدنا غزوة أحد بكثير من الدروس والعبر. سأحاول استخلاص بعضها في هذه العجالة.

١ - إن الله لم يعط المسلمين عهدًا بنصرهم لأنهم مسلمون، وإنما وعدهم النصر إذا استجابوا لله ولرسوله، وأطاعوا ما يأمرهم به الرسول. وتركوا الدنيا وراء ظهورهم، وأخلصوا وجوههم لله. هكذا صنعوا في بداية غزوة أحد فجاءهم النصر مؤزَّرًا. فلما دخلت الدنيا قلوبهم، وانصرفوا إلى الغنائم، وخالفوا عن أمر الرسول حلت بهم الهزيمة. فلما أدركوا خطأهم وتخلوا عن الدنيا، واستجابوا لأمر الرسول، واستماتوا في الدفاع عنه ألقى الله الرعب في قلوب أعدائهم، فلم يعاودوا الكرة عليهم كما كانوا ينوون.

لا محاباة عند الله؛ وعلى مسلمي اليوم أن يدركوا ذلك، ويكفوا عن دهشتهم لهزائمهم المتتالية أمام أعداء الإسلام، بينما هم أتباع الإسلام دين الله الواحد. فالإسلام وحده لا يكفي إذا كان مجرد ألفاظ وشعارات بل لا بد أن يتخلل الإسلام النفوس والقلوب ويصبح جزءًا من نسيج الحياة، وتكون الدنيا كلها بمالها وجاهها وعلمها وسيلة لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه. وعندئذ فقط ينصرنا الله، ويمدنا بروح من عنده، وجنود تؤازرنا ولا نراها ويخذل أعدائنا، ويلقي في قلوبهم الرعب، مهما بلغت قوتهم وجبروتهم.

٢ - على المسلم أن يدرك أن الخطأ ممكن أن يقع من آية جماعة مسلمة، ولكن

الإيمان الحق يصحح هذه الأخطاء عقب وقوعها، ويوجهها وجهتها الصحيحة قبل فوات الأوان كما حدث حينما همت جماعتان أن تنسحبا من غزوة أحد، ولكن إيمانهما الصحيح ردهما إلى الصواب في الحال. على عكس الإيمان المنقوص الذي يتصف به المنافقون والذين في قلوبهم مرض فهؤلاء يزين لهم الشيطان جبنهم وعجزهم فيظنونه الرأي الصواب كما حدث من عبد الله بن أبي وأتباعه حينما انسحبوا قبل بدء القتال. وقيمة هذا الدرس أن المؤمن لا ييأس إذا أخطأ ويركن إلى الهم والحزن فيكون خصمًا من قوة المسلمين. بل يستغفر الله ويعود إلى الجادة.

والله يعفو ويغفر كما وعد جماعة الرماة. فيعود إلى الجماعة وقد محصته التوبة، وطهره النوم.

٣- للخطايا والآثام التي ينغمس فيها المسلم أثر في الهزيمة، أو الفشل فيما يعتزم عمله من أمور مصيرية. فالله يحدثنا أن جماعة الرماة تمكن الشيطان من إغوائهم، فخالفوا عن أمر الرسول بسبب ذنوب ارتكبوها، ولم يستغفروا الله عنها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]

فعلى المسلم إذا أراد أن يكتب الله له النصر في معركة، أو النجاح في عمل، أن يستغفر الله عما اقترفه من إثم، ثم يقبل على ما يريد بنفس طاهرة، وضمير نقي. ولقد نبهنا الله إلى ذلك عندما ذكر أن دعاء الربيين المقاتلين مع أنبيائهم كان يبدأ باستغفار الله.

﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

٤- الشورى ركن هام في الإسلام. فعلى القائد أو الرئيس أو الحاكم أن يستشير من يثق برأيه قبل الإقدام على أي عمل يهم المجموعة. لقد طبق الرسول

هذا المبدأ عمليًّا قبل الذهاب إلى أحد عندما استشار أصحابه في الخروج إلى الأعداء أو البقاء في المدينة، واستجاب لرأي الأغلبية. كما أمره الله أن يشاور أصحابه. والذي يؤكد وجوب الشورى أن الله أمر بها في موقف ربما يوحى إلى التأمل أن عدم الشورى كان هو الأولى. فقد كان رأي الرسول هو الأوفق والأصوب ولو لم يستشر أصحابه وبقى في المدينة كما كان يريد لما حلت بهم الهزيمة. ولكن الله يأمر رسوله بالمشاورة دائمًا في كل أمر لأنه يقرر حكمًا عامًا يلتزم به كل القادة والرؤساء في كل زمان ومكان.

فإذا كان الرسول موفق الرأي بما يوحي الله إليه فسيأتي من بعده من يكثر الزلل في آرائهم ولن يقوِّم هذا الزلل إلا الشورى. ولكن الله سبحانه يتبع الأمر بالشورى بآخر يدعو إلى الحزم. فما دام رأى الجماعة قد استقر على أمر فلا ينبغي التردد فيه. كي لا تسود البلبلة والاضطراب بين الجماعة. ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد طبق ذلك الرسول عمليًّا بعد أن شاور أصحابه. فلما رجعوا عن رأيهم حرصًا على إرضاء الرسول لم يسمع لقولهم وسار في طريق الشورى.

✿✿✿

نتائج البلاء على المسلمين بعد أحد

شمت اليهود والمنافقون ومشركو المدينة بالرسول والمسلمين لهزيمتهم في أحد. وكان المنافقون قد بدءوا يرفعون رءوسهم ضاحكين من المسلمين يسألونهم: إذا كانت بدر آية من الله برسالة محمد، فماذا عسى أن تكون آية أحد؟ كما طمعت بعض القبائل العربية أن تُغير على أطراف المدينة ليغيروا على حواشي المسلمين ويأخذوها. ولكن الرسول كان يعرف بهذا فيرسل السرية تلو السرية لتبطل كيدهم، وتغنم منهم. ولكن شاء الله أن يستمر ابتلاء المسلمين فيستشهد منهم رجال أطهار غدرًا وغيلة كما حدث في «يوم الرجيع» وبئر معونة.

يوم الرجيع (سنة ٣هـ):

قدم على رسول الله ﷺ جماعة من قبيلة «عَضَل والقارة» فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاما، فابعث معنا نَفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين.

فبعث معهم رسول الله ﷺ ستة نفر من أصحابه على رأسهم مرثد بن أبي مرثدا الغنوي. فلما كانوا قريبًا من ماء يقال له «الرجيع» لقبيلة هذيل غدروا بهم، فاستنصروا عليهم هذيلا: ففوجئ الستة وهم آمنون في رحالهم بالرجال بأيديهم السيوف قد اقتحموا عليهم رحالهم. فهبوا إلى سيوفهم ليقاتلوهم. فقال لهم الأعداء: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نذهب بكم إلى مكة لنبيعكم فيها. ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم. فأما رئيسهم مرثد ومعه اثنان من المسلمين هما خالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا. فقاتلوا القوم حتى قتلوا. فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه إلى سلافة بنت مسعد. وكانت قد نذرت أن تشرب الخمر في رأسه لقتله ابنيها يوم أحد. ولكن الله حماه من ذلك فقد تكاثر عليه جماعات النحل والزنابير فلم يتمكنوا من الاقتراب منه. ثم جاء سيل بالليل احتمل جثته فلم يعثروا عليها.

وأما الثلاثة الآخرون وهم زيد بن الدثنة، وخُبَيْب بن عدي، وعبد الله بن طارق فقد استجابوا للمشركين واستسلموا. فخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم، ولكن عبد الله بن طارق أفلت من القيد، وحاول الهرب، فعاجلوه بالحجارة حتى قتلوه. وباعوا الأسير من الباقيين بمكة بأسيرين من هذيل.

وقد أبدى الرجلان من الشجاعة، وقوة الإيمان، وحب الرسول في أثناء مواجهتهما للموت ما أثار إعجاب المشركين بهما، ودهشتهم للتأثير العظيم الذي أحدثه محمد فيهما. فعندما قدم زيد بن الدثنة لتضرب عنقه – وقد اجتمع رهط قريش حوله – قال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكة نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فرد عليه قائلا: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس الآن في أهلي. فقال أبو سفيان متعجبًا: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحد كحب أصحاب محمد محمدا». ومعذور أبو سفيان فهو يقيس الأمور بمقاييس الدنيا وينسى الإيمان وما يفعل في النفس البشرية.

وأما خبيب بن عدي – فإلى جانب ما أبدى من شجاعة وإيمان في مواجهة الموت كما سنرى – فقد كان له موقف سابق لقتله ملأ نفوس من شاهده دهشة، وأظهر معدن هذا الدين القائم على العدل والعفو. فقد طلب من إحدى النساء – وهو في الحبس – أن ترسل إليه شفرة يستخدمها في بعض أغراضه. فأرسلت ابنها بها إليه. تقول المرأة: فما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه فقلت: ماذا صنعت؟ كيف أسلم ابني إليه ومعه الشفرة؟ الآن سيذبحه ويصيب ثأره فيكون رجلا برجل». ولكن خبيبا المسلم أخذها من يده، وخلى سبيله.

وخرجوا بخبيب ليقتلوه فطلب منهم أن يدعوه يصلي ركعتين. فتركوه يصلي. وبعد أن أتم صلاته قال لهم: لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت جزعًا من الموت لاستكثرت من الصلاة.

ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا». ثم قتلوه. وقد ألقى هذا الدعاء الرعب في قلوب الحاضرين، فخروا جميعا إلى الأرض مضطجعين على جنوبهم. كي لا تؤثر فيهم دعوته كما كانوا يظنون.

وقد حزن الرسول ﷺ حزنا شديدا على هؤلاء الشهداء الذين قتلوا غدرا. وضاعف من حزنه الخديعة التي جاءه بها هؤلاء النفر من المشركين. وظل رسول الله ﷺ شهرا يقنت في صلاة الفجر ويدعو على هؤلاء القوم.

وقد شمت المنافقون بهؤلاء القتلى وقالوا: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا لا هم قعدوا في أهليهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم». فأنزل الله قرآنًا يرسم فيه صورة للفريقين؛ فالمنافق يقول قولًا حسنًا يعجب سامعه، بينما قلبه يغلي بالحقد والخصام. كل همه أن يفسد في الأرض، ويحيل عمرانها خرابًا. وإذا دُعِيَ إلى تقوى الله أبي واستكبر فمصيره جهنم وبئس المصير. وأما شهداء المؤمنين من أمثال أصحاب يوم الرجيع، فقد ضحوا بأنفسهم إرضاء لربهم وإعلاء لدينه. والله لن يضيع عملهم وتضحيتهم سدى بل يجزيهم عنها خير الجزاء.

يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ – ٢٠٧].

يوم «بئر معونة»[١] (صفر ٤هـ):

كان حزن الرسول شديدًا على الشهداء الستة الذين قتلهم الكفار غدرًا. ومع هذا لم يمنعه حزنه أن يواصل الدعوة إلى الإسلام، وهداية الناس كلما سنحت له فرصة. فعندما حضر إلى المدينة أحد سادة نجد من بني عامر – وهو أبو براء عامر ابن مالك الملقب بمُلاعب الأسنة داعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام، فلم يقبل، ولكنه اعتذر بلطف. وقال للرسول لو أرست إلى أهل نجد بعض أصحابك رجوت أن يدخلوا في الإسلام. فقال له الرسول: إني أخاف عليهم أهل نجد. فقال له عامر: إني لهم جار من أهل نجد [وهذه العبارة لها قيمة المعاهدات في عصرنا، ونقضها يعتبر عار ومذمة لمن نقضها] وقبل الرسول ﷺ على الرغم من تخوفه من أن يكون مصيرهم مثل مصير سابقيهم، ولكن كان رجاؤه في إسلام أهل نجد أكبر من خوفه. فأرسل أربعين من خيار المسلمين – وكان على رأسهم المنذر بن عمرو من بني ساعدة. فلما قدموا نجدا أرسل المنذر إلى عامر بن الطفيل سيد بني عامر كتابا يبلغه فيه دعوة الإسلام، ويدعوه ومن معه إلى الدخول فيه. ولكن عامرا لم يقرأ الكتاب وإنما أمر بقتل الرسول وكان اسم حرام بن ملحان. ثم دعا بني عامر أن يهبوا إلى قتل هؤلاء المسلمين الداعين إلى الله، فرفضوا دعوته، وأبوا أن ينقضوا عهد أبي براء. فاستنصر قبائل أخرى من بني سليم من عُصَيَّة ومن رِعْل ومن ذكوان. فجاءوا إليه وأحاطوا بالمسلمين وقتلوهم من آخرهم إلا واحدا أصابته جراحات بالغة ولكنه لم يمت ونجا منهم. وكانت الجماعة المسلمة قد تركت رجلين وراءهم لحماية أمتعتهم ومواشيهم فما راعهما إلا تجمعات كبيرة من الطيور الجوارح تحلق في السماء، وتهبط إلى الأرض بعيدا عنهما فقالا: إن لهذه الطيور لشأنا. فذهبا يستطلعان الخبر ففوجئا بحيث أصحابهما مضرجة بالدماء.

---

(١) وهي بئر بين أرض بني عامر وحرة بني سليم. وكلا البلدين منها قريب.

فتشاورا فيما يفعلان. فقال أحدهما وكان أنصاريًّا لا بد أن أقاتل القوم حتى ألقى مصير أصحابي فقاتل حتى قتل. وأما الآخر – وكان من مضر – فأخذ أسيرا ثم أطلق سراحه عامر بن الطفيل. فسار في طريقه إلى المدينة فقابل رجلين عرف أنهما من بني عامر فأمهلهما حتى ناما فقتلهما ثأرًا لمن قتل من جماعته. ولكن كان مع هذين الرجلين عهد من رسول الله ﷺلهما بالأمان ولم يعلم به الضمري – وكان اسمه عمرو بن أمية الضمري – فلما وصل عمرو إلى المدينة إلى الرسول وأخبره بخبر الرجلين. قال له الرسول لقد قتلت رجلين معهما عهد بالأمان مني. لأدفعن دية كل منهما.

لقد قابل المسلمون الداعون إلى الله للموت بشجاعة منقطعة النظير وأذكر مثلين لهذه الشجاعة. أولهما آثار إعجاب رجل من الأعداء حتى دفعه إلى الدخول في الإسلام. يقول هذا الرجل: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه. فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فزت والله. فقلت في نفسي: ما فاز. ألست قد قتلت الرجل؟!. حتى سألت بعد ذلك عن قول. فقالوا: فاز بالشهادة. فقلت: فاز لَعَمْرُ الله، وأسلمت.

والمثل الآخر هذا الأنصاري الذي رأى الطير تحلق فوق جثث أصحابه، وكانوا قريبًا من أربعين فقتلوا عن آخرهم. فلم يهرب بل تحدى الأعداء وقاتلهم حتى قتلوه. هذه الشجاعة مبعثها الإيمان الذي ملأ قلوبهم، وصدقوا قول ربهم الذي أمرهم أن يقولوا لأعدائهم ماذا تنتظرون لنا؟ لن يصيبنا إلا إحدى العاقبتين الحسنيين أن نموت في سبيل الله فندخل الجنة. أو ننتصر عليكم فيرتفع شأن الإسلام. وأما الكافرون فماذا ينتظرون؟ ليس أمامهم إلا أن ينزل الله عليهم عذابًا من عنده أو يصبه عليهم بسبب بطش المسلمين بهم.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ [التوبة: ٥٢].

وازداد حزن الرسول ﷺ على هؤلاء الأخيار الذين قتلوا من أصحابه. وأخذ يقنت في صلاة الفجر داعيًا الله أن ينتقم من هؤلاء الأعداء وكان يقول هذا من عمل أبي براء. لقد كنت كارهًا متخوفًا. وشق على أبي براء نقض عامر بن الطفيل عهده. حتى لقد ذهب ابنه ربيعة فطعن عامرا بالرمح انتقاما منه لأبيه.

وإذا تأملنا في أحداث هذا اليوم ظهر لنا وجهان متناقضان يعبزان عن عقيدتين متباينتين الأول أبيض ناصع يعلى من قيمة الوفاء والعدل ويتمثل في غضب الرسول لقتلى الرجلين من بني عامر الذين أعطاهما الأمان، وقراره بأن يدفع دينهما. هذه القيمة مبعثها الدين الحنيف دين الله دين الإسلام. والآخر أسوء كالح يتمثل في غدر هؤلاء المشركين برجال ذهبوا إليهم رسل هداية. فكان عليهم إما أن يقبلوا دعوتهم أو يردوهم من حيث أتوا. ولكنهم لم يفعلوا إلا الغدر الذي تعلموه من عقيدتهم الوثنية التي لا تفكر إلا في الثأر والانتقام، والتي لا ترتدي إلا ثياب الوحشية والعنف.

إجلاء بني النضير عن المدينة (سنة ٤هـ)

ازدادت شماتة اليهود والمنافقين بالرسول ﷺ. وأحسَّ الرسول أن اليهود يضمرون له شرًّا وأن بقاءهم في المدينة خطر يتهدد أمنها، فلا يمكن الركون إليهم إذا تعرضت المدينة لخطر خارجي. فهم – كما يقول التعبير السياسي اليوم – طابور خامس وقد قاموا فعلًا بدور هذا الطابور فيما بعد – كما سنرى من بني قريظة. وكان بنو النضير أكثر قربًا من المدينة، وسلوكهم ينذر بالتربص بالمؤمنين، وترقبهم الفرصة للثأر لأحد كبارهم كعب بن الأشرف الذي قتله المسلمون دفاعًا عن دينهم، واتقاء لخطره الذي استفحل بما يقوله من شعر، وما يقوم به من كيد للمسلمين، وتأليب أعدائهم عليهم.

فأراد الرسول اختبار نواياهم، فذهب إليهم – وكانوا يقيمون في محلة على أطراف المدينة كعادة اليهود من التجمع في أماكن منعزلة مقفلة – يستعينهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية خطأ وكانا من قبيلة عامر المتحالفة مع اليهود. ذهب إليهم الرسول مع نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي فرحَّبوا بهم، وأجلسوهم بجوار جدار أحد حصونهم – وبيوتهم دائمًا حصون – فلاحظ الرسول حركة مريبة بين القوم؛ فهم يروحون ويجيئون، ويتجمعون ليتهامسوا ويتشاوروا فيما بينهم، ثم رأى أحدهم دخل الحصن الذي يستند إلى جداره – وكان رأي القوم قد استقر على أن يعلو أحدهم سطح هذا الحصن، ويلقى على الرسول حجرًا فيقتله ويتخلصون من. ولكن الله أوحى إلى الرسول بنيتهم، فقام وترك أصحابه الذين ظنوا أنه ذهب لبعض شأنه وسيعود. وسُقِط في يد اليهود: ماذا هم فاعلون الآن بعد أن نجا محمد؟ أيقتلون أصحابه؟ ولكن هل سيتركهم محمد؟ ثم استقر رأيهم على أن يتركوهم لعل محمدا لم يدرك مؤامرتهم، فلا بأس عليهم من التظاهر بالترحيب بأصحابه، وتجاهل ما كانوا يضمرونه للرسول.

ولكن أصحاب الرسول قلقوا من غياب الرسول، فذهبوا يستطلعون الأمر. فقابلهم أحد المسلمين فقال لهم: إن الرسول دخل المدينة.

أخبر الرسول ﷺ أصحابه بما عرفه من نية اليهود، وأنه قد قرر إجلاءهم عن المدينة فلا أمان لهم. ثم أرسل إلى بني النضير رسولا هو محمد بن مسلمة من أنصار الأوس يبلغهم أن عليهم الجلاء عن المدينة في غضون عشرة أيام، وأن من بقي منهم بعد ذلك يضرب عنقه. فقالوا له: ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس – مشيرين إلى تحالفهم معهم قبل الإسلام في حربهم الخزرج – فقال لهم: «تغيرت القلوب».

كان لهذا الإنذار وقع الصاعقة على بني النضير. فأخذوا يتشاورون ماذا يكون موقفهم، فأيد بعضهم الجلاء، واقترح بعضهم البقاء وليكن ما يكون. وبينما هم كذلك أرسل إليهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين يحرضهم على البقاء، وأنه هو وأنصاره لن يسمحوا لمحمد بإخراجهم، بل سيقاتلون معهم، وإذا اضطروا إلى الخروج فسيخرجون منهم، وأخبرهم أن معه ألفى مقاتل سينضمون إلى صفوفهم. قوى هذا الموقف قلوب بني النضير، وأجمعوا على البقاء. وانتهت مهلة الأيام العشرة.

ذهب الرسول إليهم لقتالهم، فلما رأوا جموع المسلمين تحصنوا بحصونهم التي كانت مملوءة بالسلاح والطعام. واستمر المسلمون في حصارهم عشرين يومًا قطعوا أو حرقوا في أثنائها بعض نخيلهم الذي كان يعتبر أصل ثروتهم فجزعوا لذلك، وقالوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه. فأنزل الله قرآنا يبين فيه أن ما فعله المسلمون من قطع للنخيل أو ترك إنما كان بأمر الله. وانتظر بنو النضير نصرة ابن أبي لهم ولكن دون جدوى. وألقى الله الرعب في قلوبهم فاستسلموا للرسول وقبلوا الجلاء. واشترط عليهم الرسول ألا يأخذوا سلاحهم معهم، وأما أموالهم وأمتعتهم الأخرى فليس لهم منها إلا حمل بعير لكل ثلاثة منهم. ثم خرج

جميعهم من المدينة، وعلى رأسهم زعيمهم حيي بن أخطب وذهب بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى أذرعات بالشام.

وخلف اليهود وراءهم مفاهيم كثيرة من غلال وسلاح وقد بلغ السلاح خمسين درعا، وثلاثمائة وأربعين سيفا. هذا بالإضافة إلى الأرض التي تركوها، وقد جعل الله كل مغانم بني النضير فيئًا للرسول يوزعه كيف يشاء، لأنها لم تغنم بعد حرب وقتال. وقد وزعها الرسول على المهاجرين دون الأنصار بعد أن استشار الأنصار في ذلك فسمحوا به، وأبدوا أريحية وإيثارًا مدحهم الله عليهما كما مر وكما سيأتي. وخلصت المدينة للمسلمين، وأمنوا كيد بني النضير. ولم يبق من اليهود إلا بنو قريظة الذين لم يظهر منهم حتى هذه اللحظة كيد أو تآمر ضد المسلمين.

القرآن يتحدث عن إجلاء النضير:

أنزل الله في هذا الشأن سورة كاملة هي سورة الحشر. وقد بدأها بتقرير تمجيد كل من في السموات والأرض لله، وتنزيه ذاته العلية. وصف نفسه بالعزة والحكمة. وهذه البداية ملائمة لهذا الأمر الذي لم يخطر ببال المسلمين ولا اليهود أنه يمكن أن يحدث، فقد أخرج هؤلاء الكافرين من اليهود من ديارهم، وأجلاهم عنها. وقد كان هذا الخروج وحشرهم – أي جمعهم – إلى خيبر بداية لخروج وجمع آخَرَيْنِ عندما نفاهم عمر بن الخطاب منها إلى الشام لاستمرارهم في الغدر، ونسج المؤامرات، وأكل الربا. لقد استبعد المسلمون من قبلُ خروج اليهود من ديارهم بهذه السهولة لما عرفوه من قوتهم المتمثلة في الأسلحة الكثيرة والحصون المنيعة، وما كانوا يتسمون به من مكابرة وعناد. كذلك كان ظن اليهود، فلم يخطر ببالهم أن يقهرهم أحد على الخروج، لمناعة حصونهم، وكثرة عتادهم وطعامهم الذي كان يمكن أن يكفيهم لمدة سنة – كما فكروا من قبل – لا يصبر المسلمون على حصارهم فيها، ونسي اليهود قدرة الله التي لا تستطيع قوة مقاومتها، ففاجأهم بما

لم يكونوا يتوقعون، وألقى في قلوبهم الرعب. فما قيمة أي سلاح أو حصون أو عدد أو عدة بعد ذلك؟ ويصور القرآن ما حدث في بيوتهم من خراب بسببهم فقد كانوا يخلعون الأبواب والأخشاب ويحملونها معهم، وبسبب المؤمنين الذين كانوا يخربونها ليصلوا إليهم. ويختم الله الآية بدعوة أولي العقول الراجحة أن يتعظوا بما حدث، ويعلموا أن النصر بإذن الله إذا استوفى قوم شروطه تحقق لهم، وما القوة والبأس إلا أحد أسبابه. ثم يذكر الله أنه لولا أن إرادته اقتضت أن يجلو هؤلاء القوم عن المدينة لحكمة يعلمها لأمكنكم منهم تقتلون وتأسرون وتوقعون بهم الهزيمة العسكرية المنكرة. ولكن الله ادخر لهم عذاب النار في الآخرة. وذلك بسبب منازعتهم لله وللرسول وعدائهم لهما. ومن يفعل ذلك يحل عليه عقاب الله الشديد. ثم يدحض اتهام اليهود للرسول بالفساد لأنه قطع بعض نخيلهم ويقرر أن ما فعله الرسول بهم من قطع للنخيل أو ترك لها كان بإذن الله، وذلك ليذل الله هؤلاء اليهود الفاسقين.

يقول تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ١ – ٥].

ثم تتناول الآيات بعد ذلك مسألة الغنائم، وكيف توزع. فتقرر أن غنائم بني النضير تحققت دون استخدام الوسائل المعتادة في الحروب من تحريك الخيل والجمال والالتحام بالمقاتلين وإخراجهم عنوة من أماكنهم ولكن الله ألقى في قلوبهم الرعب فاستسلموا والله يسلط رسله على من يشاء من عباده ليقهروهم فهو

على كل شيء قدير. [هذه الغنائم التي جاءت من بني النضير بهذه الطريقة البعيدة عن الوسائل الحربية أصبحت من حق الرسول يضعها حيث يشاء. وقد عرفنا أن الرسول خصصها للمهاجرين]. ثم يقرر الله بعد ذلك أن ما يغنمه الرسول من أهل القرى الذين يحاربهم يكون فيه نصيب لله وللرسول ونصيب لذوى قربى الرسول ﷺ واليتامى والمساكين، والمنقطعين من المسافرين الذين لا مال لهم. ويذكر الله الحكمة في هذا التوزيع وهي ألا يكون المال متداولا بين الأغنياء وحدهم إذا ترك الأمر دون تحديد لأن الغنى تتبعه القوة فيأخذ الأغنياء الغنيمة كلها لأنفسهم ويترك الفقراء كما كان يحدث في الجاهلية ثم يدعو المسلمين إلى طاعة الرسول. ثم يخصص الله من غنائم بني النضير جزء الفقراء المهاجرين ويذكر سر ذلك وهو أنهم اضطروا إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم وذلك ابتغاء رضا الله عنهم ونصرة رسوله وهم صادقون في إيمانهم. ثم يثنى الله على الأنصار الذين رضوا بقسمة الرسول ووافقوا على رأيه دون حسد أو حقد على المهاجرين. ووصفهم بالإيثار فيعطون مالهم للمهاجرين ولو كانوا في أشد الحاجة إليه. وقد نالوا بسبب كرمهم هذا الفوز والفلاح ثم يذكر خصيصة من خصائص المسلم وهي أنه ينظر إلى من سبقه من المسلمين نظرة تقدير واحترام، ويدعو الله لهم ولنفسه بالمغفرة من الله وهي أعظم ما يطلبه المسلم لأنه بها ينال رضوان الله وجنته، ويسأله أن ينزع من نفسه الغل والحسد لهؤلاء المؤمنين الذين كان لهم فضل السبق عليه إلى الإيمان.

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ[1] عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ

---

(١) تحركتم بسرعة لاقتحام المعركة.

ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ
فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ
وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ
وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا
ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ
﴿١٠﴾﴾[الحشر: ٦ – ١٠].

تبين الآيات بعد ذلك موقف أهل النفاق من اليهود فيحكي القرآن ما قالوه لإخوانهم من كفار اليهود بأنهم سيقفون معهم فإذا أخرج محمد بني النضير فسيخرجون معهم معادين لمحمد وأصحابه وإن قاتلهم محمد فسينصرونهم ضده، ولكن الله يشهد أن هؤلاء المنافقين كذبة فلن يفعلوا شيئًا مما وعدوا به بل سيفعلون ضده، فغذا أخرج اليهود فلن يخرجوا معهم، وإن حدث قتال فلن يشتركوا في نصرتهم. ولو قاتلوا إلى جانبهم فلن يثبتوا في المعركة بل سيولون منهزمين عند الصدمة الأولى، ولن ينصرهم الله أبدًا.

يقول تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾[الحشر: ١١ – ١٢].

ولنتأمل اللفظ القرآني «لإخوانهم» فهذا اللفظ يوحي بشدة التصاقهم بهم، ومظاهرتهم لهم. ومع ذلك لم يجرءوا على تحقيق ما يقولون خوفا وجبنا. وكذلك التعبير القرآني: «ولن نطيع فيكم أحدا أبدا». الذي يدل على مدى تحديهم للرسول ﷺ باللسان فقط، ولكنهم كانوا أجبن من أن يتحدوه بالفعل.

ثم يصور الله الحالة النفسية لليهود، وجبنهم، وطريقتهم في القتال، واتساع

رقعة النزاع بينهم، ومدى ما هم فيه من تفرق مستتر. فيذكر أن رهبتهم من المسلمين تملأ صدورهم وأنهم يخشونهم أكثر مما يخشون الله – إذ لو كانوا يخشون الله لآمنوا بما في كتبهم من تأكيد لنبوة محمد – وسبب ذلك يرجع إلى عدم فقههم للأمور، وتغليبهم حب العاجلة على الآجلة. ويذكر أنهم لا يستطيعون مواجهة المسلمين في القتال لجبنهم فلا يقاتلونهم إلا في حصونهم، ومن وراء جدر تحميهم من الموت. ولا يغرنك ما يظهرونه من اتحاد وتماسك فيما بينهم فإن العداوة بين بعضهم لا تهدأ، تظنهم مجتمعين على أمر بينما هم في واقع الأمر مختلفون متنازعون وذلك بسبب عدم عقلهم للأمور التي أبسطها العمل بالكتاب الذي أنزله الله عليهم فيه هدى ونور فنبذوه وراء ظهورهم ثم يشبههم ببني قينقاع في عداوتهم للرسول، وفي عاقبة أمرهم حيث ذاقوا عاقبة تمردهم وعصيانهم وهو الجلاء عن المدينة. ولهم في الآخرة عذاب أليم. ثم يصورهم جميعًا في خلافهم للرسول برجل أغواه الشيطان، ودفعه إلى الكفر. حتى إذا تحقق غرض الشيطان منه تبرأ منه مدعيا أنه يخاف الله رب العالمين. فكانت عاقبة الشيطان والكافر معا أنهما دخلا النار مخلدين فيها بسبب ظلمهما. فالنار جزاء كل ظالم.

يقول تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [1].

وبهذه الآيات ينتهي التناول القرآني المباشر لإجلاء بني النضير.

---

(١) الآيات (١٣/ ١٧).

خواطر حول الإجلاء:

١ - اليهود هم ألد أعداء المسلمين في كل زمان ومكان، تاريخهم حتى العصر الحديث يثبت ذلك وصدق الله إذ يقول: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ ﴾ [المائدة: ٨٢]. والموادعة والمهادنة لا يجديان معهم شيئًا بل يزيدانهم ضراوة وشراسة. ومن عجب أن مسلمي هذا العصر لم يعوا هذا الدرس. ولو أن المسلمين يقرءون سيرة نبيهم قراءة تأمل وتمعن، ويسيرون على هديها لاستطاعوا أن يحدوا من خسائرهم أمام اليهود.

٢ - اليهود في كل زمان ومكان يتسمون - كما وصفهم القرآن بالجبن الناشئ عن حبهم للحياة ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [البقرة: ٩٦]، لذلك لا يقاتلون إلا وراء تحصينات محكمة، ولا يقدرون على المواجهة والالتحام. وخط «بارليف» في عصرنا شاهد على ذلك. فإذا أراد المسلمون التغلب عليهم فليضطروهم إلى المواجهة بكل وسيلة ممكنة.

٣- من عوامل هزيمة اليهود أمام المسلمين الأوائل ما وصفهم الله به في قوله: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (الحشر: ١٤). وهذا عامل يؤدي إلى هزيمة أي جيش في أية معركة. ومما يحزن أن هذا العامل سيطر على المسلمين العرب في عصرنا، فهم - على الرغم مما يزعمون أنهم أمة واحدة وأنهم أشقاء - تراهم في واقع الأمر متنازعين متنافرين يتربص كل حاكم من حكامهم بأخيه الدوائر لينشب فيه أظافر أطماعه وأحقاده ولهذا انهزموا أمام أعدائهم في معظم المعارك التي خاضوها. وقد يخفف من هذا الحزن ويدفع إلى الأمل أن الشعوب ليست كذلك ويوم يكون الحكم للشعوب في العالم الإسلامي عن طريق

الشورى التي أوجبها الإسلام سيكون لهم مع أعدائهم شأن آخر.

٤- من أخطر ما يخشى على مسلمي اليوم المنافقون وهم - مع الأسف كثيرون - ونراهم متمثلين في جمعيات تحمل عناوين براقة ظاهرها فيه السلام والإنسانية وباطنها يمور بعداوة الإسلام والكيد له، وكذلك في أفراد أتيح لهم حظ من الشهرة، وقدرة على لَيِّ عنق الحقيقة. هؤلاء وأولئك يحاولون توهين قوى المسلمين، وحملهم على الاستسلام لإسرائيل بتخويفهم من قوتها النووية، ومعاضدة أمريكا لها. وينساق كثير من المسلمين لأفكارهم ناسين قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾.

٥- الاستعانة بأعداء المسلمين في المواقع الحساسة مثل السلاح والطاقة الذرية والأقمار الصناعية أمر خطير قد يؤدي إلى كارثة مهما كانت خبرة هؤلاء الأعداء. والواجب كما علمنا الرسول أن نُعلِّم فريقًا من أبنائنا وندربهم على إدارة هذه الأمور، وإنتاجها والهيمنة الكلية عليها. وبذلك نصون أسرارنا العسكرية والسياسية من أن يطلع عليها الأعداء. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة عندما ترك الاستعانة باليهودي الذي كان يكتب له رسائله بالعبرية والسريانية وأمر زيد بن ثابت بتعلم اللغتين فتعلمهما وأصبح كاتب سره.

انتصارات متتابعة:

عاد الرسول ﷺ وصحبه إلى المدينة بعد إجلائهم بني النضير عن أطرافها، وقد عادت إليهم هيبتهم بين العرب بعد أن اهتزت في عقب أحد، وما تلاها من غدر وخيانة، واستراحوا بها عدة أشهر. ولكن الرسول دائم التيقظ لما يدبر حوله من قبائل العرب ضد المسلمين. فعلم أن قبائل غطفان تعد لحرب ضد

المسلمين. وكان الرسول ﷺ يأخذ دائما زمام المبادرة. فلا يكاد يسمع أن هناك كيدا من يكاد جهة إلا بادر إليها ليبطل هذا الكيد قبل وقوعه. وهكذا بدأت:

غزوة ذات الرقاع (سنة٤هـ):

وقد اختُلف في سبب هذه التسمية فقيل: لأن المسلمين رفعوا راياتهم. وقيل: لأن هناك شجرة تعرف بذلك. أو لأن المسلمين أتعبهم السير في الأرض فكانوا يلفون أقدامهم في رقاع. وكانت في مكان يقال له «نخل» وهو موضع بأرض نجد خاص بغطفان.

وعندما سمع المشركون بمقدم الرسول ملأ قلوبهم الرعب، وتركوا له المكان وما فيه من مواشيهم. فغنم المسلمون منها ما استطاعوا وقرروا العودة إلى المدينة ولكنهم تخوفوا رجعة غطفان عليهم فأقاموا مستعدين للقائهم. ولكن لم تحدث إلا محاولات فردية انتهت بالفشل ودلت على مدى تمكن الرعب من قلوب هؤلاء الناس. كما دلت على هيبة الرسول ﷺ في نفوسهم. وشجاعة المسلمين الخارقة.

فقد حاول رجل منهم قتل الرسول. فأقبل إليه وهو جالس، وسيفه في حجره فقال: يا محمد، انظر إلى سيفك هذا؟ - وكان محلى بفضة - قال: نعم، فأخذه فاستله ثم جعل يهزه محاولًا توجيهه إلى الرسول فتخذله يده. ثم قال: يا محمد، أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: لا، يمنعني الله منك. ثم عمد إلى سيف رسول الله فرده عليه.

فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة: ١١].

وبينما كان رجلان من المسلمين يحرسان الرسول وصحبه ليلا حاول رجل

من غطفان أن يقتل أحدهما – وكانا قد تقاسما الحراسة يحرس أحدهما أول الليل ويحرس الآخر آخرة وكانت النوبة للأول وكان يصلي والآخر نائم – فرماه الرجل لسهم فوضعه فيه. فنزعه المسلم من موضعه وظل واقفا. فرماه بسهم آخر ففعل مثلما فعل بالأول. فعادله بالثالث فنزعه ثم ركع وسجد ثم أيقظ صاحبه فقال: اجلس فقد أصبت. فوقف صاحبه فلما رأى المتسلل أنها اثنان هرب. ولما رأى الرجل ما بصاحبه من جراح. قال: سبحان الله. أفلا أيقظتني أول ما رماك ؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أُنْفذها فلما تتابع علىَّ الرمي ركعت فأيقظتك. [شجاعة رائعة قد لا يصدقها من يقيس الأمور بمقاييس الدنيا والمصالح والمنافع. ولكن للإيمان – إذا تمكن من قلب إنسان – مقاييس أخرى تجعل المؤمن يستعذب أقسى الضربات في جانب رضا الله.

وفي هذه الغزوة صلى الرسول ﷺ بأصحابه صلاة الخوف فكان يقسم الجيش نصفه يصلى معه نصف الصلاة، والنصف الآخر يحرس. ثم يذهب للحراسة لكي يصلى من كانوا يحرسون، مع الرسول نصف الصلاة الآخر. ثم يرجعون للحراسة. ويتم الفريق الأول صلاته، ويعود للحراسة ليتم الفريق الآخر صلاته.

العودة إلى بدر:

عاد المسلمون إلى المدينة بعد أن اطمأنوا إلى أن غطفان لن تحاول الإغارة عليهم فأقاموا بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا. ثم خرج الرسول في شعبان من السنة الرابعة لموعد أبي سفيان في بدر. فقد قال أبو سفيان للمسلمين بعد انتصاره عليهم في أحد: «يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل». واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أُبي الذي كان حسن الإسلام على عكس أبيه. تذكر الرسول ﷺ هذه الدعوة وأراد أن يثبت لأبي سفيان أن المسلمين لا يخشون بأسهم.

وكان العام عام جدب وكان أبو سفيان يود لو يؤجل اللقاء إلى عام آخر فبعث

رسولًا إلى المدينة يقول للمسلمين: إن قريشا جمعت جيشا لا قبل لجيش في العرب بمواجهته لتحاربهم به حتى تقضى عليهم. وبدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطر، فأظهر كثير منهم رغبة في عدم الخروج إليهم، ولكن الرسول أصر على الخروج ولو ذهب إلى بدر وحده. فانقاد المسلمون لإرادته.

أقام الرسول ﷺ بماء بدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان. ولكنْ أبو سفيان لم يحضر. فقد خرج في أكثر من ألفين من أهل مكة. وفي منتصف الطريق بدا له الرجوع. فقال يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب تزرعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن. وإن عامكم هذا عام جدب. وإني راجع فارجعوا. فرجع الناس. فسماهم أهل مكة: جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

رجع الرسول وأصحابه إلى المدينة موفورين، قد أظهروا قوتهم أمام مشركي مكة وغيرهم وأظهروا جبن أبي سفيان وصحبه للعرب. وأزالوا ما خلفته هزيمة أحد عنهم.

غزوة دومة الجندل (سنة ٥هـ):

ولم يلبث رسول الله ﷺ إلا قليلا حتى استنفر صحبه إلا غزوة أخرى هي غزوة دومة الجندل -- وهي واحة على حدود الحجاز مع الشام تقع في منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج الفارسي. وعندما وصل إلى هناك. وسمع به أهلها الذين كان دأبهم الإغارة على القوافل المارة بالقرب منهم -- ألقى الله الرعب في قلوبهم، ففروا تاركين وراءهم ما يملكون من أنعام وأموال غنيمة للمسلمين. وعاد المسلمون إلى المدينة تعلوهم رايات الفوز ليقيموا بها مرهوبي الجانب، موفوري الكرامة إلى أن يحين موعد لقائهم بقريش الذي أجله أبو سفيان إلى عام قادم، عام خصيب.

إن هذه الغزوات الثلاث أثبتت عدة أمور:

١- حرص الرسول ﷺ على بذل كل جهد في سبيل إبلاغ هذه الدعوة إلى كل مكان يمكنه الوصول إليه، وإطاعته أمر ربه الذي أمره بجهاد الكفار والمنافقين في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التحريم: ٩].

٢- أن الهجوم خير وسيلة للدفاع؛ فلم يكن الرسول ينتظر حتى يهاجمه الأعداء الذين يعدون لذلك. بل يباغتهم بالهجوم الذي يشل حركتهم، ويملأ قلوبهم رعبا فيفرون تاركين له الساحة. ومن أجل هذا كان الرسول ﷺ يقول: نصرت بالرعب.

٣- إخلاص المسلمين لدينهم ونبيهم وتضحيتهم في سبيله بكل ما يملكون. وإذا أبدوا رأيًا فيه تأجيل المعركة فهو مجرد رأي يعرضونه أمام الرسول ولكن رأى الرسول هو الذي يَنْفَذ ويُنَفَّذ بمحبة وتفانٍ واستبسال.

٤- بلغ نفوذ الدعوة الإسلامية مدى بعيدا. وعرف قدرة المسلمين وشجاعتهم القاصي والداني من سكان الجزيرة العربية. فهاهم أولاء أهل دومة الجندل لا يكادون يسمعون بمقدم المسلمين حتى يفروا خوفا من بطشهم.



غزوة الخندق (في شوال سنة ٥هـ)

هدأ المسلمون في مدينتهم بعد عودتهم المظفرة من دومة الجندل. ولكن الشر حولهم لم يهدأ. وكان يتزعم الشر هذه المرة ثلاثة زعماء من بني النضير الذين لم ينسوا طردهم من المدينة، فقرروا أن يؤلبوا على المسلمين كل من يستطيعون. هؤلاء الثلاثة هم حي بن أخطب وسلام بن أبي الحقَيْق وكنانة بن أبي الحُقَيْق وتضامن معهم بعض زعماء العرب. ذهب هؤلاء الزعماء إلى أعداء محمد الموتورين منه وبذلوا كلما يستطيعون معهم لتأليف حلف ضد محمد ليحاربوا محمدا، ويقضوا عليه قضاء مبرما هو ودعوته. وقد ضحى اليهود في سبيل إنجاح هذا الحلف بمبادئهم الدينية، وما ورثوه من أنبيائهم من تعاليم وعقائد. فقد كان اليهود دعاة توحيد يؤمنون بإله واحد، وينفرون كل النفور من الوثنية، وعبادة آلهة متعددة. ولكن عندما سألهم زعماء قريش – وهم يدعونهم إلى التحالف معهم لحرب محمد – أديننا خير أم دينه؟ قالت اليهود بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه فأنزل الله قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ (١) وَٱلطَّـٰغُوتِ (٢) وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: ٥١ – ٥٢].

سُرَّ المشركون لسماعهم رأي اليهود في دينهم، ونشطوا لحرب محمد، وأخذوا يعدون العدة لذلك. وبعد نجاح اليهود في ضم قريش إليهم ذهبوا إلى قبيلة غطفان. فدعوهم إلى حرب الرسول ﷺ– وتضم غطفان مجموعة من القبائل – وما زالوا يحرضونهم على الأخذ بثأرهم من محمد، وذكروا متابعة قريش إياهم على حرب محمد، وأكدوا لهم أن النصر آت لا محالة حتى وافقوا.

---

(١) (٢) كل ما يعبد من دون الله.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب. وخرجت قبائل غطفان على رأس كل قبيلة قائد وكان مجموع جيوشهم نحو عشرة آلاف معهم عُدتهم المناسبة.

سمع المسلمون بالمدينة بَمجيء هذه الجموع التي أطلق عليها الأحزاب ففزعوا لذلك، أو على حد التعبير القرآني: «وزلزلوا زلزالا شديدا». وأخذ الرسول ﷺ يفكر في الأمر. لقد كان من رأيه في غزوة أحد أن يتحصن بالمدينة. ولكن حماسة بعض أصحابه دفعتهم إلى الخروج لملاقاة الأعداء وكانت الهزيمة. فلا بد إذن من البقاء بالمدينة، والتحصن بها. وأخذ الرسول يشاور أصحابه في ذلك. وكان فيهم سلمان الفارسي الذي أشار على الرسول بحفر خندق على حدود المدينة يصد الأعداء عنها. فراقت الفكرة الرسول فوافق عليها. وبدءوا ينفذونها وشارك المسلمون جميعهم في الحفر إلا بعض ضعاف الإيمان الذين كانوا يختلقون الأعذار لينصرفوا. وكان الرسول ﷺ يحفر معهم.

كانت قريش ومن منها تتوقع الرسول والمسلمين عند أحد، فلما لم يجدوهم تقدموا نحو المدينة ففوجئوا بالخندق حول المدينة. فامتلأت قلوبهم غيظا وقالوا: هذه والله مكيدة لم تكن تعرفها العرب. لقد جاءوا يمنون أنفسهم نصرًا سريعا ينقلبون بعده إلى أهليهم مسرورين بما أحرزوا من نصر، وبقضائهم على محمد ودعوته. ولكن هذا الخندق قلب موازينهم.

عسكرت قريش ومن تابعها بمكان يعرف بمجتمع الأسيال من رومة. وعسكرت غطفان ومن اتبعها من نجد بمكان يدعى (ذنب نقمي) وأما الرسول ﷺ فخرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فجعل ظهره إلى هضبة سلع، وجعل الخندق بينه وبين أعدائه.

وقد حاول الرسول ﷺ أن يفرق بين الأحزاب فبعث إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف قائدي غطفان يعرض عليهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا

بمن معهما عنه وعن أصحابه. فوافقا على ذلك. وقبل أن يتم توقيع هذا الصلح بعث ﷺ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيدي الأوس والخزرج يستشيرهما في ذلك. فقالا له: يا رسول الله، أهذا أمر تحبه فننفذه لك؟ أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيء تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم. والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة. وتألبوا عليكم من كل جانب. فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه. وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرًى[1] أو بيعا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزنا به وبك نعطهم أموالنا. والله ما لنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال ﷺ فأنت وذاك. فمحا سعد ما في صحيفة الصلح من كتابة.

وقف المشركون عاجزين أمام الخندق لا يستطيعون اجتيازه. فلم يكن بين الجيشين إلا الرمي بالنبال والحجارة. وقد حاول بعض فرسان المشركين أن يجدوا ثغرة ينفذون منها، وكان منهم عمرو بن عبدود من بني عامر القرشي وأحد فرسان العرب المعدودين. فوجدوا مكانًا ضيقًا في طرف الخندق. فضربوا خيلهم فاقتحمته، وجالت بهم في السبخة بين الخندق وجبل سلع الذي اصطف أمامه المسلمون. فخرج إليهم علي بن أبي طالب في جماعة من المسلمين. فلما رآهم عمرو بن عبدود قال: من يبارز؟. فبرز له علي بن أبي طالب، وقال له: يا عمرو ألست كنت تقول: لا يدعوني أحد إلى خصلتين إلا اخترت واحدة منها؟ قال: بلى. قال: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. قال علي: فإني أدعوك إلى النزال. قال له: لم يا ابن أخي؟ فو الله ما أحب أن أقتلك. قال

---

(١) ضيافة.

علي: ولكني والله أحب أن أقتلك. فحمى عند ذلك عمرو، فنزل عن فرسه. فتنازلا وتجاولا. فقتله علي. وفر بقية أصحابه حتى اقتحموا الخندق عائدين.

مضت أيام على الحصار، ودب القلق في نفوس المشركين، فلم يكن هذا في تخطيطهم والشتاء قارس، والجو عاصف، وليس يحميهم إلا خيام لا تصمد طويلًا إذا اشتدت العواصف. وضاعف من قلقهم أن بني قريظة – وحصونهم على مشارف الخندق وجزء متمم له – في حلف مع المسلمين، وكانوا يمدونهم بحاجتهم من الطعام وغيره. فالحصار مهما طال – لن يضرهم كثيرا.

أحس حيي بن أخطب الزعيم اليهودي بما يعتمل في نفوس المشركين من قريش وغطفان، وخشى أن يؤدي هذا القلق – إذا لم يجد ما يزيله – إلى انسحابهم من المعركة فتضيع الفرصة التي ضحى من أجلها بدينه، فرصة تجميع العرب ضد محمد مرة أخرى. فألقى بآخر سهم في جعبته ليزيل عنهم هذا القلق. فقد وعدهم أنه سيضم إليهم بني قريظة. وبهذا لن يطول حصارهم، وسيتمكنون من طريق بني قريظة دخول المدينة والقضاء على المسلمين.

سر المشركون لهذا الاقتراح وهدأت مخاوفهم.

خرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي زعيم بني قريظة. فلما عرف كعب عزمه على المجيء أغلق دونه باب حصنه. فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناده حيي: ويحك يا كعب افتح لي. قال: ويحك يا حيي، إنك رجل مشئوم. وإني عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء، وصدقا. قال: ويحك افتح أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال حيي: والله ما أغلقت بابك دوني إلا خوفك من أن أشركك في طعامك. فاغتاظ كعب ففتح له. فقال له حيي: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر، وببحر طامٍ(١). جئتك بقريش مع قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على سادتها وقادتها

---

(١) يقصد جيشا عظيما.

حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمي إلى جانب أحد. قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه. قال له كعب: جئتني والله بذل الدهر. جئتني بجهام[١] يرعد ويبرق وليس فيه ماء. فدعني – يا حيي – وما أنا عليه. فإني لم أر من محمد إلا صدقاء ووفاء.

فما زال حيي به حتى استجاب له، بعد أن أعطاه حيي عهد الله وميثاقه: لئن رجعت قريش وغطفان دون أن يحققوا النصر على محمد أن يدخل مع كعب في حصنه فيصيبه ما أصابه. فرضي كعب ونقض عهده مع رسول الله ﷺ. لقد غلبت عليه يهوديته، وشدة عدائه المستتر للمسلمين بعد أن رجح لديه فوز الأحزاب على المسلمين.

سمع رسول الله ﷺ بنقض قريظة العهد، فأراد أن يتأكد من صحة الخبر. فأرسل سعد بن معاذ سيد الأوس – وكانوا حلفاء لقريظة – وسعد بن عبادة سيد الخزرج مع نفر من الصحابة ليستطلعوا الأمر من بني قريظة. وطلب منهم – إذا كان الخبر صحيحا – ألا يعلنوه أمام المسلمين كي لا يفتوا في عضدهم، بل يُوَرُّون بالكلام – أي يقولون كلاما خفيا يفهمه الرسول. وإن كانوا على الوفاء بعهدهم فعليهم أن يجهروا بالخبر ليطمئن المسلمون. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم يظهرون أخبث النوايا لمحمد والمسلمين. وأخذوا يسبون الرسول، ويقولون: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فأخذ سعد بن معاذ يشتمهم وهم يشتمونه فقال له سعد بن عبادة: دعهم فالأمر بيننا وبينهم أكثر بكثير من هذه المشاتمة، ثم رجعوا إلى رسول الله فقالوا له: «عضل والقارة» – أي أنهم غدروا كما غدرت عضل والقارة يوم الرجيع – فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر. أبشروا يا معشر المسلمين.

---

(١) سحاب.

عظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وجاءهم الأعداء من كل جانب ولعبت الظنون برءوس المؤمنين. وظهر النفاق صريحا من بعض المنافقين حتى قال أحدهم: إن محمدا كان يعدنا أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وقال آخر على ملأ من رجال قومه: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة – أي مكشوفة للعدو – فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دورنا فإنها خارج من المدينة. بينما هو وقومه لا يريدون إلا الفرار من المعركة وليست دورهم مكشوفة للعدو كما زعموا.

وكان الموقف داخل المدينة موقف ترقب قلق. لقد جُمِع النساء والصبيان ومن لا يقدر من الشيوخ في بعض المنازل الحصينة التي كانت يطلق عليها الحصون أو الآطام. وأخذ بعض اليهود يجوسون خلال الديار يستكشفون عورتها فتروي صفية بنت عبد المطلب أنها كانت في «فارغ» حصن حسان بن ثابت فرأت يهوديا يسير بجوار الحصن. فقالت لحسان: إن هذا اليهودي يُطيف بالحصن وإني – والله – ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من اليهود، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا فأنزل فاقتله. قال حسان: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب. والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فأخذت صفية عمودا، ونزلت من الحصن، وضربت به اليهودي حتى قتلته. فلما رجعت قالت: يا حسان انزل إليه فاسلبه – أي خذ ما معه من سلاح وثياب – فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. قال حسان: يا بنت عبد المطلب ما لي من سلبه من حاجة.

ولكن الله لا يترك رسوله وعباده المخلصين المجاهدين في سبيله طويلا تحت رحمة أعدائهم – طالما أنهم لم يقصروا في الحيطة والاستعداد – فهيأ الأسباب لإنزال هزيمة قاسية بالأحزاب. وكان أول هذه الأسباب أن جاء رجل إلى رسول الله ﷺ اسمه نعيم بن مسعود من غطفان. فقال: يا رسول الله، لقد أسلمت، ولم يعلم بإسلامي أحد من قومي. فمرني بما شئت .. قال الرسول له: إنما أنت فينا

رجل واحد. فخَذِّلْ عنا إن استطعت. فإن الحرب خدعة. فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة – وكان لهم نديما في الجاهلية – فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم: البلد بلدكم فيه أموالكم ونساؤكم وأبناؤكم لا تقدرون أن تتحولوا عنه إلى غيره. وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه. والبلد ليس بلدهم ونساؤهم وأموالهم بلد آخر. فإن كانت الهزيمة لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به. فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم فهم يكونون بين أيديكم حتى تضمنوا ألا يتخلى عنكم القوم فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لهم: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا. وإنه قد بلغني أمر قد رأيت على حقا أن أخبركم به نصحا لكم. فاكتموا عني. فقالوا: نفعل. قال: اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا من نقض العهد مع محمد. وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا. فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم نسلمهم إليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم؟ وقد وافق محمد. فإن بعثوا إليكم يلتمسون منكم رهائن فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا. ثم ذهب إلى قبيلته غطفان وقال لهم مثل ذلك، ولكي ينجح الله كيد نعيم جعل أبا سفيان وقادة غطفان يرسلون رسلا إلى بني قريظة ليلة السبت يطلبون منهم أن يستعدوا لقتال محمد غدا لأن الأحزاب ملوا المقام وهلك رأيهم الخف والحافر. فردوا عليهم إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا كي لا ينتقم الله منا كما انتقم من أسلافنا الذين اعتدوا في السبت. ثم تذكروا وصية نعيم لهم، فأردفوا قائلين: ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهائن من رجالكم؛ فإنا نخشى إذا اشتد عليكم القتال أن تعودوا إلى بلادكم وتتركونا لمحمد، ولا طاقة لنا به. فلما عاد

الرسل إلى قريش وغطفان بهذا القول قالوا: قد صدق نعيم. وأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لن نرفع لكم رجلا واحدا من رجالنا. فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة: لقد صدق والله نعيم. وأصر كلا الطرفين على موقفه. واستحكم الخلاف بينهم.

الريح العاصفة تنهي الحصاد:

ثم كان السبب الآخر لانتصار المسلمين هو إرسال الله ريحا عاصفًا على المشركين المحاصرين للمدينة. فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح آنيتهم، وتقتلع خيامهم. ففزع المشركون، وامتلأت نفوسهم رعبًا. وخشوا أن ينتهز المسلمون الفرصة ليعبروا إليهم، ويعملوا فيهم سيوفهم. فقام طلحة بن خويلد فنادى: إن محمدا قد بدأكم بشر فالنجاة النجاة. وقال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع(١)، والخف(٢)، وأخلفَنا بنو قريظة، وبلغنا منهم ما نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون. فارتحلوا إني مرتحل.

فأخذ القوم معهم ما خف حمله. وسمعت غطفان بما فعلت قريش فارتحلوا راجعين إلى بلادهم. وقد قتل من المسلمين في الخندق ستة ومن المشركين ثلاثة.

ولما أصبح الرسول ﷺ، ورأى رحيل القوم، انصرف عن الخندق هو والمسلمون راجعين إلى المدينة، وهم يحمدون الله على ما أولاهم به من دحر الأعداء، وإبطال كيدهم. وقال الرسول معقبا على فرارهم: لن تغزوكم قريش بعدها أبدًا، وكلتكم تغزونهم.

✿✿✿

---

(١) الخيل.

(٢) الإبل.

غزوة بني قريظة (سنة ٥هـ)

لم يكد يستقر المقام برسول الله ﷺ بالمدينة حتى أعلن المسلمين عن عزمه على غزو بني قريظة وكان الوقت ظهرًا. فأمر مؤذنا يؤذن في الناس أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

لقد تعلمنا من تاريخ الرسول ﷺ أسلوبه الحازم في مواجهة الأعداء، وكان هذا الأسلوب يسترشد بمنارتين: وحي الله الذي يسدد خطاه دائما، وبصيرته الثاقبة التي تنفذ إلى خفايا الأمور وبواطنها فتدرك الخطر قبل وقوعه، وتعمل على درئه. لذا لم يكن من الممكن أن يترك الرسول ﷺ هؤلاء الخونة الغادرين يحيطون بالمدينة، وينفثون سمومهم بين العرب لاستئصال شأفة الإسلام. إن الموقف الذي اتخذه بنو قريظة لو لم يفسده الله عليهم بمكيدة نعيم لانقلب ميزان المعركة، ولم يعد الخندق كافيا لصد هجمات الأعداء. فإنهم سيدفقون إلى المدينة من خلال حصون بني قريظة. فكان لا بد من اتخاذ موقف حاسم ضد يهود بني قريظة.

حصار بني قريظة:

خرج الرسول ﷺ من المدينة – وقد تقدمه علي بن أبي طالب براية المسلمين– واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. وتسارع الناس مع علي إلى حصون بني قريظة. فلما رأوا جيش المسلمين أخذوا يسبون الرسول سبًّا قبيحًا. فخشى عليٌّ أن يصل الرسول فيسمع سبابهم. فرجع إليه ورجاه ألا يقترب من حصونهم. فقال له الرسول: ولم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى. قال نعم يا رسول الله. قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا. فلما دنا رسول الله من حصونهم قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا.

وحاصرهم رسول الله خمسا وعشرين ليلة [ويقال خمس عشرة] حتى جهدهم

الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب. وقد كان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يقاتلهم قال كعب بن أسد لهم: قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا خذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، ليس وراءنا ما نخاف عليه حتى يحكم الله بيننا وبين محمد. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم علي هذه أيضا، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: تفسد علينا سبتنا، وتحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ. قال كعب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما.

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر – من الأوس وكانوا حلفاء لهم – ليستشيروه في أمرهم فأرسله إليهم. فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكى إليه الصبيان والنساء. فرقَّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. – وأشار بيده إلى حلقه إشارة تبين أن الحكم هو الذبح – ولم يدرك أبو لبابة خطأه الجسيم الذي وقع فيه بهذه الإشارة إلا بعد فوات الأوان. وندم على فعلته ندما جعلته لا يأتي رسول الله، بل يذهب إلى المسجد، ويربط نفسه فيه حتى يعفو الله ورسوله عنه. وفيه نزل قول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ

تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١).

ولما عرف الرسول خبر أبي لبابة – وكان قد استبطأه – قال: أما والله لو كان قد جاء إليَّ لاستغفرت الله له. فأما إذ قد فعل ما فعل فلن أطلقه حتى يتوب الله عليه. وقد ناب الله عليه في آية من سورة التوبة هي قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢).

لم يجد اليهود بدًّا من أن ينزلوا على حكم الرسول ﷺ بعد ما فشلوا في طلب العفو عنهم على أن يرحلوا إلى أذرعات بالشام. وقد أرسلوا إلى حلفائهم من الأوس يطلبون منهم التوسط لدى الرسول ليعاملهم معاملة بني قينقاع فيحقن دماءهم ويسمح لهم بالرحيل. وقد حاول الأوس ذلك فعلًا مع رسول الله وقالوا له: لقد عفوت عن حلفاء الخزرج من اليهود. أفلا تعامل حلفاءنا مثلهم؟ فقال لهم: يا معشر الأوس ألا ترضون أن أحكم فيهم رجلا منكم؟ قالوا: بلى. فاختار حكمًا سعد بن معاذ. وكانت هذه رغبة اليهود طمعًا في أن يعفو عنهم. وكان سعد قد أصابه سهم من المشركين عند الخندق وكان يعالج من جراحه التي توفي بعد ذلك من تأثيرها، وقد حاول رجال من الأوس أن يستعطفوا سعدا على اليهود. وقالوا له: أحسن في مواليك. فإن رسول الله لم يولك ذلك إلا لتحسن إليهم. فقال لهم: لقد آن لسعد ألا يخشى في الله لومة لائم. فعلموا أنه لن يحكم لصالحهم.

وأحضر سعد من خيمة رُفَيْدَةَ التي كان يعالج بها. وأنزل اليهود من حصونهم وأخذ سعد المواثيق على المسلمين واليهود أن يرضوا بحكمه أيا كان فوافقوا فحكم بأن يقتل المقاتلة، وتسبي النساء والأطفال، وتقسم الأموال. فقال رسول الله ﷺ: لقد رضي بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أمرت ثم خرج إلى سوق

---

(١) الآية (٢٧).

(٢) هذه رواية، ولكن الرواية الراجحة أن الآية نزلت في المتخلفين عن غزوة تبوك.

المدينة فأمر بحفر خنادق ثم جيء باليهود جماعة بعد جماعة فضربت أعناقهم ودفنوا فيها. وتطهرت المدينة بذلك من رجس اليهود وطأطأ النفاق رأسه، وخنس في جحره. وامتلأت قلوب العرب جميعا بهيبة المسلمين.

القرآن يتحدث عن الأحزاب وقريظة:

أنزل الله سورة سماها باسم «الأحزاب» تناول فيها طرفًا من أحداث الغزوتين. وكما قلت - سابقا - القرآن لا يقص تاريخا، ولا يهتم بتفصيلات، ولا يذكر أسماء. بل يلتقط مشاهد يكون فيها العظة والعبرة والدروس التي تربى الجماعة المسلمة.

تبدأ الآيات بتلخيص موجز لبداية المعركة ونهايتها بعد تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم عندما حاصرهم جيش الأعداء فأرسل عليهم الريح العاصفة والجنود الخفية فولوا الأدبار. وحقق للمسلمين النصر لأنه كان بصيرًا بعملهم وإيمانهم بعد هذا الإجمال المعبر يبدأ القرآن في رسم صورة للموقف، صورة حية كأننا نعيشها اليوم، فقد أحاط بهم الأعداء من كل جانب فقريش من ناحية، وغطفان من ناحية أخرى، وقريظة من ناحية ثالثة. ثم يصور الكرب العظيم الذي شمل المسلمين والذي تمثل في زيغ الأبصار فلا تكاد تثبت على شيء، وفي الإحساس بالموت مجسدا فقد انخلعت القلوب، ووثبت من مكانها حتى بلغت حناجرهم ولم يبق إلا ثوانٍ لتخرج من أفواههم، وبدأت الظنون تساورهم في وعد الله لهم بالنصر.

في هذا الوقت كان ابتلاء الله للمؤمنين الذين هزتهم تجمعات العرب واليهود ضدهم فزلزلت كيانهم، وأما المنافقون فقد أظهروا نفاقهم غير مبالين بالمؤمنين وساخرين من وعود الرسول لهم بملك كسرى وقيصر بينما هم - كما يقولون - لا يأمنون أن يذهبوا إلى الغائط. وتحاول طائفة أخرى منهم أن تشيع الهزيمة في النفوس، وتدعوا إلى الفرار، فتطلب من أهل يثرب أن يعودوا إلى ديارهم ليحموها

فلا مقام لهم هنا. وطائفة ثالثة تحاول أن تحافظ على المظاهر – كما نقول اليوم – فتذهب إلى الرسول مستأذنة أن تعود إلى ديارها لأنها مكشوفة أمام الأعداء، والواقع أنها ليست كذلك، ولكنهم يريدون الفرار من المعركة. ثم يكشف الله عن نفسية هؤلاء المنافقين حين يجد الجد وتقتحم المدينة – لو حدث هذا – فلن يدافعوا عن بيوتهم ولا عن مدينتهم، ولو طلب منهم الارتداد عن الإسلام لم يتلبثوا عن الارتداد إلا قليلا من الوقت. وقد نسي هؤلاء المنافقون وأصحاب العقائد المريضة أنهم كانوا قد عاهدوا الله من قبل في شخص رسوله ألا يفروا من المعركة. والله يحاسب كل من عاهده على الوفاء بالعهد أو نقضه ولكن متى كان للمنافقين عهد؟

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا
عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ
وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠
﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا
مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن
يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ
إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا
﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩ – ١٥].

ثم يوبخهم الله على هذا الفرار الذي يحاولون به أن ينجوا من القتل مبينا لهم أنهم إذا نجوا هذه المرة من القتل فلن ينجوا من الموت المحتم عليهم أو القتل في مكان آخر فلا محيص لهم من ذلك. فلن يتيح لهم فرارهم إلا الاستمتاع بالحياة فترة قصيرة يدركهم بعدها الموت. ثم يسألهم مستنكرا. من الذي يستطيع أن يحميهم من قدر الله، ويحول بينهم وبينه خيرًا لكان أم شرًّا.

إنهم لن يجدوا لهم حاميًا يحميهم أو ناصرًا ينصرهم.

يقول تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٦ - ١٧].

ثم ترسم الآيات صورة مجسمة للجبن الذي يتسم به المنافقون. فبعد أن يؤكد الله علمه بهؤلاء المخذلين الذين يُخَذِّلون المسلمين عن القتال قائلين لهم هلم إلى ما نحن فيه من بعد عن المعركة وتقاعس عن القتال. ويتظاهرون أحيانا بالمشاركة ولكنهم لم يفعلوا ذلك إلا قليلا - يصفهم الله بالبخل على المسلمين البخل بالمال والبخل بالجهد والبخل بالمشاركة الوجدانية. ثم يرسم لهم صورة ساخرة عندما يشتد الخوف ويقترب الأعداء فهم ينظرون إلى من حولهم في فزع، وتدور أعينهم في محاجرها كالمريض المحتضر الذي تنتابه سكرات الموت. ثم صورة أخرى مناقضة عندما يطمئنون، ويزول الخوف: فقد علت أصواتهم، وتلفظوا بالألفاظ الجارحة للمسلمين إنهم بخلاء دائما على الخير. وليس من تعليل لذلك إلا أن الإيمان لم يدخل قلوبهم فأهدر الله كل عمل لهم، ولم يكن ذلك على الله عسيرا. لقد بلغ من جبنهم أنه بعد ذهاب الأحزاب لم يصدقوا هذا لشدة خوفهم، وإن يأت الأحزاب، ويتمكنوا من دخول المدينة يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة وأنهم من أهل البادية بعيدين عن المدينة لا يعرفون من أخبارها شيئا إلا عن طريق السؤال. ولو كانوا في المدينة واضطرتهم الظروف للقتال لم يقاتلوا إلا قليلًا.

يقول تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ

يَذْهَبُواْۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾[الأحزاب: ١٨ – ٢٠].

ثم تذكر الآيات المثل الأعلى للمؤمنين الذي ينبغي لكل مؤمن صادق أن تقتدى به وهو الرسول ﷺ الذي كان في هذا الموقف – كما في غيره من المواقف المثل الأعلى للثبات والشجاعة والحكمة. إن المؤمن الذي يقتدي به هو المؤمن الحق الذي يرجو ثواب الله وحسن ثواب الآخرة. المؤمن الذي قلبه دائم الصلة بالله لا يكف عن ذكره.

يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب: ٢١].

ثم تعرض الآيات صورة وضيئة للمؤمنين الصادقين بعدما عرضت صورة كالحة للمنافقين. فالمؤمنون الصادقون لما رأوا الأحزاب تحيط بهم من كل جانب لم يقنطوا من النصر بل وجدوا في تكالب الأعداء عليهم علامة من علامات النصر. ألم يقل الله لهم: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[البقرة: ٢١٤] وهاهم الآن قد زلزلوا فالنصر إذن قريب. هذا ما فكر فيه المؤمنون الصادقون لما رأوا الأحزاب وأعلنوا تصديقهم بوعد الله ورسوله. ولم يزدهم الموقف الحرج إلا إيمانا بالله وتسليما لقضائه.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الأحزاب: ٢٢].

وتشيد الآيات بعد ذلك بمواقف بعض المؤمنين الصادقين الذين أبلوا في أحد وفي غيرها بلاء حسنا فبعضهم استشهد في القتال وبعضهم لازال حيا ينتظر أن يرزق الشهادة في جهاده الدائم في سبيل الله وهؤلاء المؤمنون لم يبدلوا من مواقفهم

أي تبديل، ولم يحيدوا عن الحق قط. وجزاء هؤلاء عند الله يكافي صدقهم. وأما المنافقون فأمرهم بيد الله إن شاء عذبهم لاستمرارهم في النفاق أو تاب عليهم إذا ندموا على ما فعلوا فالله غفور رحيم.

يقول تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤].

ثم تذكر الآيات عاقبة الأحزاب. لقد خذلهم الله، وردهم إلى بلادهم يملؤهم الغيظ؛ فهم لم يحققوا أية غاية مما كانوا يريدون. وجنب المسلمين ويلات القتال. والله قوي قادر على تحقيق ما يريد، عزيز لا يغلبه غالب.

يقول تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ويوجز الله عاقبة بني قريظة، فيذكر أنه أنزلهم من حصونهم، وملأ قلوبهم رعبا، ونزلوا على حكم المسلمين فقتلوا الرجال منهم، وأسروا النساء والصبية. واستولوا على أرضهم وبيوتهم وأموالهم كما استولوا على أرض كانت مملوكة لهم في أماكن خارج المدينة لم تطأها أقدام المسلمين والله قادر على فعل هذا وغيره فهو على كل شيء قدير.

يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٦ – ٢٧].

خواطر حول غزوتَي الأحزاب وقريظة:

١- المشاعر الإنسانية يشترك فيها الناس جميعا من خوف أو فزع وفرح أو حزن وغير ذلك. ولكن استجابتهم لما يشعرون به تختلف، وهذه

الاستجابة هي معيار الحكم على الناس. فإذا نزلت بالناس نازلة مفزعة وخطر داهم يشعر الجميع بالخوف ولكن الشجاع يثبت ويقاوم حتى يدفع الخطر والجبان يفر ويزيد من هلع الناس. وهذا ما حدث يوم الأحزاب فقد زلزلوا جميعهم زلزالا شديدا ولكن المؤمنين صبروا وثبتوا حتى أتاهم النصر. فلا عيب على أحد أن يشعر بالخوف، ولكن العيب أن يفر من مواجهة الخطر الذي يمكن تداركه.

٢- من الصفات التي ينبغي للمؤمنين أن يتصفوا بها الحزم، واقتلاع جذور الشر في كل موقف يواجهونه. وألا يكتفوا بزوال الخطر ظاهريا، بل يبحثوا عن مكمن الداء، ويجتثوه من أساسه. وهذا ما علمهم الرسول إياه. فلم يكتف بانسحاب الأحزاب من المعركة، بل اتجه نحو يهود بني قريظة وقضى عليهم فهم أصل الشر، وسبب كل بلاء. ولو أننا - نحن مسلمي العصر الحديث - انتهجنا هذا المسلك في سياستنا مع اليهود لما ترعرع الشر في أرضنا متمثلا في إسرائيل.

٣- هل كان موقف الرسول ﷺ قاسيا مع يهود بني قريظة؟ لا، فلقد نهج معهم نهج العدل والحق. فأولا: لقد خان اليهود المسلمين خيانة عظمي - كما يقول التعبير الحديث - وعرضوهم - بغدرهم لشر كان سيقضي عليهم وعلى دعوتهم قضاء مبرما. ولا يقولن قائل: ولكن هذا لم يحدث. فعدم حدوثه أمر خارج عن إرادة اليهود، وعلى غير هواهم. وثانيا: كانت العبرة ماثلة أمام اليهود - يهود بني قريظة - مما حدث لبني قينقاع ولبني النضير الذين سبقوهم بالغدر - واعتمادهم على أن الرسول - إذا فشل الأحزاب - سيعاملهم معاملة من سبقهم أمر يدل على غباء شديد فشتان ما بين موقف السابقين وموقفهم. وثالثًا: لم يحكم الرسول بهذا الحكم عليهم بل حكم به رجل اختاروه هم أنفسهم وكان قد خبرهم وعرف

مدى خطورتهم على الإسلام. وارتضى الرسول الحكم لأنه وافـق الحـق والعدل. وأخيرا: عفا الرسول عن بعض من أعلن إسلامه من اليهود ومن تشفع فيه بعض المسلمين. وعرض على إحدى نسائهم واسـمها ريحانـة الزواج منها إذا هي أسلمت، فرفضت وبقيـت عـلى يهوديتهـا فتركهـا ولم يعرض لها بسوء.

غزوتا بني لحيان وذي قَرَد (سنة ٦هـ):

هما غزوتان ليس لهما أهمية في تاريخ جهاد رسول الله ﷺ، أما الأولى فقد قـام بها الرسول بعد عودته إلى المدينة من الخندق بستة أشهر أراد بها أن ينتقم لشـهداء الرجيع. وعلى الرغم من أنه أخفى قصده إليهم باتجاههم ناحية أخرى، ثم عودتـه إلى مقصده الحقيقي بعد أن اطمأن إلى أن أحدا ممن حول المدينة لم يدرك قصـده، فقد عرف بنو لحيان بقصده إليهم، فتمنعوا في رءوس الجبال فتركهم الرسول وكر راجعا وكان يقول في أثناء رجوعه: «آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامـدون. أعـوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال».

وأما الأخرى فلم يكد الرسول يقيم بالمدينة ليـالي قليلـة حتـى سـمع بإغـارة عيينة ابن حصن الغزاري في خيل من غطفـان عـلى بعـض إبـل رسـول الله، وقتـل راغبيها، وسبى امرأته فخرج إليهم الرسـول في جماعـة مـن أصـحابه فطـاردوهم، واستردوا المرأة وبعض الإبل وقد حـاول بعـض المسـلمين اسـتنقاذ بقيـة الإبـل فمنعهم الرسول لأن المغيرين كانوا قد لحقوا بقومهم غطفان، واحتموا بهم.

❖❖❖

غزوة بني المصطلق (سنة ٦هـ)

وهم قوم من خزاعة، وقد اختلف في تاريخ هذه الغزوة فقيل إنها وقعت في شعبان سنة ست، بعد الخندق، وهو رأي ابن إسحاق الذي روى عنه ابن هشام السيرة النبوية. وقال غيره: بل في سنة خمس، قبل الخندق، وعلى أية حال فهذه الغزوة ليست بذات خطر. ولكن أهميتها تكمن في أنه قد اكتنفها حادثان على جانب كبير من الأهمية هما: محاولة عبد الله بن أُبي بث الفرقة في صفوف المسلمين، وحديث الإفك. وقد تناول القرآن هذين الأمرين.

بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يستعدون لحربه، وقائدهم الحارث بن ضرار. وكعادة الرسول في مبادأة الأعداء قبل أن يبادئوه خرج إليهم حتى لقيهم على ماء يقال له: «المُريسيع» من ناحية «قدير» إلى الساحل. فاقتتل الجيشان وكان النصر للمسلمين. واستسلم بنو المصطلق فأخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأبناؤهم. ووزع الفيء على المسلمين.

فشل محاولة عبد الله بن أبي:

وفي أثناء وجود المسلمين عند هذا الماء بعد تحقق النصر حدثت الحادثة الأولى وهي محاولة عبد الله بن أبي بث الفرقة في صفوف المسلمين وإثارة النعرة العصبية، وقد أشرت إليها عند الحديث عن المنافقين ونزول سورة باسمهم، وأتمها في هذا الفصل.

لما تشاجر أجير عمر على الماء مع حليف للأنصار نادى أجير عمر: يا معشر المهاجرين وقال حليف الأنصار: يا معشر الأنصار. فلما بلغ الخبر عبد الله بن أبي ثار وغضب وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وبُلِّغ الخبر إلى الرسول فحلف عبد الله بن أبي أنه ما قال ذلك. ودافع عنه بعض الأنصار.

أمر الرسول مناديا ينادي في الناس أن يتجهزوا للرحيل. فلما ساروا قال أسيد

بن حضير يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها. فقال له: أوما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي؟ قال: وماذا قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز. ارفق به يا رسول الله فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبت منه ملكا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر اليوم التالي حتى آذتهم الشمس. ثم أذن لهم بالراحة، فما كادوا ينزلون من فوق دوابهم، وتمس جنوبهم الأرض حتى سقطوا نيامًا. وإنما فعل ذلك الرسول ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من عبد الله بن أبي. حكمة وحنكة لا يدركهما إلا نبي ملهم، وزعيم عبقري. فلو كان تركهم حيث هم مستريحين لاستفاض الحديث، وتعصب كل فريق لأهله في مجتمع لم يبرأ من النعرة العصبية إلا منذ سنوات قلائل.

وأنزل الله سورة «المنافقون» التي شرحتها في فصل «المنافقون» وفيها الإشارة إلى حديث عبد الله بن أبي الذي أنكره أمام رسول الله، وحلف أنه لم يقله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[المنافقون: ٧ - ٨].

ولما بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي – وكان مؤمنا – الذي كان من أمر أبيه وأنه نزل فيه قرآن يوبخه أدرك أن الرسول لا بد قاتله. فذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: «إنه بلغني أنك تريد قتل أبي. فإن كنت لا بد فاعلا فمرني أحمل رأسه إليك. فوالله لقد علمت الخزرج أنه ليس هناك رجل أبر بوالده مني. وإني أخشى

أن تأمر به غيري فيقتله. فلا تتركني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فتدفعني إلى قتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

أتريث قليلا عند هذا الحوار لنرى كيف يصنع الإيمان بالنفوس. فهذا ابن بار بأبيه، وتشهد له قبيلته أنه ليس فيها من هو أبر منه يأتي الرسول يطلب منه أن يترك له مهمة قتل أبيه – إن كان لا بد من ذلك – فهو لا يستعطفه ليترك أباه لأنه يعلم أن الرسول إذا أمر بقتله فهذه إرادة الله، وهذا وحيه، وليس لمؤمن أن يناقش هذا. وهو يريد أين يقتل أباه بيده كي يجنب نفسه قتل رجل مؤمن – وهو من أُمِرَ بِقتل أبيه – لا يستطيع دفع نفسه عن قتله فيكون قد قتل رجلا مؤمنا بكافر هو أبوه. وماذا كان جواب الرسول الكريم، والإنسان الكامل؟ «نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» فلا قتل، ولا إهانة، ولا مخاصمة. وماذا كانت نتيجة هذا الموقف العظيم من الرسول؟ أصبح قوم عبد الله بن أبي – إذا حدثت منه إساءة هم الذين يعاتبونه ويعنفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر – الذي كان أشار عليه بقتل عبد الله لما بدر منه ما بدر –: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لا أرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

زواج الرسول ﷺ من جويرية بنت الحارث:

كان من سبايا غزوة بني المصطلق جويرية بنت الحارث بن ضرار قائد القوم وسيدهم. فوقعت في نصيب أحد المسلمين. فلم ترض بالرق، وعرضت على سيدها أن يكاتبها [والكتابة نظام دعا إليه الإسلام لتحرير العبيد، وهو أن يتفق العبد مع سيده أن يدفع له قدرا محددا من المال ويعتقه. فيسعى العبد في العمل أو استجداء الناس حتى يجمع هذا القدر]. فذهبت إلى رسول الله تستعينه في ذلك

وقالت له: أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك .. وقد جئتك أستعينك على كتابتي. فقال لها: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟ قال: أقضي عنك كتابتك وأتزوجك. فوافقت ولما علم الناس بذلك أعتقوا من بأيديهم من بني المصطلق لأنهم صاروا أصهار رسول الله. قالت عائشة: فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

وهناك روايات أخرى بشأن جويرية تقول إحداها إن أباها أسلم وأسلم معه ابنان له وناس من قومه. فرد عليه رسول الله جويرية فأسلمت وخطبها الرسول إلى أبيها، ودفع لها مهرا أربعمائة درهم، فزوجه إياها.

القرآن يشهد بإسلام بني المصطلق:

بعد زواج الرسول ﷺ من جويرية دخل بنو المصطلق في الإسلام فأرسل إليهم رسول الله الوليد بن عقبة ليأخذ زكاتهم فخرجوا إليه يستقبلونه، فظنهم خرجوا لحربه، وخاف منهم، ورجع إلى الرسول يخبره أن القوم ارتدوا عن الإسلام ومنعوا زكاتهم. وأخذ المسلمون يتحدثون عن غزو بني المصطلق ثانية. وقد هم الرسول بذلك فعلا لولا أن أقبل وفدهم إلى الرسول يوضحون له الأمر لقد خرجوا لاستقبال مندوبه تكرمة له، ففوجئوا به يعود أدراجه. ثم بلغهم أنه أخبر الرسول بارتدادهم. وأن ذلك كذب فهم مسلمون، ملتزمون بأحكام الإسلام. فأنزل الله في هذه الحادثة قوله تعالى في سورة الحجرات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

فالقرآن في هذه الآية ينهى المسلمين عن سرعة تصديق أي خبر يأتي به إنسان يحتمل أنه كذاب بل لا بد من التثبت أولا من الأمر حتى لا يترتب على تصديق الكاذب فعل يضر المجتمع الإسلامي. فقد هم الرسول ﷺ بغزو بني المصطلق لولا حضور وفدهم مبينا الحقيقة. ولو حدث الغزو لندم المسلمون أن حاربوا

قوما مسلمين مثلهم. ثم يتجه القرآن إلى المسلمين الذين كانوا يشيرون على الرسول بغزوهم داعيا إياهم إلى ترك الرسول يتخذ القرار الذي يراه ملائما دون إلحاح عليه في ذلك لأنه لو أطاعهم في كثير مما يطلبونه لشق الأمر عليهم، وتحملوا صعوبات بالغة نتيجة حماستهم وإيمانهم الذي حببه الله إليهم، وزينه في قلوبهم، وتبغيضه الكفر إليهم والفسوق والعصيان وقد وهبهم الرشاد والسداد بفضله ونعمته، فهو العليم بما يصلح حالهم الحكيم في تدبير أمورهم.

يقول تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾[الحجرات: ٧-٨].

وهكذا لا يترك القرآن موقفًا من المواقف التي تمر بالجماعة المسلمة إلا ويستخلص لهم منه الدرس والعظة، فالحادثة ذاتها لا يفصل القول فيها فهم يعرفونها ويعيشونها فلا داعي لأن يذكر تفصيلاتها، وإنما المهم هو ما ينبغي أن يأتوا به أو يتجنبوه من عمل، والدروس المستفادة من هذه الحادثة واضحة جلية لا ينبغي لهم أن يصدقوا كل ما يقال لهم بل لا بد لهم من التثبت أولا، وعليهم أن يلتزموا بما يراه الرسول ولو كان فيه مخالفة لما يقترحونه عليه من عمل.



حديث الإفك

وهذا هو الحادث الثاني الخطير الذي وقع في هذه الغزوة. وهو الحادث الذي أطلق عليه: «حديث الإفك» وهذه التسمية توحي بمضمون الأمر كله فهو «إفـك» والإفك أشد الكذب. ولكن هذا الإفك قاسـت منـه نفـوس كريمـة أيامـا طويلـة يركبها القلق، وتؤرقها الحيرة، وتبلبلها الشائعات. هذه النفوس الكريمة هي نفس أفضل الخلق وأشرفهم محمد رسول الله، ونفس أطهر النساء وأعفهن عائشة بنت أبي بكر ونفسا أبويها المؤمنين الصادقين ونفس صحابي جليل هو المفترى عليـه صفوان بن المعطل السلمي. ولكن هذه النفوس الكريمة ما لبث القـرآن أن أنـزل عليها سكينة من الله، وأكمد المنافقين ومن في قلوبهم مرض. ولكن القرآن – كمـا ذكرت كثيرا – لا يهتم بتفصيل الأحداث، أو تسـمية أشخاصـها وأماكنهـا ولكـن يهتم باستخلاص العبرة منها. لذلك سألخص القول في هذه الحادثـة. ثـم أشـرح الآيات القرآنية المتصلة بها.

وملخص هذه الحادثة أن الرسول اصطحب معه في سفره لغزو بني المصطلق السيدة عائشة زوجه. وكانت عادته – ﷺ – أن يصطحب واحدة من أزواجـه عنـد سفره يختارها عن طريق القرعة. فجاءت القرعة في هذه السفرة من نصيب السيدة عائشة. وبعد انتهاء الغزوة، وقرار الرسول ﷺ بالرحيل المفاجئ بسبب الفتنة التي أثارها عبد الله بن أبي ارتحل الجيش عـلى عجـل وكانـت السـيدة عائشـة بجـوار هودجها تستعد للرحيل معهم، ففوجئت بأن عقدا من خرز كانت تـتحلى بـه لـيس حول عنقها، فعرفت أنه سقط منها، فأخذت تبحث عنـه في الأمـاكن التـي ذهبـت إليها، فابتعدت عن الهودج، وجاء المكلفون بحمل الهودج، فحملوه على الجمـل ظانين أن بداخله السيدة عائشة وكانت نحيفة خفيفة الوزن فلم يخالجهم شـك في وجودها به. وارتحل الجيش. وشغلت السيدة عائشة بالبحث عن العقد الذي أخذ منها وقتا سمح للجيش أن يبتعد عن المكان ولا تشعر به السـيدة عائشـة. وأخيـرا

وجدت العقد فعادت إلى مكانها الأول، فلم تجد الهودج وعلمت أن الجماعة ارتحلوا. ولكنها كانت مطمئنة إلى أنهم سيفتقدونها بعد قليل فيعودون إليها. وما لبثت أن نامت في مكانها. وبعد فترة أقبل صحابي كان قد تخلف عن الجيش لأمر حبسه قليلا عن موعد رحيلهم. فلما رآها عرف أنها السيدة عائشة فاسترجع فانتبهت على صوته وهو يسترجع، فأناخ لها جمله فأركبها وسار وراء الجمل. دخلت السيدة عائشة وصفوان المدينة بعد فترة من وصول الجيش [وقد عرفنا كيف أن الرسول كان يتعب أصحابه بالسير ليشغلهم عن حديث الفتنة] فلما رآهما بعض الناس داخلين وحدهما انتهز المنافقون وذوو الأغراض هذه الفرصة ليؤذوا الرسول ﷺ وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن أبي الذي أراد أن يعوض فشله في إشعال الفتنة بين المسلمين بإثارة بلبلة من نوع آخر تشغل الرسول والمسلمين. وشارك في ذلك بعض المسلمين منهم حمنة بنت جحش أخت السيدة زينب زوج الرسول فقد كانت تغار لأختها من حب رسول الله لعائشة. فأعجبها ما قيل عنها فخاضت فيه. وخاض في الأمر أيضا مسطح بن أثاثة وأمه بنت خالة أبي بكر الصديق – وكان أبو بكر يساعده بماله – وحسان بن ثابت شاعر الرسول.

كان هذا الحديث يدور في أرجاء المدينة، ولا تعلم عائشة عنه شيئا. فقد مرضت بعد عودتها واشتد مرضها لأكثر من عشرين يوما. فلم تشعر بما كان يدور غير أنها لاحظت من الرسول جفاء نحوها ولم تعهد فيه اللطف الذي اعتادته منه، ولا تعرف سر ذلك، فاستأذنت من الرسول أن تمرض في بيت أبويها فأذن لها. ولما شفيت من مرضها خرجت هي وأم مسطح ليلا لقضاء حاجتهما في مكان خارج المدينة كعادة النساء في ذلك الوقت. فتعثرت أم مسطح في ذيل ثوبها. فقالت: تعس مسطح. فقالت لها عائشة: أتسبين رجلا من المهاجرين شهد بدرا؟ قالت لها: أوما بلغك الخبر؟ وروته لها فرجعت من ساعتها إلى بيت أبويها حزينة باكية تلوم أمها أنها لم تخبرها وأمها تسري عنها دون جدوى.

وكان الرسول ﷺ لما بلغه الخبر خطب الناس قائلا: أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق. والله ما علمت منهم إلا خيرا. ويقولون ذلك عن رجل ما علمت منه إلا خيرا – يقصد صفوان – وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي». فقام أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله، إن يكونوا من إخواننا من الأوس نكفكهم. وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم أهل لأن تضرب أعناقهم. ورد عليه سعد بن عبادة بأنه إنما قال ذلك لأنه يعرف أنهم من الخزرج [لأن الذي تولى كبر هذا الأمر هو عبد الله بن أبي وهو من الخزرج ولو كانوا من الأوس ما قالها]. وقام الناس بعضهم إلى بعض، وكادت تكون فتنة لولا حكمة الرسول.

استشار الرسول ﷺ اثنين من خاصته وهما أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب. فأما أسامة فقال: لا أعلم إلا خيرا. وأما على فقال: إن النساء غيرها لكثير. وسل جاريتها تصدقك. فاستدعيت الجارية – اسمها بريرة – فقام إليها على فضربها ضربا شديدا وهو يقول لها: اصدقي رسول الله وهي تقول: لا أعلم إلا خيرا. وكل ما أعيبه عليها أنها صغيرة السن، أعجن العجين أتركه عندها فتنام فتأتي الشاة فتأكله.

لم يكن بد بعد ذلك من مواجهة الرسول السيدة عائشة بهذا الحديث. فدخل عليها، وطلب منها – في أسلوب رقيق – إن كانت ألمت بذنب أن تتوب إلى الله وتستغفره، فهو يقبل التوبة عن عباده. في هذه اللحظة أحست السيدة عائشة بجرح دام في كبريائها جعل الدمع – الذي كان لا يرقأ من عينيها – يجف. والتفتت إلى أبويها وقالت لهما: أجيبا عني رسول الله فلم يجيبا. فأخذت تبكي وتقول: لن أقررت ما يقول الناس يد الله يعلم أني منه بريئة – لأقولن ما لم يكن. ولئن أنكرت لا تصدقونني ولكني أقول كما قال أبو يوسف: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

ثم أراد الله لهذا الكرب الذي جثم على هذه النفوس الكريمة قرابة شهر أن يزول فما هي إلا لحظات حتى غشى رسول الله ما كان يغشاه عند نزول الوحي. ولما أدركت عائشة ذلك اطمأنت نفسها، وشعرت بأن براءتها ستعلن على الملأ. وأما أبواها فقد عاشا لحظات عصيبة لا يدريان ماذا سيكون حكم الله في هذا الأمر. وتقول عائشة عن ذلك: «فو الذي نفسي عائشة بيده ما سُرِّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما خوفا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس». ولكن الله برأ ساحتها، وحملت آيات القرآن حملة شعواء على الذين اقترفوا هذه الفرية. ثم خرج الرسول إلى الناس فقرأ عليهم ما نزل عليه من القرآن في تبرئة عائشة. وأمر بمسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت – وهم الذين أفصحوا عن قذف عائشة. فأقيم عليهم حد القذف: ثمانون جلدة لكل منهم.

القرآن يُفَنِّد حديث الإفك:

في سورة النور التي بدأت بذكر حد الزنى، وتشنيع جريمته، وبيان حد القذف وحكم الزوج إذا رمى زوجته بالزنى ولم يكن له شهود. في هذا الجو الملائم جاء ذكر حديث الإفك. وكعادة القرآن لم يذكر تفصيلات. بل قرر عدة حقائق في أسلوب، قوى حاسم وصارم. فتبدأ الآيات بالتعبير عن القصة بالإفك وهو أشد الكذب ثم يقرر أن الذي أشاع هذا الإفك جماعة وليس فردا. ومعنى ذلك أنها مؤامرة دبرت لتنتشر في كل أرجاء المدينة ليؤذوا رسول الله وأهله وأصهاره الطاهرين ومن ورائهم المسلمون الصادقون جميعهم. ويزيد من خطورة الأمر أن هذه الجماعة من داخل البيئة الإسلامية – وهم المنافقون – ممن لا يمكن درء خطرهم لالتصاقهم بالمسلمين، وتخفيهم وراء ستار الإسلام. ثم يطمئن المسلمين إلى أن هذا الأمر مع ما سبب من أذى للرسول ومحبيه ليس شرا بل هو خير لأنه كشف للمسلمين عن الجبهة المضادة التي تعيش بين أظهرهم. ثم بين

الله أن كل من اشترك في هذا الإثم له جزاء مناسب لدوره الذي قام به. وأما الذي تولى التخطيط والتدبير – وهو عبد الله ابن أبيّ -- فله عذاب عظيم. [وقد بلغ من دهاء عبد الله بن أبي أنه كان يعمل في الخفاء فلم يفصح عن رأيه علانية، ولذلك نجا من حد القذف ولكنه لن ينجو من عذاب الله].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: ١١].

ثم يبين الله ما كان ينبغي لكل مؤمن ومؤمنة عندما شاع هذا الإفك. لقد كان واجبهم أولا أن يعرضوا الأمر على قلوبهم، وأن يتفكروا هل يسمح لهم إيمانهم وما رباهم عليه من تقوى وعفة أن يرتكبوا مثل هذا الإثم، وإذا أنكرت قلوبهم عليهم هذا أفما كانوا يحسنون الظن بغيرهم من المؤمنين. ومن؟ إنها عائشة التي ولدت ونشأت في بيت الطهر والنبوة. وصفوان المهاجر المجاهد. لقد كان من واجبهم أن تعلو صيحاتهم جميعا قائلة: هذا إفك مبين. وكان واجبهم ثانيا أن يسألوا من يشيع هذا الخبر: ما دليلك على هذا؟ من شهودك؟ أفكل من قال قولا، أو افترى إثما يصدق؟ وأي إثم أعظم من رمي زوج النبي بالفاحشة؟ لقد دخلت المدينة يسوق جملها صفوان بعد دخول الجيش بساعات قليلة. أفهذا دليل على ارتكاب الفاحشة. إن الذين أشاعوا هذه الفرية دون أربعة شهود يشهدون بارتكاب الفاحشة ليسوا إلا كاذبين. ولما كانت هذه محنة قاسية لم يتعرض المسلمون لمثلها من قبل، ويكتسبوا خبرة في التعامل معها، كان من فضل الله ورحمته عليهم أن عفا عنهم وحماهم من عذاب أليم كان يمكن أن يقع بهم لإفاضتهم في هذا الحديث الكاذب الآثم ثم تصور الآيات تداول هذه القرية بينهم فكل إنسان يلقى بلسانه إلى لسان الآخر هذا الأمر، فيقول لغيره، وكل هذا دون علم أو دليل. ويظنون الأمر هينا وينسون أنه أمر يتعلق بالعرض والشرف. عرض

من؟ وشرف من؟ عرض النبي العظيم وشرف زوجه الطاهرة ابنة الصدِّيق. إن هذا الأمر العظيم عند الله، وحسابه يكافئ عظمته. لقد كان من واجب المؤمنين – عندما سمعوا هذه الفرية – أن يحموا أنفسهم من التحدث بها. وأن يتجهوا إلى الله منزهين ذاته العلية أن يعرض نبيه لمثل هذه المحنة، ويصفوا الأمر كله بأنه أكذوبة كبرى، وفرية شنيعة. ثم يحذر الله المسلمين أن يعودوا لمثل هذه الأمور المؤذية لرسوله، المقلقة للمجتمع الإسلامي وهذا هو محك صدق إيمانهم. فالمؤمن الذي يرى شناعة ما حدث، ثم يفعل مثله مستقبلا لا يمكن أن يكون صادق الإيمان. والله لعلمه بأحوال عباده وحكمته في تدبير أمورهم لا يتركهم في مثل هذه المواقف دون أن يبصرهم بما فيها من خطأ وينبغي لهم أن يتعلموه منها.

يقول تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور: ١٢ – ١٨].

ثم يتوعد الله الذين يسعون – بحب ورغبة – لإشاعة الفاحشة بين المؤمنين بوسائل متعددة ومنها إطلاق الاتهامات على القمم الشاهقة في العفاف والطهر بأنهم يرتكبون الفحشاء، فيسهل على غيرهم من الناس فعل ذلك فتشيع الفاحشة في المجتمع. يتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة. والله يعلم ما فيه صلاح النفوس والمجتمعات فيصف لها ما يناسبها من علاج وأنتم لا تعلمون ذلك.

ثم يذكرهم بأن هذا الأمر لو ترك دون أن ينزل الله عنه الآيات الكاشفة لأصاب المجتمع الإسلامي ضرر خطير. ولكن الله رءوف رحيم بعباده. ثم ينهى

الله المسلمين عن أن يسيروا في طريق الشيطان الذي يزين لهم إشاعة قالة السوء عن الأطهار ولو ترك الله المسلمين دون أن يبين لهم خفايا الأمور، ويعلن طهارة الأطهار لاستطاع الشيطان أن يَصِمَ المسلمين جميعا بالرجس والدنس ولما عرف بينهم إنسان طاهر. لكنه لفضله ورحمته بين لهم طهارة الأطهار والأسس التي يطهر بها النفوس ويزكيها. والله يسمع ويعلم كل شيء مهما خفي يقول تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[النور: ١٩ – ٢١].

ولنتأمل هذه الصورة الكريهة التي رسمها الله لهؤلاء الذين خاضوا في حديث الإفك فقد جعلهم يتبعون خطوات الشيطان ويسيرون وراءه. هذا الشيطان الذي قام إيمانهم كله على نبذه ومخالفة طريقه. وهذا تحذير عام للمسلمين في كل العصور أن يتجنبوا طريق الشيطان. وكل عمل يرفضه الإسلام وينهى عنه هو من طرق الشيطان والشيطان ليس مقصورا على إبليس وحده. بل كل داعية من البشر يدعوا إلى الرذيلة ويشجع عليها بالقول أو بالفعل فعلى المسلمين أن يتجنبوا طريقه فهو الشيطان.

ثم يلتفت الله إلى أبي بكر – والد السيدة عائشة – وقد كان ينفق على مسطح فلما رآه يخوض مع من خاض في حديث الإفك حلف ألا يعطيه شيئا من ماله فيوجهه الله التوجيه الصحيح، ولا يخصه بالاسم بل يجعل الدعوة عامة لكل من آتاه الله فضلا من مال ألا يحلف على حرمان الفقراء والمساكين والمهاجرين في سبيل الله من أقربائهم إذا أخطئوا في حقهم – كما أخطأ مسطح – وعليهم أن يعفوا عنهم ويصفحوا عن إساءتهم. ثم يشفع ذلك بالترغيب الذي لا يمكن لمؤمن أن

يسمعه ولا يعفو عمن ظلمه وهو أنه في مقابل ذلك مغفرة الله ورحمته وهو واسع المغفرة والرحمة يقول تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ (١) أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢]

فهذا درس في العفو الذي يشيع المحبة بين المسلمين، ويربط بين قلوبهم بالمودة والألفة. ولذلك لم يقيده الله بهذه الحادثة، ولم يوجهه إلى أبي بكر خاصة بل جعله عامًّا لكل أولى الفضل والسعة، ولكل خطأ يرتكب من الأقارب الفقراء والمساكين وقد زاد وصفًا ثالثًا وهو الهجرة في سبيل الله التي تعني الإيمان والتضحية في سبيل الدين.

ثم يختم الله القصة بتوجيه عام للمسلمين ألا يرتكبوا مثل هذا الإثم من قذف العفيفات البعيدات عن الريب المؤمنات بالله وبمبادئ دينه. فيبين أن من يفعل ذلك تحل عليه اللعنة في الدنيا والآخرة وعذابه عظيم في الآخرة.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النور: ٢٣]

فالأمر ليس مقصورا على زوج الرسول بل يعم المجتمع الإسلامي كله.



(١) يحلف

صلح الحديبية

بعد أن استقر أمر المسلمين بالمدينة بعد انتصاراتهم المتتابعة على الأحزاب وقريظة وبني المصطلق تاقت نفوسهم إلى زيارة البيت الحرام معتمرين أو حاجِّين وهو حق مكفول لجميع العرب على اختلاف دياناتهم. وكان أكثرهم توقًا رسول الله ﷺ الذي كانت قِبلته في الصلاة وقبلة المسلمين الكعبة المشرفة كانوا يتجهون إليها بأرواحهم؛ ويتمثلونها بخيالهم مرات عديدة كل يوم. ثم رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه دخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين وقد حلقوا رءوسهم أو قصروها. فعرف أن ذلك إذن من الله له وللمسلمين بزيارة البيت الحرام. قص الرؤيا على أصحابه الذين سعدوا بها، وطلب منهم التأهب للعمرة. وأعلن في أعراب ما حول المدينة غير المسلمين بأنه ذاهب للعمرة وأنه يرحب بمن ينضم إليه منهم فاستجاب له قليل منهم.

خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة لسنة ست معتمرًا لا يريد حربًا، وكان معه نحو من أربعمائة وألف من أصحابه، وساقوا الهَدْي أمامهم إعلانًا عن نيتهم السلمية، ومهمتهم الدينية، وكان معهم سبعون بدنة – ناقة – للهَدْي قد قلدوها [والهدي هو ما يهديه الحاج أو المعتمر إلى الكعبة من غنم أو بقر أو إبل. وكان من عادتهم أن يخرجوا بها من بلدهم، ويسوقونها أمامهم وقد قلدوها – أي وضعوا في أعناقها أشياء تبين أنها مهداة إلى الكعبة من الحجاج ثم ينحرونها عندما يتمون شعائرهم].

وفي الطريق إلى مكة في مكان يعرف بغسْفان لقيه رجل من المسلمين، واسمه بشر بن سفيان الكلبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بسيرك فخرجوا إليك يلبسون جلود النمر، ويعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدًا. وقد نزلوا «بذي طوى» وعلى خيلهم خالد بن الوليد. فقال الرسول: يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب. فإن هم أصابوني كان ذلك

الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش؟ والله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»(١). ثم سأل عن رجل يعرف طريقًا آخر إلى مكة يدلهم عليه. فقام رجل وقاد الجموع في طريق وعر غير مسلوك لاقوا في سيرهم به عنتًا شديدًا حتى كانوا على مقربة من مكة يعرف بالحديبية فبركت ناقة رسول الله ورفضت التحرك، وقال المسلمون: خَلأت الناقة – أي حرنت عن السير – فقال الرسول والله ما خلأت، وما كان ذلك لها بخلق، وإنما حبسها حابس الفيل [إشارة إلى قصة محاولة غزو أبرهة لمكة] عن مكة. لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .. ثم قال للناس: انزلوا. قالوا يا رسول الله ما بالوادي ماء فننزل به. فأخرج سهمًا من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به في بئر من الآبار التي لا ماء بها. فغرزه في جوفها فجاشت بالماء.

ولما رأت طليعة جيش قريش تحول سير المسلمين عن الطريق العادي رجعوا راكضين إلى قريش فأخبروهم فأعدوا أنفسهم للقائهم حول مكة. فلما بلغهم خبر نزولهم بالحديبية. أرسلوا إلى النبي رسولا من خزاعة هو بديل بن ورقاء زعيمهم. ليسأل عن سبب مجيئه فقال له الرسول إنه لم يأت لحرب بل جاء وأصحابه لأداء العمرة فرجع بديل ومن معه فأخبروهم بذلك. فاتهموهم بممالأة محمد. ثم أعلنوا حتى لو كان جاء لا يريد قتالًا فلن يدخلها عليهم عنوة أبدًا. ثم بعثوا رسولا آخر فأتاهم بمثل ذلك فلم يقتنعوا. ثم بعثوا رسولًا ثالثًا هو الجليس ابن علقمة سيد الأحابيش(٢)، وكانوا حلفاء لقريش، ولعلهم أرادوا بإرساله أن يبينوا أنهم ليسوا وحدهم الذين سيمنعونه من دخول مكة. فلما رآه رسول الله ﷺ

---

(١) صفحة العنق وهما سالفتان كناية عن الموت.

(٢) أحياء من القارة (قوم من العرب رماة) سموا بذلك لاسودادهم.

مقبلًا قال لأصحابه: إنه من قوم يتألهون – أي يعظمون أمر الدين – فأطلقوا الهدي نحوه، ففوجئ الحليس بسبعين بدنة تسعى نحوه، وعليها قلائدها، وقد تآكل شعرها من طول المنع عن محلها التي ستنحر فيه. فامتلأت نفس الرجل إعظاما لما رأى، واقتناعا بنية محمد السلمية فلم يذهب إليه، وإنما رجع إلى قريش فأخبرهم بما رأى. فقالوا له: أجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك بلك. فغضب الحليس وقال: والله ما على هذا حالفناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظمًا له والذي نفس الحليس بيده. لتتركن محمدا وما جاء له، أو لأثيرن عليكم الأحابيش فاسترضوه واستمهلوه ليفكروا.

ثم طلبوا من عروة بن مسعود سيد ثقيف أن يذهب إلى محمد، ويحاول بحكمته – أن يثنيه عن دخول مكة. فرفض أول الأمر محتجًا بأنهم كلما عاد إليهم رسولهم وبخوه، ولم يقبلوا نصحه. فاعتذروا إليه وقالوا له: إنك عندنا غير متهم. فذهب إلى الرسول، ورجاه أن ينصرف عن مكة، وألا يدخلها عنوة كي لا تكون سابقة لغيره من العرب، وهي البلد المقدس بلده الذي لم يجرؤ أحد على اقتحامه، وإنه إن فعل ذلك، واقتحمها على أهله المقيمين بها من جمع من أوشاب[١] الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه كان العار الخالد لقريش فصاح أبو بكر بعروة هازئا من زعمه أن الناس ينصرفون عن رسول الله، وكان في أثناء حديثه يمسك لحية رسول الله، فكان المغيرة بن شعبة الثقفي يضرب يده كلما فعل ذلك. على الرغم من أن عروة دفع عنه دية ثلاثة عشر قتيلًا قتلهم في الجاهلية – ولكنه الإيمان.

رجع عروة إلى قريش بعد أن أكد له الرسول أنه لم يأت لحرب، وقد امتلأ إعجابا بما رأى من مهابة الرسول بين أصحابه. وقال لقريش: إني جئت كسري في ملكه، وقيصر في ملكه. والنجاشي في ملكه. وإني والله ما رأيت ملكا في قومه قط

---

(١) جماعات مختلطة.

مثل محمد في أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. وإنهم لن يسلموه لشيء أبدا فروا رأيكم».

وقد كانت قريش بعثوا أربعين رجلا منهم، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ليصيبوا لهم من أصحابه أحدًا، ولكن المسلمين أحاطوا بهم وأسروهم وأحضروهم إلى الرسول ﷺ فعفا عنهم.

وقد حاول الرسول من جهته أن يرسل إلى قريش رسولا يخبرهم بنيته السلمية فأرسل إليهم رجلا من خزاعة، وحمله على بعير له. فعقروا البعير وحاولوا قتل الرجل لولا أن منعته منهم الأحابيش. فلما توالت رسل قريش دون جدوى أراد الرسول أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه له وزنه. فطلب من عمر بن الخطاب أن يذهب إليهم. فاعتذر إليه بأنه يخاف على نفسه منهم فليس في مكة أحد من قومه يحميه واقترح عليه إرسال عثمان بن عفان. فأرسله ليخبر أبا سفيان وأشراف قريش أن الرسول لم يأت لحرب، وأنه ما جاء إلا زائرًا للبيت معظما له.

خرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، فأخذه معه، وأعلن قريشا أن عثمان في حمايته إلى أن يتم مهمته. وبلغ عثمان الرسالة فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش. وأشيع عند المسلمين أنه قتل.

بيعة الرضوان:

لما بلغ رسول الله إشاعة مقتل عثمان دعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان، وكان الرسول واقفا تحت شجرة، فبايعهم الرسول على ألا يفروا. وتأهب المسلمون للقتال. ثم عرفوا كذب الخبر وأن عثمان لم يقتل. وقد أثنى الله على المسلمين لمبايعتهم الرسول، وذكر أن الله رضي عنهم، وكافأهم على استجابتهم لأمر الرسول بنصر قريب، ومغانم كثيرة سيحرزونها من هذا النصر.

ولأن الله رضى عن المؤمنين المشاركين في هذه البيعة سميت بيعة الرضوان.

عقد الصلح:

لم تجد قريش مناصًا من أن تنهي هذا الموقف، وأن تعقد صلحًا مع محمد، فأرسلت إلى أحد زعمائها سهيل بن عمرو وقالوا له: أئت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا. فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا. وذهب سهيل إلى الرسول. فلما رآه الرسول مقبلا قال قد أرادت قريش الصلح حين بعثوا هذا الرجل. وتحدث سهيل مع الرسول طويلا، ودارت بينهما مفاوضات ومراجعات انتهت إلى عقد الصلح بين الرسول وقريش، وكانت شروط الصلح أن يرجع الرسول وصحبه عامة هذا، ثم يعودوا في العام المقبل للعمرة وأن تكون بينهما هدنة لمدة عشر سنين [1]. وأن من أتى محمدًا مسلمًا من قريش فعليه أن يرده إلى أهله، ومن أتى قريشًا من المسلمين مرتدًّا فليس عليهم أن يردوه.

وأن من شاء من القبائل أن يدخل في هذا الحلف مع محمد أو مع قريش دخل فيه فدخلت خزاعة في حلف رسول الله، ودخلت بنو بكر في حلف قريش.

غضب بعض المسلمين لما سمعوا بشروط هذا الصلح الذي رأوا فيه إجحافًا بهم ومهانة لهم. وكان على رأس الغاضبين عمر بن الخطاب الذي ذهب إلى أبي بكر وقال له: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزك – أي لا تخالف رسول الله – فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم ذهب عمر إلى رسول الله وقال له مثل ما قال لأبي بكر. فقال له رسول الله: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني. فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق مخافة كلامي

---

(١) وتقول بعض الروايات: لمدة سنتين.

الذي تعلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا.

بعد الاتفاق على شروط الصلح، جاء دور الكتابة لتسجيل هذه الشروط. وقد اعترض رسول قريش على بعض أمور شكلية رأى فيها اعترافًا من قريش برسالة محمد.

فعندما أملى الرسول على علي بن أبي طالب: بسم الله الرحمن الرحيم. قال: لا نعرف الرحمن الرحيم. اكتب باسمك اللهم. ولما أملى عليه: هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله. قال: قف. لو نعلم أنك رسول الله ما فعلنا هذا. و لكن اكتب اسمك واسم أبيك. وتم الصلح.

وشاء الله ألا يجف مواد الصلح قبل أن يزيد في آلام المسلمين وغضبهم من شروط هذا الصلح. فقد أقبل أبو جندل بين سهيل بن عمر – مندوب قريش – إلى رسول الله مسلمًا. ولكن الرسول اعتذر إليه بأنه لا يمكن أن يغدر. ورده إلى أبيه ولكن أبو جندل جعل يصرخ ويقول: يا معشر المسلمين أأرد إلى قريش فيفتنوني عن ديني؟ فزاد تألم المسلمين لهذا المشهد على ما بهم من قبل من إحساس بالظلم لعودتهم دون أن يعتمروا. ولكن الرسول قال: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجًا. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح قام إلى هَدْيه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون قد نحر وحلق فعلوا مثله.

نظرة في شروط الصلح:

لقد تألم المسلمون أشد الألم لما جرى من أمر الصلح؛ لقد خرجوا وهم لا يشكون في الفتح وإتمام العمرة للرؤيا التي رآها الرسول ﷺ فلما رأوا أمر الصلح والرجوع، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حيرهم وبلبل أفكارهم ولكن نظرة

متأنية إلى شروط هذا الصلح تجعلنا نؤمن أن هذا الصلح كان كله خير و بركة أو كما يقول القرآن «فتحا مبينا» ولنبدأ بالشرطين اللذين أثارا ثائرة المسلمين، وظنوهما إعطاء الدنية في دينهم. وأول هذين الشرطين: الرجوع هذا العام والعودة في العام المقبل. وهذا نفعه أكبر من ضرره. فإذا كان المسلمون أضيروا بالرجوع دون عمرة هذا العام، فقد كسبوا ما هو أعظم؛ فقد اعترفت قريش بحقهم في زيارة البيت كسائر العرب. وبعد أن كانوا مطاردين من قريش يعتبرونهم فئة منبوذة سجلت على الورق أنهم أمة لها حقوقها التي لا يمكن التغاضي عنها في أداء مناسكهم عند البيت الحرام. وما انتظار عام في سبيل هذا الاعتراف؟

وأما الشرط الآخر الذي آثار الغضب. وهو أن من أتى محمدًا من قريش مسلما فعليه رده إليهم، فقد كشفت الأيام أنه كان عبئًا على قريش حتى لقد طلبوا من الرسول أن يحلهم منه، ويؤوى إليه أي مسلم يأتيه منهم. وسبب ذلك أن رجلا آخر اسمه أبو بصير أتى المدينة مسلما، فأرسلت وراءه قريش واحدا منهم مع عبد لهم وكتاب إلى النبي ﷺ ليسلمهما أبا بصير. فرد الرسول أبا بصير معتذرا إليه بأن شرط الصلح يقضي بذلك، وذكر له أن الله سيجعل له مخرجا كما قال لأبي جندل. ذهب أبو بصير مع الرجلين. وفي أثناء الطريق احتال أبو بصير حتى أخذ السيف من القرشي وقتله به. وفر العبد مذعورا إلى النبي وأخبره الخبر. وقبل أن ينتهي من خبره كان أبو بصير قد وصل متوشحًا السيف. فلما وقف على الرسول قال له: وَفَتْ ذمتك يا رسول الله، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعتُ بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي. فأبدى الرسول إعجابه به.

خرج أبو بصير حتى نزل مكانًا على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يسلكونها إلى الشام. وبلغ الذين كانوا محتبسين بمكة إعجاب الرسول بأبي بصير. ففروا إليه فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلًا، فضيقوا على قريش في تجارتها، فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها. حتى

كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بحق ما بينهم من رحم أن يؤوي إليه هؤلاء المسلمين. وهكذا سقط هذا الشرط.

على أن رسول الله ﷺ لم يطبق هذا الشرط على النساء بشرط أن يُمْتَحَنَّ فإذا عرف أن السبب الوحيد لهجرتهن هو الدخول في الإسلام أو لهن إليه على أن يرد لزوجها ما دفعه لها من صداق. فقد اعتبر الرسول أن الشرط كان المقصود به الرجال لا النساء، ولأن المرأة المتزوجة لا تحل لزوجها الكافر بعد إسلامها. من أجل ذلك عندما هاجرت في هذه الفترة أم كلثوم بنت عقبة بن معيط وجاء أخواها لاستردادها رفض الرسول وقال: أبي الله ذلك. وقد مر هذا الموضوع وما نزل فيه من قرآن في فصل «المهاجرون».

وأما بقية الشروط فلم تكن محل اعتراض من أحد. وكانت الهدنة التي أتيحت للمسلمين فرصة عظيمة استغلها الرسول ﷺ في نشر الإسلام والدعوة إليه خارج الجزيرة العربية عن طريق الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء. وكذلك استفاد المسلمون بحلف خزاعة معهم الذي كان سببًا في فتح مكة كما سأبين.

وهكذا أثبت هذا الصلح بعد نظر الرسول، وحنكته السياسية، وتوفيق الله إياه في كل خطواته، يؤيده بالوحي، ويمده بالروح من عنده. وصدق الله إذا سمي هذا الصلح فتحًا مبينًا.

القرآن يتحدث عن الفتح المبين:

في طريق عودة الرسول وأصحابه من الحديبية إلى المدينة أنزل الله عليه سورة الفتح. وقد تناولت – على طريقة القرآن – شأن الحديبية ووعد الله بفتح مكة. ولم يهتم القرآن بذكر التفصيلات أو سرد الأحداث، أو بيان أسماء الأماكن والأشخاص. فهذه – كما قلت قبلا – ليست طريقة القرآن في تحليل الأحداث وإنما تركز السورة على نقاط معينة فيها الدرس والعبرة والتربية.

بدأت السورة بوعد الله رسوله بفتح مكة التي حيل بينهم وبين دخولها هذا العام وأخبره بذلك على سبيل التحقيق والتأكيد فذكر أن الفتح المبين قد تم فعلا، فاستعمل صيغة الماضي التي تفيد وقوع الفعل (فتحنا) وبشره أنه مع الفتح مغفرة الله جميع ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، وإتمام نعمته عليه بنشر الإسلام وإعلاء كلمته وإرشاده إلى الطريق القويم بالوحي الذي يسدد خطاه، ونصره نصرًا عظيمًا على جميع أعدائه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾[الفتح: ١ - ٣].

ملاحظة: تحدثت الآيات عن مغفرة الله ذنوب الرسول. فهل للرسول ذنوب؟ وكيف وهو المعصوم من الخطايا؟ أقول إن الرسول بشر قد يخطئ كسائر البشر ولكن أخطاءه إذا قيست كالمقاييس العادية لا تعتبر أخطاء. وإنما هي أخطاء بمقاييس الكمال البشري الذي ينبغي أن يتحقق في الإنسان الكامل الذي بعثه الله رحمة للعالمين. فهي هفوات يدفع إليها الحرص على نشر الدين، والرفق بأصحابه. كإعراضه عن ابن أم مكتوم ليكسب سادة قريش إلى الإسلام والإذن للمنافقين في بعض الغزوات بالتخلف، وكان ينبغي ألا يأذن لهم ليتبين صدقهم من كذبهم. وتحريم بعض الأمور الخاصة به على نفسه إرضاء لبعض أزواجه. وقد عاتبه الله على كل ذلك ووعده بغفرانها. هذه هي الذنوب المقصودة وهي ليست في الواقع ذنوبًا بالمقاييس البشرية العادية.

ثم تذكر الآيات إنزال الله الطمأنينة في قلوب المسلمين بعد أن كانت ثائرة لشروط الصلح المجحفة فهدأت نفوسهم، واقتدوا بنبيهم في ذبح الهدايا والحلق والانصراف دون قتال وهذا زادهم إيمانًا على إيمائهم. ثم يلفتهم الله إلى قدرته على هزيمة قريش وتمكينهم من دخول مكة هذا العام. فكل المخلوقات في السموات والأرض جنود له وهو قادر على إرسال بعضهم إلى قريش لتزلزلهم ولكن اقتضى

علمه المحيط بكل شيء، وحكمته التي تصرف كل أمر أن يتم الأمر على النحو الذي تم به ليتبين إيمان المؤمنين فيدخلوا الجنة التي تحيط بها الأنهار وتغفر لهم ذنوبهم. وهذا هو النصر الحقيقي والفوز العظيم عند الله. وليتبين نفاق المنافقين، وعناد المشركين الذين ظنوا أن الله لن ينصر رسوله وهذا هو ظن السوء. فليقع عليهم الخذلان الذي ظنوا أنه واقع بالمسلمين. وعليهم غضب الله ولعنته، وقد أعد الله لهم عذابًا عظيمًا في جهنم وبئس المصير. وكان الله قادرًا على تعجيل العذاب لهم فله جنود السموات والأرض، وهو القوي الذي لا يغلب، الحكيم الذي يدبر كل أمر بالحكمة.

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾[الفتح: ٤ – ٧].

ثم يتحدث الله عن البيعة التي بايعها الرسول أصحابه بعد ما أشيع أن عثمان قتل، فيذكر أنها كانت بيعة مع الله، وأن يد الله كانت فوق يد المبايعين [كانت البيعة تتم بأن يضع المبالغ يده في يد من يبايعه] ولذلك فهي بيعة خطيرة الشأن من نقضها فسيقع عليه إثم عظيم. ومن أوفى بها فله عند الله أجر عظيم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ١٠].

ثم يذكر الله موقف المتخلفين عن صحبة الرسول في هذه العمرة من الأعراب المحيطين بالمدينة. فقد دعا الرسول المسلمين جميعهم إلى صحبته لإظهار كثرة العدد أمام قريش، فتخلف عدد كبير من الأعراب المحيطين بالمدينة عن مرافقته.

فيذكر الله لرسوله أنهم سيعتذرون إليه عند عودته بأنهم شغلوا عن مرافقته لحاجة قطعانهم إليهم لرعيها، وحاجة أهليهم إليهم لرعايتهم، ويطلبون إليه الاستغفار لهم. وهذا العذر عذر كاذب لا يتجاوز ألسنتهم، وإنما يحاولون به دفع إيذاء الرسول عنهم. ويطلب من رسوله أن يبين لهم أن الذي يملك الضر والنفع هو الله، ولا يستطيع أحد أن يتدخل فيما يريد. وأن الله عالم بنواياهم، فهم لم يصحبوا الرسول لعدم إيمانهم بنصر الله له، فظنوا أن قريشًا ستستأصله هو ومن معه، وأنهم لن يعودوا إلى المدينة أبدًا ورسخ هذا الظن في نفوسهم. فكانوا بذلك هالكين لأنهم لم يؤمنوا بالله ورسوله فأعد الله لهم نارًا مستعرة – وهذا هو جزاء من لم يؤمن بالله ورسوله. والله له كل ما في السموات والأرض يتصرف فيه كيف يشاء فيغفر لمن يشاء ممن علم بصدق نيته في التوبة. ويعذب من يشاء ممن أصر على عناده. ومن صفات الله الثابتة المغفرة والرحمة. وفي هذا دعوة لهم إلى أن يخلصوا إيمانهم لله فيغفر لهم.

ويخبر الله رسوله أن هؤلاء الأعراب لا يبغون من وراء اشتراكهم مع المسلمين في الغزوات إلا الحصول على الغنائم. ولذلك فسيطلبون منكم وأنتم متجهون إلى غزوة أخرى يتأكدون من سهولة النصر فيها، ووفرة الغنائم، أن تأخذوهم معكم، يريدون بذلك تغيير حكم الله الذي قضى عقابا لهم ألا يشتركوا مع المسلمين في جني المغانم. فقولوا لهم لا لن تتبعونا فقد قضى الله بذلك، وسيردون عليكم بأنكم تمنعونهم حسدًا لهم أن ينالهم خير، وذلك لجهلهم وعدم فقههم أمور الدين.

ثم يطلب الله من رسوله أن يذكر للمخلفين أن هناك غزوات أخرى أمام قوم أولي بأس وقوة ستدعون إليهم لتقاتلوهم حتى سلموا. فإذا استجبتم لهذه الدعوة فسيؤتيكم الله أجرًا حسنًا، وإن أعرضتم كما فعلتم من قبل فليس لكم إلا العذاب الأليم. ثم يستثنى الله – من عقاب المخلفين – الأعمى والأعرج والمريض

فهؤلاء ليس عليهم حرج لعلتهم. ثم تختم الآية بتأكيد قاعده عامة وهي أن كل من يطيع أمر الله ورسوله فجزاؤه جنات تجري من تحتها الأنهار. ومن يعرض عن أمر الله ورسوله فعقابه عذاب أليم.

يقول تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۢۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١١ – ١٧].

يقول المفسرون إن المغانم التي أراد المخلفون أن يشاركوا فيها المسلمين هي مغانم خيبر التي حدثت بعد ذلك. وأن القوم أولى البأس الشديد الذين سيدعى إليهم هؤلاء المخلفون هم المرتدون من بني حنيفة أتباع مسيلمة. وقد كان ذلك في عهد أبي بكر بعد وفاة الرسول.

ولنتأمل التعبير القرآني «إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها» فهو يدل على جشع هؤلاء الأعراب، وحرصهم على المال لا الجهاد في سبيل الله. فالمسلمون حينما ذهبوا إلى خيبر لم يكن هدفهم الغنائم بل القضاء على دسائس اليهود التي لم يكفوا

عنها على الرغم مما أصابهم.

وفي هذه الآيات إعجاز قرآني فقد أخبرت الرسول بأمر تحقق وهو ما قاله الأعراب، وما أصاب المسلمون من غنائم، وما وقع من قتال المرتدين.

ثم تمضي السورة بعد بيان موقف المخلفين فتذكر رضا الله عن المؤمنين الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة، وكانوا صادقين في بيعتهم مخلصين في إيمانهم فكافأهم الله بإنزال الطمأنينة في قلوبهم، وبنصر قريب سيتحقق لهم في خيبر، وينالون مغانم كثيرة منه. والله قادر غالب، حكيم في تدبير الأمور. إن الله يعدكم بالحصول على مغانم كثيرة من انتصارات متتالية سيفوز بها المسلمون في جهادهم لنشر الإسلام [وقد تحققت هذه الانتصارات، وحصل المسلمون منها على غنائم لا تعد ولا تحصى، وانتقلت إليهم كنوز كسرى وقيصر] وسيعجل لكم مغانم خيبر تنالونها دون قتال لأن الله كف أيدي اليهود عن قتالكم ومن جاء إليهم من حلفائهم من غطفان وأسد. وذلك ليكون هذا النصر وهذه الغنائم دليلا واضحا للمؤمنين على تحقق النصر، ودافعا إلى التزام منهج الإسلام الذي يوصلكم إلى جنات النعيم فتفوزوا في الدنيا والأخرى. ثم هناك غنيمة أخرى لم يكن في مقدوركم – لولا فضل الله عليكم – أن تفوزوا بها وهي فتح مكة، ولكن الله يسرها لكم فدخلتموها دون عناء، وأصبح البيت الحرام في حوزة الإسلام. وليس هذا النصر بعزيز على الله فهو على كل شيء قدير.

يقول تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الفتح: ١٨ – ٢١].

وفي هذه الآيات – أيضًا – أخبار مستقبلية تحققت كلها وهي فتح مكة، والفتوحات الكثيرة التي فتحها المسلمون وغنموا منها الغنائم الكثيرة.

ثم يقرر الله قاعدة مطردة وهي أن الكفر لا يهزم الإيمان، وأن كفار مكة لو قاتلوا المسلمين لانهزموا وفروا لما وجدوا لهم نصيرًا ينصرهم. فهذه سنة الله التي لا تتبدل. ولكن الله أراد أن يمنع الطرفين عن القتال فمنع المشركين من القتال بالحديبية. ومنع المسلمين أيضًا من القتال، من بعدما تحقق لهم نصر عليهم بأسرهم أربعين أو أكثر من رجال قريش الذين أرسلوهم ليصيبوا منهم ما استطاعوا فألهم الله رسوله أن يعفو عنهم، ولو أسرهم أو قتلهم لنشبت الحرب ولكن الله لم يرد ذلك ليكفي المسلمين القتال، ويمنعهم من القتال في البلد الحرام والشهر الحرام وكان الله بصير بأعمالكم وأحوالكم فيسر لكم ما فيه خيركم.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[الفتح: ٢٢ – ٢٤].

ثم ذكر الله استحقاق المشركين للعذاب لأنهم كفروا بالله، ومنعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام، ومنعوا الهدي الذي سقتموه ليذبح في الحرم عن أن يصل إلى محله ثم يذكر الله بعض الأسباب التي أدت إلى منع القتال، ودخول مكة عنوة وذلك أن فيها مؤمنين مستضعفين يخفون إيمانهم، ومؤمنات كذلك. فلو أذن الله لهم في القتال لأدى ذلك إلى أن يقتلوا بعض هؤلاء المسلمين دون أن يدروا. كما أن الله يريد لبعض هؤلاء المشركين أن يدخلوا في الإسلام فينالوا رحمته. فلو كان المؤمنون الضعاف مميزين في مكة لأذن الله لكم بالقتال ليعذب الكافرين من أهل مكة عذابًا أليمًا. ثم يذكر الله ما ظهر من حلف أهل مكة وغاطرستهم في أثناء كتابة العقد. عندما أصر سهيل ابن عمرو على عدم كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»

وكتابة «رسول الله» بعد محمد يدفعه إلى ذلك حمية الجاهلية فأنزل الله السكينة في قلب رسوله والمؤمنين فلم يقابلوا غطرسته بغطرسة كانت كفيلة بإشعال الحرب بل ألزمهم منهج الإسلام القائم على تقوى الله، وطاعة رسوله. وكانوا هم أولى الناس بالتزام التقوى، والجديرين بفضيلتها؛ فالله عليم بكل شيء.

يقول تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح: ٢٥ – ٢٦].

ثم تختتم الآيات المتصلة بصلح الحديبية اتصالًا مباشرًا بتأكيد الله أن ما رآه رسوله في منامه من دخول المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين، وقد حلقوا شعورهم أو قصروها هو رؤيا حق وستتحقق قريبًا. وقد علم الله الذي لم تعلموه من أن صلح الحديبية فيه خير للمسلمين، فجعله لكم نصرًا قريبًا. وذلك أن هذا الصلح دفع كثيرًا من الناس إلى الدخول في الإسلام فبينما كان عدد المسلمين في صلح الحديبية أربعمائة وألف صار في فتح مكة بعد عامين اثنين عشرة آلاف. ثم يذكر الله أنه هو الذي أرسل محمدًا بدين الإسلام دين الهدى والحق، وقد وعد الله بأن يظهر هذا الدين على جميع الأديان، وهو شاهد على حدوث ذلك وكفى بشهادته شهادة.

يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح: ٢٧ – ٢٨].

وتختتم السورة بصفات محمد وأصحابه في التوراة والإنجيل. وقد تناولت هذه الآيات في فصل: «البشارات بمبعث الرسول».



غزوة خيبر (المحرم سنة ٧هـ)

عند قدوم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، وجد بها طوائف من اليهود. وقد أراد أن يعايشهم، فهم أهل كتاب سماوي، وأجدر أن يعرفوا صدق الدعوى التي يدعو إليها الرسول. وقد كتب الرسول صحيفة تعتبر دستور أهل المدينة، وجاء فيها أن اليهود أمة مع المؤمنين، وأن لهم دينهم، وللمسلمين دينهم. ولكن اليهود لم يرعوا العهود، وظهرت منهم بوادر الغدر والخيانة. فأجلي الرسول بني قينقاع وبني النضير فذهب بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى الشام. ثم أنفز في بني قريظة حكم سعد بن معاذ الذي ارتضوه حكما من قتل وأسر وسبي.

لم يسلم يهود خيبر من الحقد والضعيفة على محمد، وكان يؤجج هذا الحقد وهذه الضغينة من أقام معهم من بني قينقاع وبنى النضير وقد عرفنا الدور الذي قام به حيي بن أخطب في تأليب العرب على المسلمين وزاد مقتل بني قريظة من بغض اليهود للمسلمين، وحرصهم على الثأر من محمد.

كان الرسول ﷺ يدرك ما يعتمل في نفوس اليهود المقيمين في خيبر وما حولها، وأنهم ينتظرون الفرص للقضاء على المسلمين، وكان يبلغه ما يدور بينهم من أحاديث تعبر عن الرغبة في زوال هذا الدين وصاحبه. وكانت طبيعة الرسول الحربية- التي عهدناها في غزواته- أنه لا ينتظر العدو- إذا كان مضمر الشر حتى يباغته بل يباغت هو العدو، ويأتيه من حيث لا يحتسب، لقد عقد الرسول صلحًا مع قريش، فأمنت المدينة من ناحية الجنوب، فلا بد من تأمينها من ناحية الشمال.

سار الرسول إلى خيبر بعد عودته من الحديبية في شهر المحرم بعد أن أقام بالمدينة أكثر من شهر. وخيبر واحة عامرة بالخيرات، مملوءة بالنخيل والزروع، وكانت تسمي ريف الحجاز. وتبعد عن المدينة شمالا بنحو مائة ميل . وكانت مقسمة إلى مناطق هي النطاة، والشق، والكتيبة، وفي كل منطقة عدة حصون منيعة؟. فمن حصون النطاة حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ وحصن الزبير.

ومن حصون الشق حصن أبي، وحصن البريء. ومن حصون الكتيبة الوطيح والسلالم، والقموص، وكانت كلها حصونًا منيعة على رءوس الجبال. وكان رجالها مدربين قد مارسوا القتال والنضال. وكانوا من أقوى الطوائف اليهودية بأسًا، وأوفرها مالًا، وأكثر سلاحًا. وكان مقاتلوهم نحوا من عشرة آلاف. خرج رسول الله ﷺ ومعه من صحبه في الحديبية. فقد أبي رسول الله أن يصحبه غيرهم، وقد أراد الأعراب الذين تخلفوا عن مرافقته في الحديبية أن يصحبوه إلى خيبر من أجل ما توقعوه من الغنيمة فمنعهم رسول الله ألا يقاتلوا دون الحصول على مغانم وكان كل من مع الرسول نحوا من ثمانمائة وألف.

وصل الرسول وجيشه إلى خيبر بعد سير ثلاثة أيام في فجر اليوم الرابع. وقد فوجئ به عمالهم الخارجون إلى الزراعة بمساحيهم ومكاتلهم فقالوا: محمد والخميس[١] وفروا راجعين. وقال الرسول: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وقد نزل الرسول بواد يقال له: الرجيح وهو واد بين خيبر وقبيلة غطفان وقد اختاره الرسول ليحول دون مناصرة غطفان لليهود. وقد كانوا في حلف معهم ضدا الرسول. ويقول بعض الرواة إن غطفان حاولت فعلا أن تساعد يهود خيبر فساروا إليهم يومًا ثم سمعوا خلفهم جلبة وأصواتًا فظنوا أن المسلمين أرسلوا جيشًا منهم إلى أهليهم وأموالهم فرجعوا على أعقابهم، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر.

وكان اليهود يتجمعون أمام كل حصة ليقاتلوا المسلمين، فإذا اشتد القتال دخلوا الحصن وأغلقوه عليهم، فيحاصرهم المسلمون حتى يجلوهم، فيتجمعون حول حصن آخر وهكذا . كان الحصار يطول أحيانا أمام بعض الحصون لأكثر من أسبوع.

---

(١) الجيش العظيم.

وقد بدأ القتال أمام حصن «ناعم» وكان قائد اليهود سلام بن مشكم، وكان اليهود يستميتون في الدفاع عن كل شبر من الأرض. وطال حصار هذا الحصن وجهد المسلمون، ومكث الرسول سبعة أيام يقاتل أهل هذا الحصن، وهو يعطي الراية كل يوم إلى أحد من أصحابه حتى فتحة الله علي يد على بن أبي طالب. وقتل في هذه المعركة البطل اليهودي «مرحب» الذي كان يتحدى المسلمين بشجاعته. ثم انتقل القتال إلى حصن آخر هو حصن الصعب بن معاذ، ودار القتال حوله، ثم طال حصاره واشتدت بهم المجاعة حتى أكلوا لحوم الحمير فنهاهم الرسول عنها، ورخص لهم في أكل الخيل إلى أن فتح الله عليهم هذا الحصن، فوجدوا فيه من الشعير والتمر والسمن والزيت والعسل والمتاح شيئًا كثيرًا. كما وجدوا فيه في بيت تحت الأرض منجنيقا ودبابات[١] ودروعًا وسيوفًا وكثيرًا من آلات الحرب. وقد دلهم عليها رجل من اليهود أراد بذلك أن يفتدي حياته. وبعد انتقال القتال من حصن إلى حصن استسلم اليهود وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة، وسبي كثير من النساء والذراري. وكان من السبايا السيدة صفية بنت حيي التي اصطفاها الرسول لنفسه، وأصبحت زوجا له. وقد استسلم اليهود، ورجوا الرسول أن يبقيهم بأرضهم يزرعونها، ويعطون الرسول النصف كل عام فوافق الرسول على أن له أن يخرجهم منها متى شاء. وقد اشترط الرسول ذلك تحسبا لغدرهم.

وكان رواء خيبر، وعلى مسافة منها، تجمعات يهودية أخرى في فدك، ووادي القرى وتيماء. فلما سمع أهل فدك بما حدث في خيبر أرسلوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يعاملهم في الأموال على النصف. فصالحهم رسول الله على ذلك وعلى أنه إذا شاء أن يخرجهم أخرجهم فكانت فدك خالصة لرسول الله دون المسلمين لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب «أي لم يقاتلوا من أجل الاستيلاء عليها

---

(١) آلات من خشب أو جلد يستتر تحتها المقاتل لينقب الحصن.

وذلك على عكس خيبر التي أخذها المسلمون عنوة فكانت فيئًا لهم: لرسول الله الخمس وللمسلمين أربعة أخماس: للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم: له سهم ولفرسه سهمان».

مؤامرة يهودية:

ويأبى اليهود إن يقلعوا عن كيدهم للرسول حتى نساؤهم فقد حاولت امرأة منهم هي زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم الذي قتل في المعركة أن تسم رسول الله فأهدت إليه شاه مشوية بعد أن وضعت فيها السم، وسألت عن أحب أجزاء الشاه إلى رسول الله، فقيل لها الذراع فأكثرت فيها السم. فلما وضعتها بين يدي رسول الله تناول الذراع، فأخذ منها قطعة فوضعها في فمه فأنكر طعمها فلفظها وقال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم. وكان معه بشر بن البراء بن معرور فأكل منها - ودعا الرسول بالمرأة فاعترفت. فقال : ما حملك على هذا؟ فقالت: فعلت بقومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكا استرحت منه. وإن كان نبيا فَسيخبَر فتجاوز عنها رسول الله. ومات بشر من أكلته التي أكل. وقد قال رسول الله في مرضه الذي مات فيه لأخت بشر بن البراء عندما ذهبت تعوده: يا أم بشر، إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري[١] من الأكلة التي أكلت مع أخيك بشر»، فكان بعض المسلمين يعتبرونه مات شهيدا.

وادي القرى وتيماء:

لما فرغ رسول الله ﷺ من أهل خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهلها ليال حتى أسلموا، ورضوا بالصلح على ما صالحت عليه أهل خيبر. وأما أهل تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال.

---

[١] عرق إذا انقطع مات صاحبه.

وبذلك خضع اليهود كلهم للرسولﷺ ، وانتهى وجودهم السياسي والعسكري من شبه الجزيرة العربية.

وبينما المسلمون في فرحهم بفتح خيبر إذ قدم عليهم جعفر بن أبي طالب ومن معه من مهاجرة الحبشة وسُر بهم رسول الله ﷺ سرورًا عظيمًا وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر».

وقد اشترك في غزوة خيبر بعض النساء المسلمات فقد أتت إحدى نساء بني غفار مع بعض النساء إلى الرسول وهو متوجه إلى خيبر فقالت له: قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا فنداوي الجرحى، فقال: على بركة الله. وبعد انتهاء القتال أعطاهن الرسول بعض المال من الغنائم ولكن لم يجعل لهن سهما كسائر المقاتلين لأن مغانم خيبر كانت مخصصة لمن شهد الحديبية فقط.

وقد عاد الرسول الله إلى المدينة بعد أن قسم الغنائم بين المقاتلين وكانت مغانم كثيرة مصداقا لوعد الله للمسلمين يوم الحديبية : «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه».

قريش تهتم بأنباء الغزو:

لما علمت قريش بغزو الرسول لخيبر كانت تتلهف على نتيجة هذه الغزوة، وكان يراهن كثير من المشركين على انتصار اليهود؛ فهم – كما يعلمون– ذو عدد كثير وعدة وعتاد. وكانوا يتوقعون أن تنضم إليهم غطفان لتعويض ما فاتها يوم الأحزاب. فكانوا يتشوقون إلى سماع الأخبار. وقد استطاع أحد المسلمين أن يخدعهم بفرحة كاذبة لأيام قليلة، ليعرفوا بعدها نبأ انتصار الرسول، فتعود الفرحة غمًّا دائمًا. وذلك أن الحجاج بن علاط السلمي جاء الرسول وأعلن إسلامه، وقال له إن له مالًا بمكة، ويريد أن يحصل عليه قبل أن يعلموا بإسلامه، وإنه متوجه إليهم لذلك واستأذن الرسول في أن يكذب فأذن له. فلما وصل مكة التفوا

حوله يسألونه عن أخبار المعركة فأخبرهم أن اليهود انتصرت، وأنهم أسروا محمدا، وسيحضرونه إلى قريش ليروا فيه رأيهم. فسروا لذلك سرورًا بلغا، وشاع الخبر في مكة، وأخذ أهلها ينتظرون محمدا ليحضر إليهم مكبلا. ولكن شخصا واحدا غمه النبأ هو العباس عم النبي فذهب إلى الحجاج وطلب منه أن يصدقه الخبر. فأخبره بإسلامه وبخديعة الكفار وطلب منه أن يكتم الحقيقة إلى أن يمضي على خروجه من مكة ثلاثة أيام كي لا يلحقوا به، وقد ساعد الكفار في جمع ماله حتى استوفاه كله، ثم استأذنهم في أن يلحق باليهود ليشتري مما غنموه من المسلمين. وبعد ثلاثة أيام أذاع العباس حقيقة الأمر فانقلب الفرح مأتمًا.

خواطر حول غزوة خيبر:

١ - أول شيء يخطر بالبال أن محمدا رسول الله حقا بدليل النصر المبين الذي أحرزه في هذه المعركة التي أخبره الله به وهو عائد من مهمة يظنها كثير من المسلمين غير موفقه. ويطلب الله منه – وهو مقبل على قوم يفوقون جيش الحديبية أضعافًا مضاعفة ألا يصحب معه غير الذين صحبوه في الحديبية ويعده غنائم كثيرة معجلة. ويتحقق النصر رغم استبسال اليهود في الدفاع عن حصونهم، الأمر الذي لم يعهد منهم في مواقعهم السابقة. فقد كانت هذه في رأيهم الموقعة الأخيرة، معركة الحياة أو الموت، ولكنهم هزموا رغم كل هذا بل رضوا أن يعملوا أجراء في أرض محمد وأصحابه، ويتنازلوا عن كبريائهم وكرامتهم. أفليس هذا دليلا على تأييد الله لرسوله، وأن محمد رسوله حقا وصدقا.

٢- على الرغم مما تمتلئ به صفحات التاريخ من انتشاء القائد بنصره الذي يدفعه على ارتكاب كل ما يستطيع من فظائع في حق المهزوم، لم يكن الرسول الله ﷺ مجاوزا حدود النبل والإنسانية في التعامل مع أعدائه، وهذه بعض أمثلة تدل على ذلك: أتى رسول الله ﷺ أجير لبعض اليهود يرعي لهم غنمهم، والرسول

محاصر لحصنهم وكان معه أغنامهم فطلب من الرسول أن يعرض عليه الإسلام فعرضه عليه فأسلم. فلما أسلم قال يا رسول الله، إني كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي فكيف أصنع بها؟ فقال رسول الله: اضرب في وجوهها فإنها سترجع إلى صاحبها، ففعل الراعي فذهب جميعها إلى الحصن فدخلته لم يأخذها الرسول لنفسه غنيمة، فهي أمانة عند الراعي. فهل قوانين الحرب في أي عصر تمنع هذا؟

ومثل آخر، فقد تحدثت كتب السيرة أن بلالا -بعد فتح بعض الحصون وسبي فيه من نساء حمل صفية بنت حيي ومعها امرأة أخرى ليذهب بهما إلى الرسول فمر بهما على قتلى اليهود فلما رأته الفتاة التي مع صفية صاحت وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها. فلما رأى الرسول تلك الفتاة قال لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال حيثما تمر بامرأتين على قتلي رجالهما؟ فهذا مثل لرفق الرسول بأعدائه- يتألم لمجرد إيذاء شعور هاتين الفتاتين. وربما لم يكن هذا الإيذاء مقصودا.

ومثل أخير: كان بين المغانم التي غنمها المسلمون من خيبر صحائف من التوراة طلب اليهود من الرسول تسليمها إليهم فأعطاهم إياها، ويبدي المؤرخ اليهودي الحديث إعجابه بهذا الموقف فيقول: «... ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إليه بالبنان، ويحفظون له هذه اليد إذ لم يتعرض لصحائفهم المقدسة بسوء. ويذكرون إزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ قبل الميلاد إذا أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم. وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضا صحف التوراة هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام».

٣- لم تكن المرأة كمًّا مهملًا عند رسول الإسلام، بل كان لها وزنها

ومشاركتها في أهم ما يعرض للمسلمين وهو القتال كما رأينا من إذنه لنساء بني غفار بالمشاركة في القتال بمداواة الجرحى، وهو العمل الذي تصلح له المرأة. ولم تكن هذه المشاركة أول مشاركة للنساء. فقد مر بنا خيمة «رفيدة» حيث كان يعالج سعد بن معاذ وغيره من الجرحى كما عرفنا دور نسيبة في معركة أحد، ومداواتها الرسول .



الجهاد السلمي

مكاتبة الملوك

كانت الهدنة بين قريش والمسلمين خيرًا وبركة على المسلمين فقد استغلها الرسول ﷺ في توطيد أركان دعوة الإسلام قضي على اليهود في خيبر فاستراح من مكايدهم ودسائسهم، وتفرغ لنشر رسالته، فجهز كتبا ورسلا يحملونها إلى كل ما يمكن أن تصل إليه دعوة الإسلام كتبا إلى هرقل قيصر الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس، أمير مصر والنجاش ملك الحبشة وغيرهم من ملوك العرب وأمرائهم.

وكانت الكتب كلها تتضمن معني واحدا هو الدعوة إلى الإسلام التي فيها سلامة الملك ورعيته، وأن إعراضه عن هذا الدعوة يحمله إثم رعيته.

يقول كتابه إلى هرقل أعظم ملوك العالم المعاصر للرسول: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين [١]، يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وقد اختلفت ردود الملوك فمنهم من استجاب للدعوة كالنجاشي ملك الحبشة الذي أعلن إسلامه، ومنهم من رد ردا رقيقا كالمقوقس عظيم القبط الذي شفع رده بهدايا منها جاريتان هما مارية التي ولدت للرسول ابنه إبراهيم وسيرين أختها التي وهبها الرسول إلى حسان بن ثابت. ومنهم من حاول أن يستجيب للدعوة لولا مقاومة بطارقته فأهمل الرد وهو هرقل قيصر الروم. ومنهم من مزق

---

(١) من معانيها الخدم والحشم والمراد الرعية.

رسالة النبي مثل كسرى وأرسل إلى عامله على اليمن (بـازان) ليحضـر لـه محمـدا مقيدا في السلاسل فلما سمع الرسول ذلك قال: مزق الله ملكه، وقـد اسـتجاب لا لله دعاءه فقد مات كسرى قبل أن ينفذ عامله أمره بل لقـد أسـلم هـذا العامـل ثـم استولى المسلمون على بلاده كلها قبـل مضـي نيـف وعشـر سـنوات عـلى تمزيقـه الرسالة.

إن المتأمل في أمر هذه الرسائل ليمتلئ قلبه يقينًـا بـأن هـذا الرجـل محمـدا رسول الله حقًّا وصدقًا أرسله الله إلى الناس كافة وإلا فكيـف يجـرء وهـو العربـي البسيط الذي لا يزال كثير من قومه الأَدْنين ومن بين جنسه مـن العـرب يناصـبون دينه العداء، كيف يجرؤ أن يتجاوز هذا إلى أعظم ملوك العالم يدعوهم إلى دينه، وفي إمكان بعضهم أن يمحو شبه الجزيرة العربية كلها، ويخضعها لسلطان ولن يكلفـه ذلك كثيرا. وقد حاول أحدهم ذلك – وهو كسرى – لولا تدخل القدرة الإلهيـة؟ إنه لا يجرؤ على فعل هذا إلا إنسان واثق تمـام الثقـة أن الله مؤيـده وناصـره، ولـن يتخلى عنه لأنه هو الذي أرسله. أما أن يكون –مع هـذا– مُـدَّعِيًا فـلا يمكـن لـذي عقل أن يتخيله فضلا عن أن يصدقه.

وأقام المسلمون في المدينة آمنين مطمئنين لا يكدر صـفوهم مكـدر، ولا يفكرون من أمر الغزو في شيء إلا أن يكون إرسال حملات تأديبية لمن يظنـون أنـه قد يحاول الاعتداء عليهم أو سلب بعض حقـوقهم حتـى حـل ذو القعـدة موعـد عودتهم إلى مكة لأداء العمرة على حسـب اتفـاقهم مـع قـريش فأخـذوا يتجهـزون لذلك.

❁❁❁

عمرة القضاء (ذو القعدة سنة ٧هـ)

رجع رسول الله ﷺ من خيبر في نهاية صفر للعام السابع من الهجرة فأقام بالمدينة إلى أن أقبل شهر ذي القعدة وهو موعد عمرتهم التي صدوا عنها في العام السابق. فخرج في ألفين من أصحابه منهم من شهدوا الحديبية، وانضم إليهم المشوقون إلى العمرة وزيارة بيت الله الحرام. وكان صلح الحديبية ينص على ألا يدخل المسلمون مكة بسلاح إلا السيوف في قربها. ولكن الرسول تخوف غدر قريش فأعد مائة فرس وسلاحا كثيرا أخذوها معهم على ألا يدخلوا بها مكة بل تبقي في مر الظهران يحرسها مائتا رجل تَحسُّبًا لأي مكيدة.

ولما دخل الرسول مكة كانت قريش قد أخلتها للمسلمين، وذهبوا إلى الجبال المحيطة بمكة حيث يمكنهم أن يطلعوا على ما يفعل المسلمون. وكان قد شاع بين مشركي قريش أن محمدا وأصحابه قد أنهكتهم حمي يثرب، وأنهم في شدة عسر من حياتهم. فقال الرسول لأصحابه: رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة اليوم. وأخذ يطوف البيت هو وأصحابه يهرولون في الأشواط الثلاثة الأول – أي يمشون مشيًا سريعًا قريبًا إلى الجري – وكذلك في مسافات محددة في السعي بين الصفا والمروة. فرأى المشركون فيهم قوة وعزمًا و انضباطًا وأعجبوا بالتفافهم حول الرسول، والتفاني في طاعته، ودخل نفوس كثير منهم ما يشبه الإيمان بهذا النبي ودينه وذلك كان له أكبر الأثر في إسلام كثير منهم دون تردد بعد ذلك. وعلى رأس هؤلاء خالد بن الوليد وعمرو بن العاص كما سنرى. وبعد أن أتم الرسول عمرته هو وأصحابه أرسل مائتين ليحرسوا الخيل و السلاح كي يتمكن الحراس الأصليون من أداء عمرتهم وزيارة البيت.

زواج الرسول بميمونة بنت الحارث:

وفي أثناء هذه العمرة تزوج الرسول من ميمونة بنت الحارس الهلالية وهي

أخت أم الفصل زوج عمه العباس. وكانت قد وكلت أختها في تزويجها، فوكلت أختها العباس أن يزوجها للنبي فزوجها إياه. وأراد النبي أن يحتفل بهذا الزواج بمكة ولكن الأيام الثلاثة التي حددتها شروط الصلح للبقاء بمكة انتهت. فجاءه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش يطلبون منه مغادرة مكة هو وأصحابه فقال لهم: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه. فكان ردهم على هذه الدعوة الكريمة ردًّا جافيًا غليظًا: لا حاجة لنا بطعامك فاخرج عنا: فأمر أصحابه بالرحيل. وترك أبا رافع مولاه ليحضر ميمونه التي دخل بها في بعض مراحل الطريق بمكان يقال له: سرف.

لقد أدرك كفار قريش مدى التأثيرات الذي أحدثه وجود المسلمين في مكة في نفوس كثير من رجالهم ونسائهم، وخشوا لو طال مقامة بينهم أن ينتقل الإعجاب به وبأصحابه إلى الإيمان برسالته فأسرعوا إلى إخراجه ورفضوا دعوته.

وهكذا تحقق الوعد الإلهي، وصدقت رؤيا الرسول: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾ [الفتح: ٢٧].

إسلام خالد وعمرو:

لقد تركت عمرة القضاء في نفوس كبار المشركين أثرًا عظيمًا دفعت كثيرًا منهم إلى التفكير في موقفهم من محمد. ومن هؤلاء خالد بن الوليد الذي كان متحيرًا في أمره بعد الانتصارات المتتالية للرسول، لا يدري ما يصنع، أيهاجر؟ ولكن إلى أين؟ وبعد عمرة القضاء أعلن لأصحابه: « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمدًا ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذي لب أن يتبعه». ويفزع عكرمة بن أبي جهل من إعلانه هذا، ويجادله محاولًا إثناءه عن رأيه، ولكنه يصر عليه ويهدده أبو سفيان فلا يأبه لتهديده. وينطلق إلى رسول

الله فيلقى في طريق عمرو بن العاص الذي يسأله إلى أين يا أبا سليمان؟ فيقول له: والله لقد استقام المنسم [١] وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم. فحتي متى؟ فيجيبه عمرو: والله ما جئت إلا لأسلم. ويذهبان معًا إلى الرسول ﷺ ولقد كان عمرو مثل خالد متحيرًا في أمره كارهًا لظهور محمد وانتصاراته. فلما عقد صلح الحديبية وعرف أن محمدًا سيدخل بأصحابه مكة كره ذلك، وقرر الهجرة إلى الحبشة عند صديقة النجاشي، ولكنه وجد النجاشي يقدر محمدًا ويحترمه، ويدعو عمرًا إلى الدخول في دينه، فيعود إلى مكة وقد نوى الإسلام. وقد كان قد دعا بعض أصحابه إلى الدخول معه في الإسلام فاستجاب له عثمان بن طلحة. فذهب ثلاثتهم للقاء الرسول وإعلان إسلامهم. فلما سمع الرسول بمقدمهم قال: لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها.

لقد فرح الرسول بإسلام خالد وعمرو فرحًا شديدًا فقد كان خالد فارس قريش الذي لا يقهر، وعمرو داهيتها. وقد عبر عمرو عن إعزاز الرسول إياهما بقوله: فوالله ما عدل بي رسول الله وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمر حَزَبَه منذ أسلمنا...».



---

(١) أي تبين الطريق ووضح.

غزوة مؤتة (٨هـ)

وتسمي سرية «مؤتة» أيضًا. والفرق بين الغزوة والسرية أن الغزوة يقودها الرسول الله ﷺ . وأما السرية فلا يكون فيها بل يؤمر بها أحد أصحابه. لكن مؤتة سميت غزوة بسبب كثرة عدد الجيش فيها فقد كان ثلاثة آلاف. ومؤته هي القرية التي عسكر فيها المسلمون أمام جيوش الروم وتقع في البلقاء من أرض الشام.

وسبب هذه الغزوة أن الرسول ﷺ أرسل رسولا إلى شرحبيل بن عمرو أمير غسان من قبل الروم يحمل كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام – مثلما فعل مع غيره من الملوك والأمراء – غير أن هذا الأمير استقبل الرسول استقبالا سيئًا؟، وأمر بشد وثاقه وضرب عنقه. وهو الأمير الوحيد الذي فعل ذلك برسول من الرسل . فكان لا بد من الرد بحزم على هذا الأمير الجلف الذي لم يرع حرمة الرسول استهانة بمرسلة؛ كي لا تضعف هيبة المسلمين بين أعراب شبه الجزيرة الذين رسخ في عقولهم عزة الإسلام، ويستهان بأمر الإسلام والمسلمين.

أعد الرسول ﷺ جيشًا قويًّا قوامه ثلاثة آلاف رجل ليؤدب هذا المعتدي. ولإحساس الرسول بصعوبة المعركة المنتظرة، وما يتوقع من اشتداد القتال بها لم يكتف بقائد واحد لها بل عين لها ثلاثة من القادة يتولى كل واحد منهم القيادة إذا قتل من قبله فقال: الأمير زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة فإن قتل فليرتض المسلمون من بينهم قائدًا. وقد حدث ما توقعه الرسول. لقد خرج الجيش في سريه يريد أن يباغت العدو ولكن الخبر وصل إلى شرحبيل فأعد للقائه جيشًا عرمرمًا يقال إن تعداده مائتا ألف؛ من العرب مائة ألف ومن الروم مائة ألف، تحت قياده هرقل أو أخيه تيودور – خلاف بين المؤرخين- كيف حدث هذا؟ كيف يعبئ هرقل وتابعه شرحبيل كل هذا العدد وما يلزم من العدة لملاقاة جيش قوامه ثلاثة آلاف؟ تختلف تعليلات المؤرخين؛ فمن قائل إن

هرقل أحس بخطورة محمد ودعوته على ملكه ودينه، وتجرئه على مكاتبته داعيًا إياه إلى الإسلام فأراد أن يقضي على هذا الخطر قضاء مبرمًا. ومن قائل إن هذا التجمعات الضخمة أتت بطريق الصدفة فقد كان قيصر ذاهبًا إلى القدس ليحج شكرا لله بعدا انتصاره على الفرس واسترداده الصليب المقدس الذي أخذه الفرس من القدس. وأميل إلى هذا الرأي فليس بمعقول أن يجمع هرقل كل هذه الجيوش لملاقاة جيش عربي مهما كان.

فوجئ المسلمون بهذه الجموع الغفيرة وتشاوروا فقال بعضهم إن رسول الله لم يرسلنا لملاقاه هذه الجموع، فلنكتب إليه نستشيره، وننتظر حتى يصلنا أمره. ولكن عبد الله بن رواحة قال لهم « والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين: إما ظهور وإما شهادة»، فشجع ذلك المسلمين على المضي إلى القتال.

بدأت العركة بقيادة زيد بن حارثة الذي استمات في القتال، ولكنه لم يلبث أن قتل . فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب واستبسل في القتال فقطعت يمناه وأخذ الراية بيسراه فقطعت يسراه. فأخذها بين عضدية حتى قتل، فتولى القيادة عبد الله ابن رواحه، وقاتل حتى قتل ولم يبق أمام المسلمين إما المسلمين إلا أن يرتضوا أحدهم للقيادة كما أمر رسول الله. وقد استقر رأيهم على خالد بن الوليد فتولى القيادة وقد غير من وضع جنوده في أثناء الليل فجعل الميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، والمقدمة مؤخرة والمؤخرة مقدمة. وجعل في الصباح رجالا وراء الجيش يثيرون الغبار ويحدثون جلبة وضوضاء. فدخل في روع الروم أن المسلمين جاءهم مدد لا يدرون عدده. ولا سيما أن الروم وجدو أمامهم وجوهًا جديدة ورايات مختلفة. فإذا كان المسلمون فعلوا بهم الأفاعيل أمس، وأحدثوا فيها مقتلة قبل أن يأتيهم المدد فماذا يكون شأنهم بعد وصول المدد؟ فلما رأوه

يتراجعون ظنوا انسحابهم استدراجًا لهم لإيقاعهم في كمين فتركوهم يتراجعون وهكذا استطاع خالد أن ينجو بجيشه لم يقتل منه سوى اثني عشر رجلا، وهذا يعتبر نصرًا كبيرًا للمسلمين. فلو تهور خالد واستمر في القتال لكان من الممكن أن يفقد جيشه كله، ولا يحقق شيئا.

عاد جيش المسلمين سالمًا لا ينقصه إلا قادته الثلاثة وتسعة رجال آخرين وقد اعتبر مسلمو المدينة عودة الجيش دون أن يحقق شيئًا كما تعودوا في كل معركة أن يكون في ركابهم النصر والظفر – هزيمة – فخرجوا إليهم يحثون التراب في وجوههم ويقولون: يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله. ولكن الرسول قدر الموقف التقدير السليم فقال: بل الكُرَّار إن شاء الله. وحزن الرسول حزنًا شديدًا على القادة الثلاثة وخصوصا زيدًا وجعفرًا. ودمعت عيناه كثيرًا. ولما قيل له أتبكي على الشهداء؟ قال إنه لفراق الصديق. وكان الرسول أخبر أصحابه بمقتل القادة الثلاثة يوم مقتلهم. فقد أوحي الله إليه بهذا الخبر.

اختلاف تقويم المعركة:

أما المسلمون فقد اعتبروها هزيمة، ولكن الرسول خالفهم الرأي. ولم يدفع المسلمين إلى ذلك إلا اعتيادهم النصر في معاركهم بعد أحد، واعتبارهم أن النصر هو ما يدفع الأعداد إلى الفرار، ويعود فيه الجيش الظافر محملاً بالغنائم ولكن هناك مقاييس أخرى للنصر منها الانسحاب بالجيش سالما من معركة غير متكافئة ولعل أقرب مثال لذلك في عصرنا انسحاب الجيش المصري سالما أيام العدوان الثلاثي واعتبر ذلك نصرًا. وهناك انسحاب مشهور سجله التاريخ العسكري الحديث وهو انسحاب الحلفاء من معركة دنكرك أيام الحرب العالمية الثانية بجيشهم سالما واعتبر هذا نصرًا عظيمًا.

ومن مقاييس النصر أيضا ثبات الجيش في المعركة، واستماتته في القتال. وقد

كانت هذه صفات المسلمين في غزوة مؤته. وأول ذلك إقدامهم على القتال صدقوه وعرفوا أنها تفوقهم في العدد والعدة أضعافا مضاعفة: ثلاثة آلاف ضد مائتي ألف أي واحد إلى ستة وستين وثبتوا أمامهم وقاتلوهم حتى قتل قوادهم الثلاثة في المعركة ولم يقتل قائد من هؤلاء القادة إلا بعد أن أبلي بلاء حسنا في القتال ويكفي مثلا لذلك جعفر بن أبي طالب. ثم عدم اهتزاز الجيش لمقتل أي من هؤلاء القادة بل ظلوا ثابتين في مواقعهم حتى تخيروا قائدهم خالدا الذي قاتل في المعركة حتى اندق في يده تسعة سيوف تم انسحب بجيشه انسحابا منظما حتى ظنه الأعداء خدعة فلم يتبعوهم. وكان بإمكان المسلمين أن يفروا تحت جنح الظلام. ولكنها الشجاعة والحرص على هيبة المسلمين. من أجل ذلك سماهم الرسول الكرار وسمي خالدا سيف الله المسلول.

وأما الروم والعرب المحيطون بهم الذين شهدوا المعركة أو سمعوا بها عن قرب فقد قدروا قيمة الشجاعة الإسلامية، وازدادت هيبة المسلمين في قلوبهم فلم يتبعهم الروم، بل لم يحاولوا لقاءهم بعد ذلك في حياة الرسول. فعدما ما ذهب الرسول إليهم في غزة تبوك ليبين لهم أن ما حدث في مؤتة لم يزعزع ثقتهم بنصر الله لم يخرجوا إليهم. ورجع المسلمون من غير قتال. كذلك لم يحاول أحد من القبائل العربية المتاخمة للروم إن يغير على المسلمين . بل نظروا إلى ما فعله المسلمون بإعجاب شديد. وكان من ذلك أن أحد زعمائهم وهو فروة بن عمرو الجذامي وكان قائدًا لفرقة من جيش الروم- ما لبث أن أعلن إسلامه فقبض عليه بأمر هرقل بتهمة الخيانة. وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية، وإعادته إلى مركزه في القيادة لكن فروة أبي وأصر على إسلامه فقتل. وكان من ذلك أيضا أن ازداد الإسلام انتشارا بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم في ذروته.

وأما قريش فقد اعتبرتها هزيمة للمسلمين، وفرحت بعودتهم خائبين إلى

المدينة في زعمهم. ولعل هذا مما سهل عليها عدم احترام عهد الحديبية. فنقَضت شرطًا من شروطه. وإن كان كيدها قد ارتد إلى نحرها كما سنرى .



فتح مكة (رمضان ٨هـ)

كان من شروط صلح الحديبية أن من دخل في عهد أي من الطرفين أصبح حليفا له، وتنطبق عليه شروط الصلح. فدخلت بنو بكر مع قريش، وصارت كمثلها. وكذلك دخلت خزاعة في عهد الرسول ﷺ. كان بين بني بكر وخزاعة ثأرات قديمة قبل الإسلام، وكف الفريقان عنها بعد مجيء الإسلام، وانشغال العرب جميعًا به؛ معه أو ضده. فلما وقع صلح الحديبية تذكرت بنو بكر – بعد فترة – ثأرها عند خزاعة فأرادوا أخذه، وأغراهم على ذلك رجال من قريش. فبينما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يقال له: «الويتر» فوجئوا بجماعات من بكر تعمل فيهم السيف. فلجأت خزاعة إلى الحرم لتحتمي به فتبعهم بنو بكر غير عابئين بحرمة البيت وقتلوا منهم نحوا من عشرين رجلا. فذهب زعيمهم عمرو بن سالم إلى رسول الله يشكو له نقض قريش العهد، ويخبره بما حدث فقال له الرسول: «نصرت يا عمرو» ثم جاء إلى النبي بعده زعيم آخر لخزاعة وهو بديل بن ورقاء يستنصره على قريش . وقد حاول إخفاء ذهابه إلى الرسول عن قريش، ولكنهم علموا به.

أدرك أبو سفيان خطورة الأمر، وأن محمدا لن يسكت عن نقض العهد، ولا بد من محاولة إثنائه عن ذلك [لقد أصبحت قريش تخشي بأس الرسول وتجبن عن لقائه] فلم ير خيرا من أن يذهب بنفسه للقاء الرسول وتأكيد العهد [يا سبحان الله أبو سفيان زعيم الغطرسة القرشية، والاستكبار الكافر يذهب إلى الرسول راجيا العفو عما وقع من خطأ]، ويقول الرسول ﷺ لأصحابه: «كأني بأبي سفيان قد أتى ليشد العقد ويزيد في المدة».

وصدقت نبوءة رسول الله ﷺ. وحضر أبو سفيان. فلم يشأ أن يذهب توًّا إلى الرسول، بل شهد الطريق إلى لقائه بالذهاب إلى ابنته أم حبيبة زوج الرسول وهناك تلقي أول صدمة جرحت كبرياءه؛ فقد أراد أن يجلس على فراش الرسول فنحته

ابنته عنه فسألها متعجبا: أرغبت بي عن الفراش، أم رغبت على فراش عني؟ فقالت: إنه فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس» فقرأ الجواب- كما يقال في المثل الدارج – من عنوانه. ولم يملك إلا أن يقول لابنته: لقد أصابك بعدي يا بنية شر» .؟

ذهب أبو سفيان إلى الرسول فلم يرد عليه شيئا. فخرج من عنده مضعضعًا مجروح الكرامة وحاول الاستشفاع بكبار أصحاب الرسول أبي بكر وعمر وعلى فأفهموه أنه لا أحد يملك أمام رأي الرسول شيئا، وجبهه عمر بكلام عنيف. وقد بلغ به الضعف والهوان أن ذهب إلى فاطمة بنت الرسول يرجوها أن تجعل ابنها الطفل (الحسن) الصغير أن يجير[1] بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. فقالت له: والله ما بلغ بُنيِّي أن يجير بين الناس. وما يجير على رسول الله ﷺ أحد» فطلب النصيحة من علي فقال له: والله ما أعلم شيئا يغني عنك. ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس تم الحق بأرضك»، ففعل أبو سفيان ذلك ورجع إلى مكة.

هذه الحادثة تبين على أي مدى بلغت هيبة الرسول والمسلمين لدى مشركي قريش، ومدى خوفهم من مواجهة الرسول ولنقارن بين مشاعرهم وهم ذاهبون إلى بدر أو إلى الخندق وبين موقف زعيمهم الذليل المستجدي لنعلم كيف صارت مكانة الرسولﷺ بين جميع العرب.

عزم رسول اللهﷺ على التوجه إلى مكة وفتحتها. لقد دانت له ولدينه بالطاعة معظم القبائل العربية، ولكن مكة أحب بلاد الله إليه، ومقر الكعبة بيت الله الحرام، ومهوى أفئدة المسلمين بل العرب جميعا لا تزال خارج نطاق سيطرته، ومستقر الأصنام والشرك بالله. وكان يمكنه أن يأخذها عنوة لو شاء ولكنه لا يريد انتهاكها،

---

(١) يعلن حمايته لقريش من الحرب.

بل يدخلها بسلام وهي فاتحة ذراعيها له. وها قد آن الأوان. فأخذ يجهز لفتح مكة، ولكنه يريد أن يظل الأمر سرًّا عن قريش حتى لا يعدوا عدتهم للحرب، ويحدث ما يخشاه: انتهاك حرمة مكة. فأرسل إلى القبائل المسلمة التي تحيط بالمدينة أن تأتي إليه في عدتها وعتادها دون أن يخبرهم سر ذلك.

ولكن أحد الصحابة الذين شهد بدرًا وهو حاطب بن أبي بلتعة [وشهود بدر منزلة لا تدانيها منزلية] يريد أن يتخذ عند قريش يدا. فيستأجر مرأة، ويعطيها رسالة إلى قريش تخبرهم بإعداد الرسول العدة لحربهم. ويأمرها أن تتنكب الطريق المعهود إلى مكة، وتسلك طريقا خفيا. ولكن خبر السماء يأتي إلى الرسول بأمرها. فيرسل وراءها على بن أبي طالب والزبير بن العوام. فتحاول الإنكار، فيهددها على بأن يكشفها إن لم تسلمهما الرسالة، فتخرجها من بين شعرها. ويستدعي الرسول حاطبا فيسأله عن سر ذلك فيقول له: أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت. ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل. فصائقتهم[1] عليهم، فقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه؛ فإن الرجل قد نافق.» فقال رسول الله ﷺ «وما يدريك يا عمر؟ قال: لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

وأنزل الله في قصة حاطب هذه أول سورة الممتحنة ينهي فيها المسلمين أن يوالوا المشركين أعداء الله وأعداء المسلمين مظهرين لهم المودة بعد ما عرفوا من كفرهم بالرسول وما جاءهم به من الحق، وأخرجوه والمسلمين من مكة لإيمانهم بالله فلا تفعلوا ذلك أيها المسلمون إن كانت هجرتكم وجهادكم في سبيل الله من أجل طلب مرضاته ومن يفعل ذلك فقد تنكب طريق الحق. إن الإسرار إليهم بالمودة لن يغني شيئا فالله يعلم السر والعلن. وإن كنتم مشفقين على أقربائكم وأبنائكم فلن ينفعوكم شيئا يوم القيامة إذ يحاسبكم الله على ما ألحقتم

---

(١) جاملتهم لأحمي أهلي وأولادي.

بالمسلمين من أذى من أجلهم. يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾ الآيات (١-٣).

خرج الرسول بجيشه اللجب في العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وهو يدعو الله أن يعمي الأخبار عن قريش كي لا يضطر للقتال في مكة، وقد استجاب الله دعاءه فلم تعلم قريش بمسيرته إليهم حتى وصل «مر الظهران» وهو مكان لا يبعد عن مكة بأكثر من أربعة أميال. وأصبح علم قريش بذلك لا يغني عنهم شيئا. فأمر رسول الله جنوده أن يوقد كل واحد منهم نارا ليروع قريشا وكان الجيش يزيد على عشرة آلاف رجل. أي عشرة آلاف نار تتوهج في الصحراء. وقد أحدثت هذه النيران آثارها. فقد خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام ابن أخي خديجة وبديل بن ورقاء زعيم خزاعة ليلا يتحسسون الأخبار ففوجئوا بهذه النيران العظيمة. فقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة قط نيرانا ولا عسكرا». فقال له بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب»، فيقول له أبو سفيان: خزاعة والله أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها أو عسكرها.

وكان العباس بن عبد المطلب قبل ذلك قد خرج بأهله مهاجرًا بعد أن أسلم فلقي رسول الله بالجحفة فلما رأى هذا الجيش خشي على قريش أن تركب رأسها وتقاوم الرسول، فتنزل بها هزيمة منكرة، وتستحل حرمة مكة. فأراد لأن ينبهها إلى سوء العاقبة إن هي قاومت، ويدعوها على الإيمان بالله. فاستأذن الرسول في ذلك فأذن له، وأركبه بغلته. فقد كان الرسول يود ألا تنشب حرب. وبينما كان العباس

متجها نحو مكة لقي أبا سفيان وصاحبيه وسمع حوارهم فعرف العباس صوت أبي سفيان فاتجه إليه قائلا: يا أبا سفيان ويحك! ها رسول الله في الناس واصباح قريش [١] والله!. قال : فما الحيلة؟ قال العباس: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك. وأركبه خلفه وذهبا إلى الرسول، فكانا كلما مرا بنار عرف أصحابها بغلة الرسول فيتركونها يمران. وقد رآهما عمر فقال لأبي سفيان: يا عدو الله لقد أمكن الله منك بلا عقد ولا عهد»، وأسرع إلى الرسول ليطلب منه قتل أبي سفيان ولكن العباس كان أسرع منه. فلما كلمة عمر. قال العباس: يا رسول الله إنه في جواري. فطلب منه الرسول أن يأخذه إلى رحله حتى الصباح. وفي الصباح عادا إليه. فقال له رسول الله ﷺ «يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد علمت أن لو كان مع الله إلهًا غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله، فإن في النفس منها حتى الآن شيئا»، فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك». فأسلم أبو سفيان فقال العباس: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له يا رسول الله شيئا .

فقال الرسول ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن».

وكان إسلام أبي سفيان إيذانًا بانهيار مقاومة قريش، وخضوعها للإسلام ورسوله. وقد أمر الرسول العباس أن يقف بأبي سفيان في مكان عال حدده له يشرف على الجيوش في أثناء دخول مكة ليعلم مدى قوة الرسول والمسلمين. وقد تملك أبا سفيان العجب والإعجاب وهو يرى الكتيبة الخضراء كتيبة رسول الله ﷺ وهي تمر به، وقد أحاط بالرسول رجال لا ترى إلا أعينهم مما عليهم من

---

[١] أي يا مصيبتهم وذلهم.

حديد. فقال أبو سفيان للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا. فقال له العباس: ويحك أنها النبوة، فقال: فهذا إذن.

وكان رسول الله ﷺقد قسَّم جيشه إلى فرق وجعل على كل فرقه قائدا وكان في القادة خالد بن الوليد، والزبير بن العوام، وسعد بن عبادة وأمرهم ألا يقاتلوا إلا إذا قوتلوا. فلما علم أن سعد بن عبادة قال في هتافه وهو يتجه إلى مكة: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة عزله وولى بدله ابنه قيسا. ودخلت الجيوش مكة دون قتال ماعدا جيش خالد الذي يبدو أنه دخل من مكان آهل بخصوم ألداء مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية. فاضطر إلى قتالهم، وقتل منهم أكثر من عشرين. وقتل من المسلمين اثنان. ولما علم رسول الله غضب. وقال: ألم أنهِ عن القتال؟ فقالوا: يا رسول الله لقد قوتل فقاتل. فقال: «قضاء الله خير».

ولكن رسول الله ﷺ استثني من الأمر بعدم القتل عدة رجال وامرأتين. أساءوا إلى الإسلام إساءة بالغة منهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح أخو عثمان من الرضاعة. لأنه كان قد ارتد عن الإسلام، وادعي أنه كان يكتب الوحي للرسول فيغير فيه ويبدل ويوافقه الرسول، وعبد الله بن خطل الذي كانت له قينتان تغنيان بسب الرسول ودينه والمسلمين كما أنه قتل عبده لأنه لم يطعه فأمر الرسول بقتله وقتلهما.

وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في عدة رجال. بلغ المجموع سبعة عشر رجالا ولكن لم ينفذ القتل إلا في أربعة رجال وامرأة واحدة هم الذين أمكن العثور عليهم عند صدور الأمر. وأما الباقون فقد هربوا أو اختفوا. ولما لمس أقرباؤهم ما يتحلى به الرسول من عفو وسماحة أخذوا يتشفعون في أقربائهم الهاربين واستجاب الرسول لهم فأمنهم، وعادوا وأسلموا، وحسن إسلامهم وكان منهم عكرمة بن أبي جهل الذي أبلي في حروب الردة وحرب الروم بلاء عظيما. واستشهد في معركة اليرموك ومنهم عبد الله بن سعد الذي ولي لعمر بعض

الإمارات، وولي لعثمان مصر وغيرهم من لم يَشُبْ إسلامهم بعد ذلك شائبة.

ودخل رسول الله ﷺ مكة لا مزهوًا بنصره، ولا مُدِلًّا بقوته، بل دخلها دخول المتواضع لله، المقر بأن النصر من عند الله. لذا دخلها راكبا راحلته، وقد أحني رأسه حتى لتكاد ذقنه تلمس واسطة الرحل، شكرًا الله على ما أنعم به.

وكان أبو سفيان قد سبقه إلى دخول مكة ليدعوا أهلها إلى الاستجابة للرسول ويحذرهم من مغبة مقاومته. ولكن هند زوجه أخذت بشاربه وجعلت تعنفه وتدعو قومها إلى قتله. ولكنه لم يبال وقال لهم: لا تغرنكم هذه عن أنفسهم، فإن محمدًا قد جاءكم بما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمين. قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ثم طاف الرسول ﷺ على ناقته بالبيت سبعا. وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل يشير بقضيب في يده إلى الأصنام وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»، وطلب أن تفتح له الكعبة، ففتحت له. فلما وقف ببابها قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم خطب الناس المتجمعين حوله من قريش. وكان مما قاله لهم: يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوه الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم قال: يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل فيكم؟ قالوا: «خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم» قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم أمر بلالًا أن يؤذن، ثم دخل الكعبة فصلي فيها ركعتين وقد استنكر ما رآه بداخلها من صور لسيدنا إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام، و للملائكة في شكل

نساء. ثم جلس في المسجد. وقد طلب منه علي أن يعطيه مفتاح الكعبة فيجمع لبني هاشم سدانة الكعبة مع سقاية الحجيج، ولكن الرسول أبي، ودعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح وقال: «اليوم يوم بر ووفاء».

إرسال سرايا للدعوة إلى الإسلام وهدم الأصنام:

وقد بعث رسول الله ﷺ فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل. ولم يأمرهم بقتال. وكان ممن بعث خالد بن الوليد. وأمره أن يسير أسفل تهامة داعيا، ولم يبعثه مقاتلا. فلما وصل إلى بني جذيمة استقبلوه في السلاح. فأمرهم بوضعه. فحذرهم واحد منهم قائلا: إنه خالد ولكنهم لم يستجيبوا له ووضعوا السلاح. فأعمل فيهم خالد السيف فقتل بعضهم. فلما انتهى الخبر إلى الرسول ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد. ثم دعا على بن أبي طالب وأرسله إلى بني جذيمة ليحقق في الأمر، ويؤدي الدية لأهل القتلى، والتعويض لما أتلف من أموال ففعل على ذلك حتى لقد دفع تعويضًا عن الإناء الذي يشرب فيه الكلب ثم بقي معه بعض المال فدفعه إليهم احتياطا لرسول الله مما لا يعلم ولا يعلمون.

ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد لهدم «العُزَّى» وكانت بموضع يقال له «نخلة» وكانت العزى بيتا تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها. فلما سمع سادنها- وهو من بني سليم حلفاء بني هاشم – بمسير خالد إليها علق عليها سيفه، وهو يدعوها إلى قتل خالد، فإن لم تستطع ذلك فلتذهب إلى الجحيم. ثم هرب إلى الجبل. فلما انتهي إليها خالد هدمها.

وقد أقام رسول الله بمكة بعد فتحها خمسة عشر يومًا «كان الأنصار قد تخوفوا -- حينما رأوا الرسول بين أهله – أن يقيم بمكة ويتركهم، وتهامسوا فيما بينهم بذلك. وكان الرسول قائما على الصفا يدعوا الله يوم الفتح. فأحس الرسول بما

يدور في أذهانهم فقال لهم: ماذا قلتم؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله. فلم يزل بهم حتى أخبروه.

فقال لهم: معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم.

خواطر حول فتح مكة:

تتجلى في فتح مكة كثير من صفات الجلال والكمال في رسول الله ﷺ كما تتجلي العبقرية العسكرية والحنكة السياسية والتواضع، والعفو والوفاء.

١ - فأما العبقرية العسكرية والحنكة السياسية فتجليان في التدبير المحكم الذي أعده لفتح مكة والسرية التي أحاط بها خطته. ثم في الحرب النفسية التي تمثلت في عشرة آلاف نارا أوقدت مرة واحدة لتدخل الرعب في نفوس قريش، الأمر الذي دفع الزعيم المتغطرس أبا سفيان أن يذهب رديفًا للعباس ليلقي الرسول ليستأمنه. وفي الأمان الذي منحه لأهل مكة كي لا يدفعهم إلى موقف اليائس. وجعل لأبي سفيان منزلة ترضي غروره إذ جعل داره – فيما تتيحه لداخلها من الأمن – نظيرة لما يتيحه المسجد الحرام لداخله من أمن، وأخيرا في استبقائه خالد بن الوليد قائدا– على الرغم من خطئه الكبير في قتل بعض بني جذيمة، فالرسول بفراسته وحكمته أدرك ما يمتلكه خالد من مقدرة عسكرية، وعبقرية حربية سيكون لهما أثر فيما بعد في حماية الآلاف من أرواح المسلمين، بل في حماية الإسلام نفسه فإذا كان قد أخطأ في قتل بعض الناس، فهو خطأ محتمل في الحرب، وخالد ما زال حديث عهد بالإسلام، وسيعمل الإسلام عمله في نفسه بعد ذلك. وقد خفف الرسول أضرار خطأ خالد بدية القتلى، وتعويض المتلف.

٢ - وأما تواضعه فقد تجلي كما عرفنا – في دخول مكة. فهو لم يكن قائدًا ملكًا بل كان قائدا رسولا، وكم قرأنا ورأينا كيف يكون زهو المنتصرين

واحتفالاتهم حينما يحققون أقل من هذا النصر. ولكن الرسول ﷺ احتفاله بالدعاء والحمد لله والشكر له على ما أنعم به عليه وبالصلاة.

٣- وأما عفوه فقد تجلي في مواضع كثيرة أولها عفوه عن حاطب بن أبي بلتعة. إن ما فعله حاطب يدخل في باب الخيانة العظمي. ومصير من يفعل فعله في عصرنا وفي كل العصور الإعدام مهما كان مركزه في الدولة. ولكن الرسول كان يعرف أقدار الرجال. ولا يحكم على الرجل صاحب التاريخ الطيب بلحظة ضعف دفعته إلى خطأ لم يقدر مدى جسامته ثم عفوه عن المرأة التي حملت الرسالة. ثم عفوه العظيم الشامل عن أهل مكة الذين ناصبوه العداء طوال فترة رسالته حتى الفتح. آذوه في مكة أشد إيذاء ونكلوا بأصحابه. ولما خرج من بلدهم تاركًا داره وماله هو وأصحابه شنوا عليه حروبًا شعواء. ولكن الرسول الكريم العظيم نسي كل هذا وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» حتى النفر الذين أهدر دمهم لسوء ما فعله لم يقتل منهم إلا أربعة أو خمسة وعفا عن الجميع بعد ذلك. ولو لم يقع الذين قتلوا في يده ساعة إعلانه الحكم عليهم لكان شملهم العفو أيضا.

٤- وأما وفاؤه فقد ظهر في موقفه من سدانة البيت التي طلبها منه على لتكون في بني هاشم بدل بني عبد الدار – وهذا مطلب طبيعي فبنو هاشم هم عشرة البني الأقربون وهو المنتصر. وأي قائد كان يفعل هذا دون أن يطلب منه – ولكن الرسول قال قولته الكريمة: «اليوم يوم وفاء وبر» وموقف آخر هو موقفه من الأنصار الذين تخوفوا أن يظل في مكة مع أهله. وهو تخوف في محله. فهم يعرفون أن مكة أحب بلاد الله إليه كما قال ذلك مرارًا وبها أهله، وهي مسقط رأسه ورأس آبائه – ولعل الرسول كان يؤد ذلك. ولكنه الوفاء الذي جبل عليه: طمعاذ الله، المحيا محياكم

والممات مماتكم».

وبهذا النصر العظيم الذي حققه الرسول بفتح مكة دانت الجزيرة العربية للإسلام ما عدا جيوبا قليلة أخذت تشاغب، وتحاول أن تعيد كما نقول اليوم – عقارب الساعة إلى الوراء . ولكن هيهات فالرسول لهم بالمرصاد.

دخول قريش في دين الله أفواجًا:

أقام الرسول بمكة خمسة عشر يومًا بعد الفتح، أقبل عليه فيها كثير من رجال مكة ونسائها مسلمين. فقد راعهم التفاف المسلمين حول الرسول، وصلاتهم خلفه لا يتخلف عنهم. لقد كان مشهدا يأخذ بالألباب: بلال يؤذن فوق ظهر الكعبة فيجتمع آلاف المسلمين من كل حدب وصوب ليصلوا خلف الرسول في خشوع وخضوع يدفعان الناظر إليهم إلى التأمل في أمر هذا الدين الذي يسمو بالنفوس كل هذا السمو ويصلها بالله هذه الصلة الروحية العميقة. فلا يجد مناصًا من أن تهفو نفسه إلى هذا الدين فيسارع إلى إعلان إسلامه. ثم هذه السماحة التي يتحلي بها الرسول والتي دفعته إلى العفو عن ألد أعداء الأمس عفوا شاملاً بل العفو عمن استثناهم من عدم القتل ولو تعلقوا بأستار الكعبة و لكن عندما كلم في شأنهم بعد قليل من أقربائهم المسلمين عفا عن معظمهم حتى من تردد في إسلامه – وهو صنفوان بن أمية – الذي طلب مهلة ليفكر ويختار فضاعف له الرسول المدة.

وقد جلس للناس على الصفا الذين أسلموا وجاءوا ليبايعوه على السمع والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا. وقد قف عمر أمام مجلسه يأخذ البيعة من الناس. وبعد أخذ البيعة من الرجال جاء النساء ليبايعن.

وقد ذكر القرآن الكريم بيعة النساء، في سورة في سورة الممتحنة وتتضمن اجتناب الشرك بالله وعدم السرقة والزنا وقتل الأولاد، ونسبة الأولاد إلى غير آبائهن، وطاعة الرسول في كل معروف، فإن أقررن بذلك فعلي الرسول أن يقبل منهن البيعة ويستغفر لهن الله.

يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

ويقول المفسرون أن هند بنت عتبة حضرت هذه المبايعة متخفية وكانت تجادل الرسول وتعلق على بعض بنود البيعة فعرفها الرسول وقال: أنت هند. فقالت : عفا الله عما سلف. وإنما اهتم القرآن بذكر بيعه النساء دون الرجال ، لأن مبايعة النساء لم تكن مألوفة في الجاهلية. ولكن الإسلام رفع منزلة النساء، واعتبرها كائنا له حقوقه وعليه واجبات.



يوم حنين (سنة ٨هـ)

في أثناء إقامة الرسول ﷺ بمكة علم أن قبائل هوازن وثقيف تعد لحربه. فقد عز على هذه القبائل التي تقيم قريبا من مكة النصر الذي أحرزه على قريش. وخافوا أن يغريه هذا النصر على المسير إليهم وإخضاعهم لسلطانه. وكانت ثقيف تقيم بالطائف، وهوازن تجاورها في الجبال المحيطة بهم فتشاورت القبليتان في الأمر، وقرروا مبادرة الهجوم على محمد، وضموا إليهم القبائل المجاورة مثل نصر وجشم وغيرهما وأخذوا يتجهزون للهجوم. وكان القائد للجيش هو مالك بن عوف النصري، وهو شاب مملوء حماسة وشجاعة. وقد وضع خلف الجيش النساء والصبية والأموال. وكان في القوم دريد بن الصمة فارسهم المحنك وقائدهم المغوار. ولكن كان كبيرا في السن لا يقوى على القتال. فلما سمع في الجيش رغاء الإبل وثغاء النساء ، سأل عن سر ذلك فأجيب بأن مالكًا أمر بهذا. فلما سألة عن السبب قال: ليقاتل كل فرد عن أهله وماله. فكانت إجابته الحكمية: وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا جندي بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك». ولكنه أصر على رأيه. [وهكذا أراد الله لتكثر غنائم المسلمين] وعبأ مالك جيشه بطريقة تأخذ على المسلمين مضايق الوادي [فقد كانت حنين واديا من أدوية تهامة ينفرج بعد طريق جبلي كثير المضايق والشعاب] وعبأ بقية الجيش في جوانب الوادي ومكامنه. كما جعل بعض الرماة في أعالي الجبل. وكانت خطته تعتمد على مباغته المسلمين بمجرد اقترابهم بوابل من السهام ثم يخرج عليهم الجيش من كل جانب فيعملون فيهم السيوف والرماح في وقت واحد.

وأعد الرسول جيشه، وكان جيشا عرمرمًا لم ير المسلمون مثله من قبل فقد بلغت عدته اثني عشر ألف مقاتل: عشرة آلاف التي جاءت مع الرسول لفتح مكة، وألفان من أهل مكة الذين أسلموا. وقد ملأ الزهو المسلمين بهذه الكثرة حتى قال

بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة. وقد ساعد بعض أهل مكة الذين لم يسلموا الرسول بالمال والسلاح.

خرج جيش المسلمين فوصل حنينًا مساء الثلاثاء. وكانت خطة الرسول أن يباغت القوم في عبس الصبح. ولكن المسلمين فوجئوا في ظلام الفجر – وهم يستعدون- للمسير إليهم – بالنبال والسهام تنهال عليهم من كل جانب، ولم يفيقوا من هول المفاجأة حتى بوغتوا بالكمائن تخرج إليهم من كل ناحية، فتعمل فيهم السيف – فلم يجد المسلمون إلا الفرار، الفرار المضطرب المندفع حتى قال أبو سفيان – ولم يكن الإيمان تعمق قلبه بعد – إنه لن يوقف فرارهم إلا البحر – وكان الرسول في مؤخرة الجيش ورأى هذا المنظر فأخذ ينادي: أين أيها الناس؟ هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» ولكن في هذا الهول لا سميع ولا مجيب. وشمت منهم بعض مسلمي قريش الحديثي الإيمان فقال أحدهم: «اليوم بطل السحر» ولكن غضب منه أخوه قائلا: اسكت فض الله فاك. لأن يربّني[1] رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن» .

ولكن الرسول العظيم وحوله نفر من المهاجرين والأنصار وفيهم العباس بن عبد المطلب ثبتوا حول رسول الله، وقاتلوا قتالا شديدا. وأخذ العباس – وكان جهير الصوت – ينادي بأعلى صوته بأمر من رسول الله: «يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة. إن محمدا حي فهلموا» وكأنما أفاق المسلمون الفارون من كابوس مرعب، وجرى أمام أبصارهم – في ثوان – شريط من ذكريات جهادهم وتضحياتهم في سبيل هذا الدين، وانتصاراتهم. فاندفعوا عائدين: لبيك لبيك وخاضعوا المعركة مستبسلين

---

(١) يكون سيدا لي .

لا يبالون شيئا . وفؤجئت هوازن وثقيف بهذه العودة التي لم تكن في خطتهم فولـوا مدبرين تاركين أموالهم ونساءهم وذراريهم وأمامهم قائدهم مالك بـن عـوف إلى الطائف يتحصنون بها. وغنم المسلمون غنائم كثيرة لا يحصيها عد. فأمر الرسـول بترك هذه الغنائم في مكان يقال له «الجعرانه» ووضع عليها حراسـة. واتجـه بمـن معه إلى الطائف ليقضي على فلول المنهزمين. والرسول لم يكـن في طبعـه أن يقطـع ذنب الأفعى ويتركها بل لا بد من قطع رأسها ليحسم الشر تماما.

القرآن يتحدث عن يوم حنين:

في سورة التوبة يمتن الله علي المسلمين بما حققه لهـم مـن نصـر في كثيـر مـن معاركهم ويخص بالذكر يوم حنين إذ أعجبت المسلمين كثرتهم، وظنوا أنهم لـن يغلبوا عن قلة ولكن هذه الكثرة لم تفـدهم بشـيء عنـدما فاجـأهم العـود بسـهامه وسيوفه ففروا لا يلوون على شيء، ولا يجدون مكانا يحميهم من العدو، وضاقت عليهم الأرض على اتساعها فلا يجدون فيها ملجـأ يـأوون إليـه. ولكـن الله أنـزل السكينة والطمأنينة في نفوس الرسول ومن حوله من المؤمنسن، ثـم انتقلـت هـذه السكينة إلى كل المؤمنين الفارين فتابوا على رشدهم، وعـادت إلـيهم شـجاعتهم. وأنزل الله عليهم جنودا تؤيدهم وتملأ قلوبهم شجاعة وحماسـة، وتبـث الرعـب في قلوب المشركين. وعذب الله الكافرين بالذل والهزيمة وسبي النساء، وذلك جزاء كل كافر يعاند الله ورسوله – تم يترك الله البـاب مفتوحًـا أمـام الكـافرين ليؤمنـوا فيتوب الله عليهم – فالله يتوب على من يشاء من عباده لأنه هو الغفور الرحيم.

يقول الله تعالى﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الآيات (٢٥-٢٦).

حصار الطائف:

توجه الرسول الله ﷺ إلى الطائف. وكانت مدينة حصينة لها أبواب تغلق عليها. وكان أهلها ذوي دراية بحرب الحصار، وكانت لهم ثروات طائلة. اتخذ الرسول وأصحابه موقعًا قريبًا من الطائف. بينما هم يفكرون فيما ينبغي عمله انهالت عليهم سهام أهل الطائف المحاصرين. فاضطر المسلمون إلى التراجع بعيدا عن مرمي السهام حتى يجدوا وسيلة لاتقائها. وقد وجدوا هذه الوسيلة فقد كان معهم رجل من دوس هو الطفيل الدوسي. وكان قومة ذوي خبرة في صنع المنجنيق [١] والدبابات فذهب إلى قومه وأتى ببعض الرجال الذين صنعوا للمسلمين المجانيق والدبابات، وسار بعض المسلمين تحت الدبابات لاختراق الأسوار، ولكن أهل الطائف ألقوا عليهم قطعًا من الحديد المحمي بالنار، فخاف من في الدبابات أن تحترق بهم فغادروها فتلقتهم سهام أهل الطائف ففكر الرسول ﷺ في وسيلة أخرى نجحت من قبل مع بني النضير، وهي حرق النخيل والأعناب، وكان أمام الأسوار منها الشيء الكثير، وبدءوا يحرقون، وأحس أهل الطائف بجدهم في الأمر، وأخذوا يستغيثون بالرسول، ويناشدونه القرابة والرحم فأمر أصحابه بالكف عن إحراقها. وأمر مناديا ينادي في أهل الطائف: أيما عبد جاء إلى رسول الله مسلما أعتقه، فتخرج إليه نحو من عشرين عبدا فأعتقهم، وقد عرف منهم أن بالطائف مؤنا وطعامًا يكفيهم لأكثر من سنة. وقال له أحد أصحابه أن أهل الطائف كثعلب في حجر إن أقمت عليه أخذته. وإن تركته لم يضرك.

وكانت الأشهر الحرم بدأت تهل فقرر الرسول ﷺ الرحيل وترك أهل الطائف الذين لم يلبثوا إلا قليلا حتى جاءوا إليه مسلمين، ودخلوا في دين الله أفوجا وقد ترك الرسول الطائف في مستهل شهر ذي القعدة متجهًا إلى الجعرانة لتقسيم الغنائم

---

(١) آلة تقذف الحجارة.

وكان الرسول قد حاصر الطائف قرابة شهر.

تقسيم الغنائم:

كانت الغنائم التي حازها المسلمون من هوازن وثقيف شيئا كثيرا فكان منها اثنان وعشرون ألفًا من الإبل، وأربعون ألفا من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. وكان عدد الأسرى ستة آلاف.

وقد بدأ الرسول ﷺ بتقسيم الأموال. فأخذ منه لله ولرسوله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل الخمس كما أمره الله . ووزع أربعة الأخماس على المحاربين للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم.

وبينما الرسول يقسم الغنائم إذا بوفود من هوازن قد أقبلوا مسلمين وهم يرجون من الرسول أن يرد إليهم ما أخذ منهم. وقال أحدهم «يا رسول الله، إن في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك» [كانت حليمة السعدية مرضعة الرسول من هوازن] ولو أنا أرضعنا الحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر – ملكي غسان والحيرة- ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين، وقد تأثر الرسول ﷺ بهذا القول وتذكر طفولته في بني سعد وكان من بين السبايا امرأة تخطت الكهولة عاملها بعض المسلمين بعنف فقالت لهم: اعلموا إني لأخت صاحبكم من الرضاع فلم يصدقوها وجاءوا بها الرسول فعرفها فإذا هي الشيماء بنت الحارث. فأدناها الرسول منه، و بسط لها رداءه وأجلسها عليه. وخيرها إن أحبت أقامت مكرمة، وإن أحبت متعها وأرجعها إلى قومها. فاختارت الرجوع إلى قومها.

ثم خير الرسول بني هوازن بين أن يأخذوا الأموال أو النساء والأطفال فاختاروا النساء والأطفال. فأمرهم إذا صليت الظهر أن يقوموا في الناس ويقولوا: إننا نستشفع برسول الله في أبنائنا ونسائنا فلما صليت الظهر، قالوا ذلك فقال الرسول: وأما ما كان لي أو لبني عبد المطلب هو رد عليكم . فقال المهاجرون

والأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله. وامتنع بعض حديثي الإسلام من الأعراب على رد ما بيدهم فقال رسول الله: وأما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض[١] من أول سبي أصيبه. فردوا ما بأيدهم. وهكذا ردت على بني هوازن نساؤها وأبناؤها ودخل جميعهم في الإسلام.

وكان رسول الله ﷺ قد أعطي بعض زعماء العرب الحديثي العهد بالإسلام عطايا كثيرة من الغنائم، فأعطي أبا سفيان بن حرب مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، وكذلك لابنيه يزيد ومعاوية. كما أعطي صفوان بن أمية مائة من الإبل وغير هؤلاء من الأشراف والسادة. وكانت حكمة رسول الله ﷺ هي أن يتألف قلوبهم فقد عرف أن إسلامهم لم يكن إلا طمعا في الغنيمة وأنه لم يرسخ بعد في نفوسهم، وقد يرتدون عن الدين إذا لم يحصلوا المكسب الذي يأملون فيه، فيرتد بارتدادهم كثير من قومهم. فيفقد الإسلام قوة عدديه تنفع في حربة ضد أعداء الإسلام – وما أشبه ما فعله الرسول بما تفعله الآن الدول من الإنفاق السخي للدعوة إلى مبادئها، وقد أثبتت الأيام صدق حكمة الرسول فقد كان هؤلاء المؤلفة قلوبهم رصيدا طيبا للإسلام.

ولكن هذه الحكمة خفيت على كثير من الناس حتى قال بعضهم: «إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله». فلما علم الرسول بذلك غضب وقال: «ومن يعدل إذا لم أعدل؟» ولقد خشي الأعراب أن تنقص هذه العطايا الفيء فينقضي نصيبهم منه. فألحوا على الرسول أن يقسم بينهم فيئهم، وتزاحموا عليه حتى انتزع منه رداؤه. فقال ﷺ: أيها الناس، ردوا على ردائي فالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعم[٢] لقسمتها عليكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا» ثم

---

(١) نصيب من الصدقة.

(٢) إبل.

أخذ وبرة من سنام بعير فرفعها بين إصبعيه وقال: « والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم». وواضح من هذا الحديث أن الرسول احتسب ما أعطاه هؤلاء القوم من الخمس المخول إليه.

بل إن الأنصار تأثروا بهذه العطايا، وأخذوا يتهامسون : «لقي والله رسول الله قومه» فدخل سعد بن عبادة على الرسول فقال: يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا[1] عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، فقسمته في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب. ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء» فقال له : «فأين أنت من ذلك؟» فقال : «يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي» قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فلما اجتمعوا قال لهم الرسول بعد أن حمد الله وأثني عليه» يا معشر الأنصار ما مقالةٌ بلغتني عنكم، وجِدةٌ وجدتموها على في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلي، والله ورسوله أمن وأفضل» ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل» قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك . ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة[2] من الدنيا تألفت بها قلوب قوم ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» فبكي

---

(١) غضبوا.

(٢) البقية اليسيرة من كل شيء.

القوم حتى أخضلوا [١] لحاهم وقالوا «رضينا برسول الله قسما وحظا».

وهكذا رضيت قلوب الأنصار. وصفت نفوسهم، وأصبحوا أكثر حبا لرسول الله وأكثر استمساكًا بدينهم كما رضي حديثو العهد بالإسلام الذين غمرتهم عطايا الرسول وعرفوا أنها ليست عطايا ملك بل عطايا نبي لا يخشي الدوائر. ورضي الذين خشوا أن تجور هذه العطايا على أنصبتهم، وآمنوا بعدل الرسول، وسماحته. واتجه الرسول ﷺ إلى مكة معتمرًا فلما أدى عمرته ترك عتاب بن أسيد واليا على مكة- وكان شابًّا في نحو العشرين – وترك معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في الدين . تم قفل عائدًا إلى المدينة فبلغها في مستهل ذي الحجة أي أنه أقام بعيدا عنها قرابة ثلاثة أشهر أقام هو وأصحابه بالمدينة شاكرين لله أنعمه، وملتمسين بعض الراحة قبل أن يستأنفوا جهادهم لإعلاء كلمه الله.

خواطر حول حنين والطائف:

١ – لم يذكر القرآن من أسماء الغزوات إلا بدرا وحنينا. ولم يذكر غزوة الخندق بالاسم الذي اشتهرت به. وإنما تحدث عن الأحزاب الذين تجمعوا فيها.

٢ – لقد أثبتت غزوة حنين – بما لا يدع مجالا للشك – أن الكثرة العددية وحدها ليست هي طريق النصر، وكذلك كثرة العتاد فالمسلمون بلغوا من العدد ما لم يبلغوه من قبل. واستعاروا من المشركين واستأجروا أسلحة كثيرة. ولكن كل هذا لم يغن عنهم شيئا وهزموا أول الأمر. فقد أراد الله أن يلقنهم درسًا. وهو أن النصر من عند الله وحده، وأنه ما لم يثق المؤمن بنصر الله، ويعمل لاستحقاق هذا النصر بإرضاء الله، واتباع منهجه فلن يتحقق للمسلمين نصر. وليت المسلمين اليوم المحاصرين من كل قوى الاستكبار يعون هذا الدرس، ولا يبالون بكثرة عدوهم وقوة أسلحته فلن تغني عنه

---

(١) بلوها.

شيئا إذا نصروا الله ورسوله فوعد الله حق وقد قال : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، ولدينا مثل قريب إذ استطاع المصريون في العاشر من رمضان عندما جعلوا شعارهم «الله أكبر» أن يهزموا قوة ظنوا أنها لن تقهر، وأنها مانعتها حصونها. ولكن الله نصرهم.

٣- تتجلي رحمة الرسول ﷺ في مواقف كثيرة في حنين والطائف: فموقفه من أعدائه المحاصرين في الطائف عندما ناشدوه الرحم والقرابة أن يمنع حرق نخيلهم وأعنابهم فأمر أصحابه بتركها موقف يثير الأعجاب. فأي قائد في ظروفه كان يستمر في الإحراق عندما يتأكد أنه وسيلة ناجعة لتسليمهم ولكن رحمته أبت إلا أن يلبي طلبهم وإن أدى ذلك إلى تأخر النصر. واستجابته لوفد هوازن في إعتاق سباياهم، وإكرامه البالغ لمرة تخطت سن الكهولة لما عرف أنها ابنة مرضعته حليمه دليلان على أنه قائدًا رسولًا وليس قائدًا ملكًا وخطابه الرائع للأنصار عندما وجدوا في أنفسهم لعدم إيثارهم بالعطايا كغيرهم يملأ العين دموعًا تأثرا بهذه الرقة، وإعجابا بهذا الإنسان لقد كان موقفه معهم درسًا في التربية والحب، وإعلاء لقيمة الإيمان على كل قيمة أخرى.

٤- وأما حنكته السياسية فتتجلي من موقفه من زعماء قريش والعرب الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد أو لم يعتنقوا الإسلام بعد. لقد غمرهم بالعطايا حتى رسخ في يقينهم أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون ملكًا فقد عرفوا عطايا الملوك بل هو نبي رسول لا يخشي الفقر لأن الرازق هو الله، ويعرف وظيفة المال وهي الإسهام في نشر الدعوة وإعلاء كلمة الله.

٥- وهل أتكلم عن شجاعته؟ لقد تحدث عنها بأبلغ بيان موقفه، والهول قد سيطر على المسلمين، فكان ثباته الرائع في معمعان المعركة السبب في تحويل دفة المعركة من الهزيمة إلى النصر.

٦- ومن القيم التي أرساها رسول الله ﷺ في الحرب ألا يُقتل إلا المقاتل ونهي أن تقتل امرأة أو شيخ أو طفل. وقد مر يوم حنين بامرأة مقتولة والناس حولها فقال: ما هذا؟ فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد. فقال لبعض من معه أدرك خالدًا. فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا[1].



(١) خادما.

غزوة تبوك (رجب سنة ٩هـ)

أقام الرسول ﷺ بالمدينة بعد عودته إليها من غزوة حنين والطائف بضعة أشهر. ثم أمر الناس بالتجهز لغزوة تبوك، فقد وردت أخبار للرسول أن الروم تتجهز لقتاله وأنها تعد جيشًا لغزو المسلمين يقوده هرقل نفسه، ثم أحست الروم بمدى خطورة المسلمين منذ أن ورد إلى هرقل كتاب الرسول ﷺ. وضاعف من إحساسها بالخطر ما رأته من استبسال المسلمين في القتال في غزوة مؤتة. لقد عرف الروم مدى كفاءة المسلمين الحربية وقاسوا المعركة بالمعيار العسكري الصحيح، فعلموا أن المسلمين أحرزوا النصر فيها؛ فليس بقليل أن يتجرأ جيش قليل العدد والعدة على الالتحام بجيش الروم الخطير الشأن، الموفور العدد والعدة. وأن يسقط منهم القائد تلو الآخر فلا تنقص جموعهم، ولا تضطرب صفوفهم.

لقد عرف الروم العرب قبائل متفرقة لا يربطها رباط من حكم أو نظام وكثيرا ما يقاتل بعضهم بعضا والقبائل المتحضرة منهم تنضوي تحت لواء الروم مثل قبيلة غسان بالشام، أو تحت لواء الفرس مثل قبيلة لخم بالحيرة. وكانت للروم مصالح في أرض العرب فكثير من تجاراتها مع العالم يمر بها، ويحرسها لها أفراد من العرب لهم عز وسطوة نظير جعل تقدمه لهم فكانت الروم مستريحة إلى التفرق والتشرذم بين العرب. فإذا أحست بأن هناك من يحاول أن يجمع شملها ويوحد أمرها أدركت الخطر الذي يتهدد مصالحها، وواجبها تجاه إزالته.

فإذا أضفنا إلى هذا سببا آخر وهو الدين الجديد الذي أتى به محمد، والذي ينافس – في رأيهم – الدين الذي يؤمنون به – وهو المسيحية – بل يقوض دعائمه، فقد أتي بالتوحيد، ومسيحيتهم تدعو إلى التثليث وتأليه عيسى وأمه، ولا شك أن هرقل كان يعرف من بطارقته ذلك، كما لعله قد سمع قصة المباهلة التي دعا الرسول إليها وفد نجران فنكثوا عنها كما تقدم – إذا أضفنا هذا العامل الديني إلى

العوامل السياسية والاقتصادية أدركنا سر محاولة الروم غزو المسلمين.

والرسولﷺ لم ينس ما حدث في غزوة مؤتة، ومقتل قادته الثلاثة الأعزاء على نفسه، وانسحاب جيشه الذي لم يتعود الانسحاب أمام الكثرة العددية الهائلة بعد أن أبلى في قتالهم بلاءً حسنا، وأبدى من ضروب الشجاعة، ما منع جحافل الروم أن تتعقبه بعد انسحابه فوجد الرسولﷺ الفرصة سانحة للثأر من الروم، ولإحباط مؤامرتهم في غزة المسلمين.

كان الوقت الذي وجد الرسول نفسه فيه مضطرا إلى الخروج إلى الروم وقت حر شديد، وكانت الثمار والزروع توشك أن تنضج والناس يحبون أن يبقوا بجوار زروعهم، وأن يستريحوا في بلادهم من عناء الحر، ووعثاء السفر.

لذلك خالف الرسول عن عادة كان يتبعها في أثناء غزواته، وهي ألا يعلن عن مقصده في أول الأمر، بل يسلك طريقًا مخالفًا كي لا يبلغ الأعداء قصده ثم ينثني إلى الطريق الموصل إلى مراده. فأعلن عن مقصده وهو التوجه إلى تبوك بالشام، ليتبعه من يتبعه عن بينه.

وقد اختلفت مواقف المسلمين في الاستجابة لدعوة الرسول، فأما المؤمنون حقا فلم يترددوا، وأخذوا يتجهزون لهذا السفر الطويل – وما كان أكثر هؤلاء المؤمنين – وأما المنافقون والذين في قلوبهم مرض، فقد أخذوا يذهبوا إلى الرسول يبدون له أعذارًا كاذبه فيقبلها منهم، ويأذن لهم في القعود – وقد عاتبه الله على ذلك كما سنرى – وكان بعضهم يبدي أعذارًا سخيفة تثير السخرية كالحر بن قيس الذي سأله الرسول عن رأيه في غزو بني الأصفر – أي الروم- فقال له : ائذن لي في التخلف، فإني أخشي أن رأيت بنات بني الأصفر ألا أصبر فلا توقعني في الفتنه. فأعرض عنه رسول اللهﷺ : وقال: «أذنت لك»، ونشط المنافقون لإثناء الناس عن الالتحاق بالجيش، تارة يخوفونهم قوة الروم وبأسهم ويقولون لمن يطمئنون إليه من المؤمنين أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم

بعضا؟ والله لكأنَّا بِكم غدا مقرنين[١] في الحبال. وتارة يخوفونهم شدة الحر، ومشقة الطريق.

وكان المنافقون يجتمعون في بيت سويلم اليهودي – وكان الرسول قد أذن لمن يشاء من اليهود بالعودة إلى المدينة – ويثبطون المسلمين عن اتباع الرسول، ويشنون ضده حربا نفسيه خفية. فلما علم الرسول بأمرهم، وأدرك خطورة هذا على الروح المعنوية للمسلمين أرسل إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من المسلمين، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم فاقتحم من فيه النار ونجوا وإن كان أحدهم قد كسرت رجله. ولكن ذلك كان درسا للمرجفين فازدادوا استخفاء، وكفّوا مؤقتا عن إرجافهم هذا الجيش الذي أمر الرسول بتجهزه، كان يحتاج إلى نفقات كثيرة، وقد بذل أغنياء المسلمين أموالا كثيرة للرسولﷺ لمعاونة غير القادرين ماليا في إعداد وسائل النقل والزاد لهم. وقد أنفق عثمان على جيش العسرة ألف دينار – وهو مبلغ ضخم بمقاييس ذلك الزمان – كما أنفق غيره الكثير. وكان بعض الموسرين يجهز الرجل والرجلين من غير القادرين. ومع ذلك لم يستطيع الرسول إعطاء كل من يريد المشاركة في الحرب ما يسافر به فقد جاء سبعة نفر من الأنصار يطلبون دواب يركبونها. فقال لهم ليس عندي ما أعطيكم إياه، فخرجوا من عنده تفيض عيونهم من الدمع لعدم مقدرتهم على الإنفاق على خروجهم فسماهم المسلمون البكائين وأشاد بهم القرآن كما سنرى، وقد قابل أحد المسلمين اثنين من هؤلاء البكائين فقال: ما يبكيكما؟ فأخبراه بحالهما فأعطاهما جملا يركبانه، وزودهما شيئًا من التمر فخرجا مع الغزاة.

ومع كل ذلك فقد جهز الرسول جيشا من المسلمين بلغ تعداده ثلاثين ألفا وهو أكبر جيش للمسلمين. فقد عرفنا أن تعداد جيشهم يوم حنين الذي ملأ نفوسهم زهوا لم يجاوز اثني عشرا ألفا. وقد خرج عبد الله بن أبي في جيش منفصل

---

(١) مقيدين.

عن جيش المسلمين وكان جيشًا ضخمًا فلما سار الرسول تخلف عنه عبد الله بن أبي بجيشه كما فعل في أحد. وتقول بعض الروايات إن الرسول رفض أن يصحبه هذا الجيش ولعل هذا هو الأرجح فالرسول الذي قال: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين لا يمكن أن يسمح لرأس النفاق أن يخذله مرة أخرى.

وبعد خروج الجيش كان بعض الصحابة يقولون للرسول: لقد تخلف فلان أو فلان فيقول إن كان فيه خير فسيلحقنا، وإن لم يكن فيه خير فقد أراحكم الله منه، وتخلف أربعة رجال لا يشك أحد في صدق إيمانهم. هم أبو خيثمة، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أميه.

فأما أبو خيثمة فقد رجع إلى أهله في يوم حار بعد أن سار رسول الله ﷺ أياما – وكان له زوجتان – فوجد كل واحدة منهما في عريشها[١]– في بستان له – وقد رشته، وبرَّدت له فيه ماء، وهيأت له طعام فلما دخل وقف على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له. فقال: رسول الله في الضِّحّ[٢] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، مقيم في ماله. ما هذا بالعدل ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زادا. ثم قام إلى جمله فركبه واتجه إلى رسول الله فأدركه بتبوك.

وأما الثلاثة الآخرون فقد تخلفوا، ويروي أحدهم وهو كعب بن مالك سر تخلفه فيقول: كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة فما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة .. فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه. وجعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في

---

[١] شبيه بالخيمة يظلل ليكون أبرد من البيوت.

[٢] الشمس .

نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمَّر بالناس الجد. فأصبح رسول الله ﷺمسافرًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا [١] لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا. واستمر بي ذلك أياما حتى فات أوان الغزو ...».

وسار الجيش متجهًا إلى تبوك، وكانت رحلة شاقة، أجهد المسلمين فيها السفر وقلة الماء. وكان قد صحب الجيش رجال من المنافقين تغطية لنفاقهم، ولانتهاز أي فرصة لبث سمومهم بين المسلمين. فعندما طلب بعض المسلمين من الرسول أن يدعو الله ليسقيهم فقد أجهدهم العطش. دعا رسول الله ﷺفما لبثوا أن مرت سحابة فأمطرتهم حتى ارتووا. وكان في الحضور رجل معروف بنفاقه فقالوا له: ويحك ! هل بعد هذا شيء؟ قال: إنها سحابة مارة.

وبينما كان الرسول في بعض الطريق إذا ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها فقال أحد المنافقين: أليس محمد يزعم أنه نبي يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، فعرف الرسول الخبر فقال: إني والله ما أعلم علم إلا ما علمني الله. وقد دلني الله عليها. وهي في هذا الوادي، في شعب كذا، قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها. فوجدوها كما قال. وصدق الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

وصل الرسول ﷺوجيشه إلى تبوك. فلم يجدوا الروم، لقد انسحبوا بعد أن علموا أن محمد سائر إليهم في جيش عرمرم. وتذكروا ما فعله بهم جيش صغير لم يكن الرسول يقوده فكيف بهذا الجيش الضخم الذي يقوده الرسول الملهم؟

لم يشأ الرسول أن يتتبع الروم داخل حدودهم حيث الكثافة الكثيرة داخل الشام من أعداء الإسلام والمسلمين. فقد تحقق هدفه وهو تخويف الروم ومنعهم من محاولة غزو الجزيرة العربية. ولكن أراد أن يؤمن الحدود ليضمن عدم

---

(١) رحلوا.

محاولة الروم عبورها وكان على الحدود الفاصلة بين بلاد العرب بعض البلاد منها أيلة وكان صاحبها هو يوحنا بن رؤبة، فأرسل إليه رسول الله ﷺ أن يسلم أو يدفع الجزية، فأقبل يوحنا، وعلى صدره صليب من ذهب، وقدم الهدايا وصالح الرسول وأعطاه الجزية وقدرها ثلاثمائة دينار تدفع كل عام. وكتب له كتاب أمان، وأهدى إليه ردا، من نسج اليمن. كذلك صالحه أهل الجرباء وأذرح وهما قريتان من قرى البلقاء قريبتان من الحدود، وأعطوه الجزية وكتب لهما الرسول كتاب أمان.

لم يبق إلا حصن دومة الجندل، وهو بين المدينة ودمشق. وتبعد عن دمشق بسبع مراحل[١] . وهو مكان حصين صاحبه هو أكيدر بن عبد الملك، ويخشى منه على أمن المسلمين. فأرسل إليه الرسول ﷺ خالد بن الوليد في خمسمائة فارس، وقال له: ستجده يصيد البقر. ووصل خالد في ليلة مقمرة – فوجده خالد كما أخبره الرسول. ومعه أخوه حسان وأتباعهما. فقتل خالد حسانًا، وأسر أكيدر وأمر من بداخل الحصن أن يفتحوا الأبواب وإلا قتل الملك ففتحوا الأبواب، فاحتل خالد الحصن، وغنم منه ألفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق[٢] من بر، وأربعمائة درع، وذهب بها خالد إلى المدينة ومعه أكيدر أسيرا وكان النبي قد وصل قبله، وقد بهر المسلمون بثياب أكيدر المطرزة بالذهب. وقد حقن الرسول دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله فعاد إلى قريته. ثم أسلم وأصبح حليفا للرسول.

وفي طريق عودة الرسول إلى المدينة نشط المنافقون يروجون دعايتهم، فيتساءلون فيم كان كل هذا؛ معاناة الحر، وترك الديار ووقت جني الثمار والزروع ولا شيء من وراء كل هذا فقد عادوا – كما يزعمون – دون أن يحققوا شيئا.

---

(١) المرحلة: المسافة يقطعها السائر بين المنزلين.

(٢) حمل بعير.

ونسوا أو تناسوا ما حققته هذه الغزوة من قمع الروم وراء حدودهم، ومنعهم من التفكير في محاولة الاعتداء على بلاد المسلمين. ثم تأمين الحدود، وعقد مصالحة مع المقيمين عليها. كل هذا لم يأبه له المنافقون، بل أخذوا يستهزءون بالرسول فإذا ما عاتبهم على أقوالهم قالوا: كنا نخوض ونلعب.

وقد أقام الرسول قرابة عشرين يومًا، وعاد إلى المدينة في شهر رمضان فكأنه غاب عنها ما يقرب من شهرين أو يزيد عليهما – وكان قد ولى عليها في أثناء غيابه محمد بن مسلمة. وبعد عودته بقليل جاء خالد بأكيدر أسيرًا وبغنائم دومة الجندل.

ولما عاد الرسولﷺ إلى المدينة سُقِط في أيدي المتخلفين من المنافقين والمؤمنين. فأما المنافقون فقد بادروا إلى الرسول يعتذرون إليه، ويحلفون له وللمسلمين أن تخلفهم كان لأعذار قاهرة. وكان الله قد أخبر رسوله أنهم سيفعلون ذلك. وأمره ألا يقبل أعذارهم، ولا يصدقها، وأن يعرض عنهم. وأما المتخلفون من المؤمنين فقد أحسوا بندم صادق على تخلفهم، وذهب بعضهم كأبي لبابة الأنصاري وأصحابه إلى المسجد فربطوا أنفسهم في سواريه، وحلفوا ألا يحلهم أحد إلا الرسول فلما مر بهم الرسول، وعرف شأنهم تركهم، وقال: لم أُومر فيهم بشيء حتى أنزل الله فيهم قرآنا يأمره بقبول عذرهم وأن يأخذ منهم صدقات تطهرهم فحلهم الرسول.

المخلفون الثلاثة:

وبقي ثلاثة من المخلفين لم يربطوا أنفسهم بالسواري، ولم يسارعوا بالذهاب إلى الرسول معتذرين، وإن كان الندم يملأ قلوبهم، والخوف من مواجهة الرسول يحملهم على التردد في الذهاب إليه. ولعل ما يحكيه كعب بن مالك عن هذا الموقف يكشف عما كان يدور في نفوس هؤلاء الثلاثة. يقول كعب:

«فلما بلغني أن رسول الله ﷺ توجه قافلا إلى المدينة حضرني بَثّي [١]، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله غدًا، وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أشرف على الوصول ذهب عني الباطل، فأجمعت أن أصْدُقه. وصبَح رسول الله المدينة، وجاءه المخلفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فيقبل منهم علانيتهم وإيمانهم، ويستغفر لهم ويترك سرائرهم إلى الله. حتى جئت فسلمت عليه. فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك [٢]؟ قلت: إني يا رسول الله، والله لو جلست مع غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني أخرج من سخطه بعذر. ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديثًا صدقًا تغضب مني فيه. إني لأرجو عقباي من الله فيه، لا، والله ما كان لي عذر. والله ما كنت أقوى قَطُّ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدقت فيه. فقم حتى يقضي الله فيك». وبعد خروجه من عند الرسول قال له بعض أصحابه: إنك ما أذنبت قبل هذا، وكان يكفيك أن تعتذر إلى الرسول، وكان يقبل عذرك كما فعل مع غيرك. وتأثر كعب بهذا الحديث وهمَّ أن يرجع إلى الرسول فيكذب نفسه لولا أن أخبره أصحابه أن اثنين سبقاه إلى الرسول هم مُرارة بن كعب، وهلال بن أمية، وقالا له مثل ما قال كعب، فأجابهما بما أجاب به كعب فقال كعب في نفسه: هذان رجلان أعرف فيهما الصلاح والإيمان فليكن شأني كشأنهما.

وأمر الرسول المسلمين بمقاطعة هؤلاء الثلاثة. فكانوا إذ سلموا على أحد لا يردعليهم السلام، حتى ضاقت في وجوههم الدنيا على اتساعها ثم أُمِرَتْ زوجاتهم

---

(١) حزني.

(٢) ناقتك.

بعدم معاشرتهم وظلوا على هذه الحال خمسين يومًا، وهم لا يكفون عن الذهاب إلى المسجد للصلاة، والتضرع إلى الله أن يتوب عليهم حتى أنزل الله فيهم قرآنًا يعلن توبته عليهم فسعدوا بذلك أيما سعادة. وذهب كعب إلى الرسول فرحًا يعلن تصدقه بماله كله فرحا بهذه التوبة. فأمره أن يمسك بعض ماله، ويتصدق بجزء منه ففعل.

وكانت غزوة تبوك آخر الغزوات التي غزاها الرسول ﷺ ودان له بعدها كل من في الجزيرة العربية، وخشيت الروم بأسه فلم تحاول الاقتراب من أرضه.

القرآن يتحدث عن الغزوة ويفضح المنافقين:

نزلت بعد غزوة تبوك سورة التوبة. وقد تناول الله فيها موقف الرسول من المشركين واليهود والنصارى. ثم حث المسلمين على نصرة الله ورسوله، والجهاد في سبيل إعلاء الدين. ثم حمل على المنافقين حملة شديدة، وفضح نفاقهم، وأمر الرسول بالغلظة. ولذلك يسمى بعض المفسرين هذه السورة بالفاضحة.

وسأتناول من هذه السورة ما له اتصال مباشر بتبوك وبموقف المنافقين بشأنها.

تبدأ الآيات بعتاب المؤمنين على تباطؤهم في الاستجابة لأمر الرسول لهم بالاستعداد للغزوة، و توبيخهم على أن الدافع لهم إلى ذلك هو حبهم للحياة الفانية التي لا تساوي شيئًا إذا قورنت بمتاع الآخرة. ثم تهددهم بأنهم إن لم يجاهدوا في سبيل الله كلما أمرهم الرسول، فسيعذبهم الله عذابًا أليمًا، ويهلكهم ويأتي بآخرين مكانهم ليجاهدوا ويذكر الله لهم أنه لن يتخلى عن رسوله إذا تخلوا عنه بل سينصره كما نصره من قبل يوم الهجرة. ثم يأمرهم أن يهبوا إلى الجهاد مع رسول الله في حالي الرخاء والشدة، وأن يبذلوا أنفسهم في سبيل الله فذلك خير لهم لو أنهم علموا حقيقة الأمر وخافيه.

يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا
تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى
ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا
وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

ثم تتحدث الآيات عن المنافقين الذين ذهبوا إلى الرسول يعتذرون إليه عن عدم الجهاد معه بأعذار كاذبة. والسبب الحقيقي لتخلفهم هو أن الغنيمة مشكوك في الحصول عليها من هذه الغزوة، والسفر طويل شاق. ولو كانت الغنيمة مؤكدة، والسفر معتدل لكانوا ذهبوا مع الرسول. وينبئ الرسول بأنهم سيحلفون له عند عودتهم بأنهم لو استطاعوا الخروج لخرجوا معه. ويهلكون أنفسهم بهذه اليمين التي يعلم الله كذبها. ثم يعاتب رسوله عتابًا رقيقًا عن إذنه لهم بالتخلف، وكان ينبغي له ألا يأذن لهم حتى يتبين له الصادق والكاذب. ويتقدم هذا العتاب إعلان العفو عن الرسول لسماحه لهم بالتخلف ليطمئن قلبه. ثم تقرر الآيات قاعدة عامة وهي أن المؤمنين الصادقين لا يتخلفون عن الجهاد بكل ما يملكون. وإنما الذين يستأذنون هم المنافقون الذين ملأ قلوبهم الشك. ولو أنهم أرادوا الخروج للجهاد لأمكنهم ذلك، ولسارعوا بالإعداد له. ولكن الله لم يشأ لهم ذلك، لأنه كره خروجهم لما سيحدثونه في صفوف المسلمين من فتنة وبين صفوفهم من يتأثرون

---

[1] الآيات ٣٨/ ٤١.

بهم، فدفعتهم إلى القعود. ولقد حاولوا من قبل الكيد للرسول، ولكن الله أحبط كيدهم، وحقق النصر لرسوله.

يقول تعالى:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [التوبة: ٤٢ – ٤٨].

ثم تشير الآيات التالية إلى قصة الحر بن قيس وخوفه من فتنة بنات الأصفر، وتبين أن الفتنة التي زعم أنها يخشاها سقط في شر منها وهي النفاق الذي سيؤدي به إلى جهنم. ثم تحدد الآيات مشاعر المنافقين نحو الرسول فهم إذا أصابه نصر استاءوا، وإن أصابته هزيمة فرحوا بها، وقالوا لقد احتطنا للأمر فلم نشارك في القتال. ويأمر الله رسوله أن يخبر هؤلاء المنافقين أن النصر والهزيمة بإرادة الله، وإرادة الله كلها خير. وأنهم إذا ذهبوا إلى القتال لا يتوقعون إلا أحد أمرين: النصر أو الفوز بالشهادة، وكلاهما حسن. ولكننا نتوقع لكم العذاب الأليم من ربكم لكفركم أو القتل على أيدينا في الدنيا. فانتظروا ما سيحل بكم. فإنا منتظرون وعد ربنا.

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[التوبة: ٤٩ – ٥٢].

وتذكر الآيات بعد ذلك أن المنافقين – لخوفهم من افتضاح نفاقهم – كانوا دائمي الحلف للمسلمين بأنهم مؤمنون مثلهم. ولكن الحقيقة أنهم ليسوا مؤمنين بل جبناء لا يقدرون على مواجهة المسلمين بكفرهم. وأنهم يودون لو استطاعوا الهرب من تكلف السير مع المسلمين للقتال مداراة لنفاقهم وأنهم لو وجدوا سراديب في الجبال يهربون إليها، أو ملجأ يحميهم، أو أماكن يستطيعون دخولها فلا يمكن الوصول إليهم لأسرعوا إليها.

يقول تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[التوبة: ٥٦ – ٥٧].

وكان المنافقون في أثناء سيرهم مع الجيش يتحدثون في أمور خطيرة تفت في عضد المسلمين كأن يقولوا – كما ذكرت قبل –: أيظن محمد أن جِلَاد بني الأصفر كجلاد العرب. لكأنا بالمسلمين غدًا مقرنين بالحبال – أو يقولوا: «أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام؟ هيهات هيهات». وكان بعضهم يحذرهم أن ينزل الله فيهم قرآنا.

ولما أطلع الله رسوله على ما يقولون استدعاهم وسألهم عن هذه الأقوال فلم يستطيعوا الإنكار. وإنما قالوا «إننا كنا نخوض ونلعب». وكأن أمور الحرب

والسياسة العليا وبث الهزيمة في النفوس، وتثبيط الهمم أمور تسمح بالخوض واللعب فيها. فيسألهم الله مستنكرًا أتستهزئون بالله ورسوله. لا قيمة لاعتذاركم فلن يقبل فقد كفرتم بعد إيمانكم ويتسامح الله مع الذين يتوبون فيعلن العفو عنهم، وأما المصرون المجرمون فلهم عذاب أليم.

يقول تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [التوبة: ٦٤ – ٦٦].

ثم يأمر الله رسوله أن يبذل جهده في محاربة الكافرين والمنافقين ويستخدم معهم أشد أنواع الغلظة ثم مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير. ويذكر أن المنافقين الذين يسبون رسول الله في مجالسهم الخاصة إذا انكشف أمرهم هرولوا إلى الرسول يحلفون له بالله أنهم ما قالوا ما بلغه عنهم. بينما هم قد قالوا الكلام الذي يحكم بكفرهم بل فعلوا أكثر من كلام الكفر، وهو أنهم دبروا مؤامرة لاغتيال الرسول في أثناء عودته من تبوك، ومسيره في ممر ضيق أعلن قبل دخوله ألا يدخله أحد غيره وكان يسوق راحلته عمار بن ياسر فتتبعه رجال ملثمون أرادوا أن ينفروا دابته فتلقيه من فوقها في هذا المضيق. ولكن عمارا نفَّر رَواحِلَهم ففروا هاربين وأخفق كيدهم. ما سر نقمتهم على الرسول؟ إنه لم ينالوا منه إلا الخير مما يعطيهم من الغنائم الكثيرة ثم يفتح الله الباب للتوبة فيخيرهم أنهم إذا تابوا فسيكون ذلك خيرا، وإن لم يتوبوا فسيعذبهم الله في الدنيا على يد رسوله والمسلمين وبعذاب جهنم في الآخرة ولن يجدوا لهم حاميا يحميهم.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ

وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ [التوبة: ٧٣ - ٧٤].

وكان الرسول ﷺ حريصًا على الاستغفار للمنافقين عسى الله أن يتوب عليهم، ويعودوا إلى حظيرة الإيمان. ولكن الله يبين له أن استغفاره لهم لن ينفعهم شيئًا لأن الله لن يغفر لهم. فليستغفر لهم أو لا يستغفر لهم فالأمر سيان حتى لو استغفر لهم سبعين مرة – والمراد كثرة العدد. وكان الرسول يقول لمن يراجعه من المسلمين في أمر الاستغفار لهم: لقد خيرني ربي فاخترت. يقصد قوله تعالى: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم». – ولو أني أعلم أن ربي سيغفر لهم لو زدت على السبعين لفعلت. ثم يبين الله مشاعر المنافقين المتخلفين عن الغزوة؛ فقد فرحوا بتخلفهم، وكرهوا أن يبذلوا أموالهم، ويضحوا بأنفسهم في الجهاد في سبيل الله، وقالوا لأصحابهم مثبطين لهم عن الخروج مع الرسول: إن الجو شديد الحرارة فلا تخرجوا للقتال فيه. فيتوعدهم الله بأن نار جهنم التي سيصلونها أشد حرًّا من الصيف ولكنهم قوم عدموا الفهم. ويستمر في تهديدهم بأنهم إذا سروا وفرحوا بتخلفهم عن الرسول فهو فرح قليل سيعقبه حزن طويل، وحسرة دائمة عندما يلقون جزاءهم يوم القيامة. ثم يحذر الله رسوله أن يضم هؤلاء المنافقين إلى صفوفه مرة أخرى، فإن حاولوا الخروج فليمنعهم من ذلك قائلا لهم: إنكم لن تجاهدوا معي أبدا؛ لأنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاستمروا في قعودكم مع المتخلفين من أمثالكم.

يقول تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا

قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[التوبة: ٨٠ - ٨٣].

ثم يضيف الله عقابا آخر للمنافقين في الدنيا وهو نهى الرسول عن الصلاة عليهم عند موتهم، أو زيارة قبورهم، وذلك بسبب كفرهم وخروجهم عن الدين. وقد ورد هذا النهي بعدما صلى رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي الذي مات بعد شهرين من العودة من تبوك. وقد حاول عمر بن الخطاب إثناء الرسول عن الصلاة عليه، ولكن الرسول رفض مراعاة لابنه عبد الله المؤمن الصادق الإيمان، وتأليفًا لقلوب بعض المنافقين عسى أن يرجعوا عن نفاقهم. ثم يبين الله لرسوله أن ما يتمتعون به من مال وأولاد ليس إلا استدراجا من الله، وفتنة لهم. وفي نهاية الأمر سيفارقونها وليس معهم إلا كفرهم بربهم. ويقارن الله بين موقفين عندما تنزل على الرسول سورة تدعو إلى الجهاد: موقف المنافقين وموقف الرسول والمؤمنين معه. فأما المنافقون الذين يملكون وسائل الجهاد لما حباهم الله به من مال فيستأذنون في التخلف، ويرضون أن يتخلفوا مع النساء القاعدات في البيوت. وذلك لما حرمهم الله من فهم وفقه. وأما الرسول والذين آمنوا معه فقد بذلوا أموالهم، وعرضوا أنفسهم للموت في سبيل الله وهؤلاء لهم الخير والفوز عند الله. فقد أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١).

وتذكر الآيات بعد ذلك موقف أصحاب الأعذار الحقيقية، والمتخلفين عمدا فقد جاء الأولون للرسول ذاكرين أعذارهم، وقعد المنافقون الذين كذبوا الله ورسوله بإظهار الإيمان وهم غير مؤمنين، فلم يذهبوا إلى الرسول ليعتذروا ولم يخرجوا إلى الجهاد معه. وهؤلاء سيصيبهم من الله عذاب أليم. ثم يبين الله أن الذين لن يؤاخذوا على تخلفهم هم الضعفاء والمرضى والفقراء الذين لا يجدون ما يجهزون به أنفسهم للقتال. وأولئك أخلصوا قلوبهم لله ورسوله ولم يشاركوا في حرب الشائعات المثبطة للهمم. وكذلك لا حرج على هؤلاء الذين جاءوا للرسول ليعطيهم ما يركبونه للذهاب معه، فاعتذر لهم بأنه ليس عنده ما يريدون. وهم سبعة من الأنصار تحدثت عنهم آنفا. ولكن المؤاخذة والحرج لهؤلاء الأغنياء القادرين على التجهيز للجهاد، ولكنهم استأذنوا الرسول في التخلف، ورضوا بأن يقيموا مع النساء القاعدات في البيوت، وذلك بسبب ما حرمهم الله من العلم والفهم.

يقول تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (٢).

---

(١) الآيات (٨٦/ ٨٩).

(٢) الآيات (٩٠/ ٩٣).

ثم تذكر الآيات التالية موقف هؤلاء الأغنياء بعد عودة الرسول والمؤمنين من تبوك، وواجب الرسول والمؤمنين إزاءهم. فهم سيعتذرون إليهم عن تخلفهم وعلى الرسول والمؤمنين أن يرفضوا هذا الاعتذار ويقولوا للمعتذرين: كفوا عن اعتذاركم فلن نصدقكم لأن الله أخبرنا بما في قلوبهم من نفاق، وسيطلع على أعمالكم في المستقبل. وعندما تبعثون يوم القيامة للحساب سيخبركم الله بما كنتم تعملون ولكن هؤلاء المنافقين يصرون على الاعتذار فيحلفون للمؤمنين بصدقهم، ولا هدف لهم من ذلك إلا أن يتقوا غضب المؤمنين عليهم فيعرضوا عنهم. فيدعوهم الله إلى الإعراض عنهم لسبب آخر، وهو أنهم رجس ونجس، وأن مصيرهم إلى النار جزاء عملهم إنهم يحلفون لكم لينالوا رضاكم عنهم. فإذا انخدعتم بهم ورضيتم عنهم فإن الله لن يرضى عنهم لأنهم فاسقون، خرجوا عن نطاق الدين.

يقول تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾[التوبة: ٩٤ - ٩٦].

ثم تتحدث الآيات عن الذين تخلفوا من المؤمنين الصادقين عن الرسول بغير عذر ثم شعروا بندم شديد بعد ذلك فلما جاء الرسول ربطوا أنفسهم في سواري المسجد - وقد مر حديثهم - وهؤلاء خلطوا عملا صالحا وهو جهادهم السابق وندمهم بعمل سيئ وهو قعودهم عن الجهاد دون عذر. وهؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم - يقول المفسرون: إن «عسى» إذا كانت في جانب الله فهو وعد واجب التحقيق. وإذن فهي تعني أن الله قد تاب عليهم. ثم يطلب الله من رسوله أن

يأخذ من أموالهم صدقات تكون طهرة لهم. وأن يدعو لهم فإن دعاءه لهم يطمئن قلوبهم والله يسمع دعاءه لأنه سميع عليم وليعلموا أن الله هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده وهو الذي يتقبل الصدقات منهم وأنه هو التواب الرحيم. ويطلب من الرسول أن يدعوهم إلى العمل الصالح الذي يراه الله ورسوله والمؤمنون في الدنيا. ثم يجزون به في الآخرة.

يقول تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٢ - ١٠٥]

ثم تتحدث الآيات عن النفر الذين لم يربطوا أنفسهم بسواري المسجد وإنما ذهبوا إلى الرسول، وأظهروا حقيقة موقفهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن كعب فأرجأ الله أمرهم يقول تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٦].

مسجد الضرار:

وهذا الاسم مأخوذ من وصف الله له. لأن الضرار أو المضارة تعني إلحاق الضرر. وهو ما قصد إليه من بنوا هذا المسجد – كما سأبين – فقد بناه جماعة من المنافقين بالقرب من مسجد قباء، ليتخذوه مركزا لمؤامراتهم ضد الإسلام، بوحي من زعيمهم أبي عامر الراهب – أو الفاسق كما سماه الرسول – المنافق الذي لم يستطع أن يداري حقده على الرسول كما فعل نظيره عبد الله بن أبيّ فخرج من المدينة وذهب إلى مكة ليؤلب قريشا على الرسول. ثم ذهب إلى الروم ليدفعهم إلى

غزو الرسول هذا المنافق طلب من أتباعه أن يبنوا هذا المسجد ليكون مقرا له. وقد ذهب بناة هذا المسجد إلى الرسول، وهو يتجهز لغزوة تبوك، ليفتتح لهم المسجد بالصلاة لهم فيه وكانت حجتهم الظاهرة أن الهدف منه هو أن يصلى فيه المرضى وذوو العاهات ممن لا يقدرون على الذهاب إلى مسجد قباء. فصدقهم الرسول – فهو كما قال من قبل لا يعلم إلا ما يعلمه الله، والله لم يعلمه بعد – واستمهلهم إلى ما بعد عودته من تبوك فإنه الآن مشغول. ولكن الله أعلمه عن الأسباب الحقيقية لبناء المسجد وهي الإضرار بالمسلمين، والتفريق بينهم، والانتظار لحضور أبي عامر الذي حارب الله ورسوله من قبل. ويخبر الله رسوله في الآيات التي أنزلها بشأن هذا المسجد. أن أصحاب هذا المسجد سيحلفون له أنهم لا يريدون بإنشائه إلا الحسنى وهو تيسير الأمر على المصلين من ذوي الأعذار، ويشهد الله أنهم كاذبون في قولهم هذا. ثم ينهى رسوله عن الصلاة في هذا المسجد ويدعوه إلى الصلاة في مسجد قباء، فهو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، وأن من يصلون فيه رجال صادقو الإيمان، يحبون التطهر. ثم يقارن بين المسجدين. فمسجد قباء الذي أسس على تقوى من الله ورضوان منه بهذا العمل لا يمكن أن يقارن بهذا المسجد الذي أسس على النفاق. ويصور الله أسس النفاق بحافة جرف مشرف على الانهيار، فانهار به هذا الجرف ولكن أين؟ في نار جهنم التي ستكون عقابهم يوم القيامة. لقد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا والله لا يهدي القوم الظالمين. إن هذا البناء الذي بنوه دليل على ما في قلوبهم من ريب وشك. وهذا الشك لن يزول إلا بتقطيع قلوبهم أي أنه لن يزول إلا بموتهم.

يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ

بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٧ – ١١٠].

وقد أرسل رسول الله ﷺ بعد نزول هذه آيات من أحرق المسجد وهدمه. وكانت هذه أول ضربة وجهت للمنافقين بعد تبوك. فقد هدم المسجد قبل عودة الرسول إلى المدينة – وهو في طريق العودة – ثم كانت الآيات التي فضحت نفاقهم ضربة أخرى زلزلت كيانهم. وكانت الضربة القاضية وفاة زعيمهم عبد الله ابن أبي فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة.

ثم يعلن الله توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في هذه الغزوة الحافلة بالصعاب والمشاق، حتى كادت تنحرف قلوب بعض المؤمنين الصادقين بعدم اتباع الرسول فيها، ولكن الله ثبت قلوبهم، فهزموا هواهم وساروا مع الرسول. وقد تاب الله عليهم لأنه شديد الرحمة بهم. كما تاب على الثلاثة المخلفين الذين أرجأ أمر العفو عنهم في آية سابقة – وقد ذكرت قصتهم – وقد بلغ الضيق بهؤلاء الثلاثة لعدم عفو الله عنهم أنهم شعروا أن الأرض على سعتها قد ضاقت بهم كما ضاقت بهم كما ضاقت عليهم أنفسهم فصاروا لا يطيقون الحياة وعلموا أن ملجأهم من غضب الله عليهم هو اللجوء إلى عفو الله ورحمته. ثم تاب الله عليهم ليستمروا على توبتهم لأن الله وحده هو التواب الرحيم.

يقول تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧ – ١١٨].

إن توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا مفهومة. ولكن ما معنى توبته على النبي

والمهاجرين والأنصار؟ لعل توبته على الرسول تعني تأكيد عفو الله عنه لسماحه لمن استأذنه في التخلف بالتخلف وعدم رفض الإذن لهم حتى تتبين حقيقة موقفهم للناس وذلك في قوله تعالى: «عفا الله عنك لم أذنت لهم..» الآية. وأما التوبة على المهاجرين والأنصار فلتقاعس بعضهم عن النهوض إلى الجهاد في أول الأمر، أو سماعهم أراجيف المنافقين حول قوة الروم وتأثرهم بذلك.

وأخيرا تختتم الآيات المتصلة اتصالا مباشرا بغزوة تبوك بعتاب الله للمؤمنين من أهل المدينة، والمؤمنين من أهل البادية المحيطة بالمدينة.

عن الجهاد في سبيل الله، وأن إيمانهم يقتضيهم ألا يتخلفوا عن الرسول في أية غزوة يدعوهم إليها، وألا يضنوا بأنفسهم عن تعريضها للمشقة والاستشهاد بينما الرسول يعرض نفسه لذلك. وقد وعدهم الله أن أية إصابة تحدث لهم في سبيل الله أو شعور بعطش أو جوع أو تعب سيكون لها أجرها عند الله، وأن كل فعل يفعلونه يؤدي إلى إغاظة الكفار أو قتل بعضهم أو أسره سيكون في حسابهم عند الله فالله لا يضيع أجر المحسنين. وأية نفقات ينفقونها في سبيل الله، وأي سير يسيرونها من أجل الجهاد سيوضع في ميزان حسناتهم عند الله فيجزيهم الله عن كل ذلك أحسن الجزاء.

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ(١) وَلَا مَخْمَصَةٌ(٢) فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢١]

---

(١) تعب.

(٢) جوع.

وبهذه الآيات ينتهي الحديث المباشر عن غزوة تبوك في سورة التوبة أو براءة أو الفاضحة. ولنا معها عودة عند الحديث عن الحج الأكبر.



عام الوفود (٩هـ)

سُمّي العام التاسع الهجري عام الوفود، وذلك لكثرة من وفد فيه من القبائل على رسول الله ﷺ. وقد بدأت الوفود تفد بعد عودة الرسول من تبوك. لقد أحست القبائل العربية في جميع الجزيرة العربية أن هذا الرجل محمدًا قد آتاه الله من النصر والتوفيق ما لم يؤته أحدا من العرب، حتى أصبحت الروم ذات الحول والطول المنتصرة على الفرس والتي استردت الصليب المقدس منهم، وردته إلى مكانه في بيت المقدس. هذه الدولة، أصبحت نهاية، فلا تجرؤ على مواجهته، بل تسحب جيشها من أمامه عندما علمت بمقدمه إلى تبوك. فلا بد أن يكون هذا الرجل نبيًّا مؤيدًا من الله. وإذا كابر بعضهم، ولم يشاءوا أن يقروا بنبوته اعترفوا بأنه ملك عظيم. وفي كلتا الحالين لا بد من السعي إليه والانضواء تحت لوائه. ولا سيما أن قريشا – وكانت إمام العرب وهاديتهم لوجود البيت الحرام بها، ولانتسابها إلى إسماعيل بن إبراهيم – قد أسلمت، وسارت في ركابه فلم يكن أمام القبائل التي لم تحدد موقفها منه إلا أن تذهب إليه، وتعلن إسلامها وتتخذ لنفسها ما استطاعت من مزايا يسمح بها الرسول.

وفد ثقيف:

وكان أول وفد وفَد على الرسول وفد ثقيف أصحاب الطائف الذين عرفنا إصرارهم على الكفر عندما حاصرهم الرسول بعد حنين. وبعد رحيله عنهم. كان سيد ثقيف عروة بن مسعود غائبا فلما عاد وعلم بما حدث أسرع إلى الرسول وأعلن إسلامه وأخبره أنه سيعود إلى قومه ليعلمهم بإسلامه، ويدعوهم إلى الإسلام. فحذره الرسول من أن يقتلوه. ولكنه استبعد ذلك فهو عند قومه أغلى من أبصارهم. ولكن صدقت فراسة الرسول ﷺ حينما عاد إليهم وأعلن إسلامه. ثم أشرف عليهم من مكان عال ينادي إلى الصلاة فرموه بالسهام فقتلوه. وقبل أن

يسلم الروح أعلن أن استشهاده كرامة أكرمه الله بها، وطلب من أهله أن يدفنوه بجوار شهداء المسلمين الذين قتلوا في حصار الطائف.

ثم أخذت ثقيف تفكر في أمرها، وفي العزلة التي فرضت عليها، بعد إسلام من حولها من القبائل. وقدرت الخطر الذي تتعرض له مصالحها إذا استمروا على كفرهم. فطلبوا من أحد سادتهم أن يذهب إلى الرسول ليفاوضه بشأن إسلامهم واسمه عبد ياليل بن عمرو، فخشى أن يحدث له ما حدث لعروة. فطلب منهم أن يرسلوا معه آخرين. فأرسلوا معه خمسة من كبارهم. فذهبوا إلى المدينة عقب عودة الرسول من تبوك مباشرة. وكان ذلك في شهر رمضان. فدخلوا على الرسول فحيوه بتحية الجاهلية على الرغم من أن أبا بكر أرشدهم إلى التحية الإسلامية فأمر الرسول بأن تضرب لهم قبة بجوار المسجد ليقيموا فيها، ووكل خالد بن سعيد ابن العاص القيام بأمرهم. فكان يحضر لهم طعامهم من الرسول، فكانوا يطلبون منه أن يتناول منه أولًا خوفًا من أن يكون به سم. وأخذوا يفاوضون الرسول ويشترطون شروطا تهدم الإسلام من أساسه فقد طلبوا أن يترك لهم صنمهم المشهور «اللات» ثلاث سنوات يعبدونه. فأبى الرسول إباء جازمًا، فنزلوا بالمدة إلى سنتين، ثم إلى سنة، ثم إلى شهر. والرسول يأبى ذلك. وكيف يقبله الرسول وهو يدعو إلى التوحيد، وما يطلبونه هو الشرك بعينه، فكيف يكونون مسلمين – أي موحدين – ومشركين في وقت واحد. وكان حرص الوفد على ترك اللات فترة خوفهم من العامة والنساء والأطفال الذين تنزل منهم اللات منزلة عظيمة فلم ينسوا من قبول اقتراحهم طلبوا أن يكون هدمها بأيدي المسلمين فوافق الرسول.

وكان من مطالبهم أيضًا وضع الصلاة عنهم. وقد رفضها رسول الله ﷺ أيضا وقال: لا خير في دين لا صلاة معه. وأخيرا أذعنوا وأسلموا وعادوا إلى قومهم ومعهم المغيرة بن شعبة الثقفي وأبو سفيان بن حرب ليهدما اللات وقد هدماها. وأخذا ما كان بها من مال وحلي فسدا منه ديون عروة بن مسعود وأخيه الأسود بأمر

من رسول الله. ودخلت ثقيف في دين الله.

وفد بني تميم:

وهم قبيلة كبيرة من قبائل العرب وكان من أشرافهم عيينة بن حصن والأقرع ابن حابس وهما من المؤلفة قلوبهم الذين شهدوا حنينا والطائف مع الرسول رجاء الغنيمة، فأعطاهما الله عطايا كثيرة. وقد حضرا مع قومهم ليقابلوا الرسول ويسمعوا منه. فلما دخلوا المسجد لم يجدوا رسول الله ﷺ فأخذوا ينادونه من وراء حجرات زوجاته: يا محمد، اخرج إلينا. فآذى ذلك رسول الله ولكنه خرج إليهم فطلبوا أن يفاخروه [وكانت هذه عادة عربية في المحافل يقوم أحد الخطباء أو الشعراء، فيذكر ما تتميز به قبيلته من محامد] وقالوا: ائذن لخطيبنا ولشاعرنا أن يقولا فأذن لهما. ثم دعا أحد خطباء المسلمين ليرد عليه، ثم دعا حسان بن ثابت ليرد عليهم شعرا. فكانت الغلبة لخطيب المسلمين ولشاعرهم. فقال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لموفق لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعرهم أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. ثم أعلنوا إسلامهم. وأعطاهم الرسول جوائز حسنة.

وقد أنزل الله في هذا الوفد آيتين في سورة الحجرات التي سميت بهذا الاسم لنداء هؤلاء الوفد من وراء حجرات الرسول. وقد وصفهم الله بعدم العقل. وذكر أنهم لو انتظروا حتى يخرج إليهم الرسول دون إزعاجهم إياه بالنداء المنكر لكان خيرًا لهم ثم يصفح الله عنهم لأنه غفور رحيم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: ٤ – ٥]

وفود أخرى:

وقد وفدت على رسول الله ﷺ وفود أخرى كثيرة كانت تعلن إسلامها،

وتنصرف راضية. ومن هذه الوفود وفد بني عامر، ووفد سعد بن بكر، ووفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد طين، ووفد بني زبير، ووفد كندة، ووفد الأزد، ووفد همدان وغيرهم وهذه الوفود تمثل كل القبائل العربية.

وعلى الرغم من أن هذه الوفود كانت تعلن إسلامها – وهذا يعني إسلام القبيلة كلها – فقد كان يشذ أفراد، فيصرون على الكفر كما حدث من عامر بن الطفيل الذي تآمر مع أربد بن قيس على قتل الرسول وفشلت مؤامرتهما. ثم قال للرسول مهددا. والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا؟ فقال الرسول: اللهم اكفني شر عامر. فأصابه الطاعون في عنقه – وهو في طريق عودته – فلجأ إلى بيت امرأة من بني سلول فرقد عندها يحتضر ويقول: أغدة كغدة البعير – إشارة إلى الورم الذي في رقبته -- وموت في بيت سلولية. وأما المتآمر الآخر فقد أصابته صاعقة بعد وصوله بلده فأحرقته.

ومن الذين شذوا ولم يدخلوا في الإسلام مع قبيلتهم مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة المشهور بمسيلمة الكذاب. لقد ذهب مع وفد قبيلته بني حنيفة إلى الرسول، فلم يُدْخِلوه معهم إلى الرسول لضآلة شأنه، بل أبقوه يحرس رحالهم فلما دخلت القبيلة على الرسول، وأعلنوا إسلامهم. أعطاهم الرسول – كعادته – جوائز. فذكروا له مسيلمة فأرسل إليه جائزة. وقال: هو ليس بشركم مكانا. فلما عادوا إلى بلادهم ادعى النبوة استنادا إلى كلمة الرسول التي لا تعني إلا أنه مثلهم ولكنه قال إنه لم يقل ذلك إلا لعلمه بنبوتي. ثم أرسل بعد ذلك إلى الرسول كتابًا يعلنه فيه بنبوته، ويزعم أن لهم نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم ظالمون. ويجيبه الرسول بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ويستمر مسيلمة في غيه، ويهذي ببعض جمل مسجوعة يزعم أنها قرآن أوحي إليه.

❖❖❖

إعلان البراءة من المشركين

بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك، وقدوم الوفود عليه تسمع منه وتعلن إسلامها أقبل شهر ذي القعدة، وبدأ موسم الحج، وهو أول حج يأتي بعد أن استقرت الأمور للمسلمين في شبه الجزيرة العربية، وأصبحت مكة خاضعة لولاية المسلمين. ولم يشأ الرسول أن يحج بالمسلمين هذا العام لأن الله لم يأذن له بعد، فأمر أبا بكر ليحج بالناس، وخرج أبو بكر ومعه ثلاثمائة حاج من المسلمين متجهين إلى مكة، وكان الحج حتى هذا العام يشترك فيه المشركون مع المسلمين؛ فقد كان من المقرر ألا يمنع عن البيت حاج مهما يكن دينه. وكان بعض المشركين يطوفون بالبيت عرايا، ويرون في ذلك زيادة تقرب إلى آلهتهم.

وبعد سفر أبي بكر نزلت على الرسول سورة «براءة» أو «التوبة» وفي صدرها إعلان البراءة من المشركين، ومنعهم من الحج إلى البيت وبيان موقف المسلمين من المشركين ثم من أهل الكتاب كما سنرى. أمر الرسول علي بن أبي طالب أن يتوجه إلى مكة ويقرأ على الناس يوم النحر صدر هذه السورة الخاص بالمشركين. وإنما أمر عليا بذلك، ولم يأمر أبا بكر أمير الحج لأنه قال: لا يؤدي عني هذا إلا واحد من أهل بيتي، وأمر عليا أن يعلن للناس هذه الأمور الأربعة: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته.

خرج عليٌّ على ناقة رسول الله العضباء حتى أدرك أبا بكر بالطريق. فلما رآه أبو بكر قال له: أمير أم مأمور؟ [أي كلفك الرسول أن تحل محلي في إمارة الحج أم أنت مأمور بتبليغ أمر محدد] قال: بل مأمور. فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم. وشارك فيه المشركون كالمعتاد. حتى إذا كان يوم النحر قام عليٌّ فأعلن الناس بما أمره به الرسول، وتلا عليهم صدر سورة براءة. ثم عاد مع الحجيج إلى

رسول الله. وبذلك أصبح البيت الحرام خالصا للمسلمين، وأصبح الإسلام هو الدين الوحيد المعترف به رسميا وواقعيا فقد دخل الناس في دين الله أفواجا. والقلة القليلة التي لم تدخله لن تلبث حتى تدخله.

سورة براءة:

تبدأ السورة من أول كلمة بذكر البراءة أي التبرؤ يعلنه الله ورسوله من المشركين الذين كان لهم عهد غير محدد المدة بالأمان. هذا العهد قد تحددت مدته بأربعة أشهر بعدها سيطاردهم المسلمون، ويقتلونهم إلا إذا أعلنوا إسلامهم ويهددهم الله بأنه قادر عليهم وسيخزيهم لكفرهم. وهذا الإعلان يلقى على الناس يوم الحج الأكبر – أي يوم النحر – وليس أمام الكفار إلا أن يتوبوا عن شركهم، ويدخلوا الإسلام، وفي هذا خير لهم. فإن أبوا ذلك فالله قادر عليهم، وسيوقع بهم العذاب الأليم. ويستثنى الله من هذه البراءة المشركين الذين عاهدهم الرسول مدة محددة، وقد أوفوا بعهدهم، ولم ينقصوا شيئا منه، ولم يناصروا الأعداء على المسلمين فهؤلاء على الرسول أن يتم لهم عهدهم حتى نهاية مدته؛ لأن هذا من التقوى والله يحب المتقين.

يقول تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

[التوبة: ١ – ٤]

فإذا انقضت هذه الأشهر الأربعة التي حرم الله فيها قتال المشركين، والتي

تبدأ من يوم النحر – أي العاشر من ذي الحجة – وتنتهي في العاشر من ربيع الآخر [فهي إذن ليست الأشهر الحرم المعروفة] فعليكم أيها المسلمون قتال المشركين في كل مكان تجدونهم فيه، وأسرهم، وحصارهم إذا لجئوا إلى حصونهم، ومطاردتهم في كل مكان يظن تجمعهم فيه. فإن تابوا عن الكفر وأعلنوا إسلامهم، وأقاموا شعائرهم من صلاة وزكاة فاتركوهم. وسيغفر الله لهم لأنه غفور رحيم. وطلب من الرسول – إذا استجار به أحد من المشركين من القتال، وطلب الأمان أن يؤمنه، وتقرأ عليه القرآن، ثم يوصله آمنًا إلى حيث يقيم، وذلك لأن مثل هؤلاء الناس لا يعلمون ما أنزل عليك.

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[التوبة: ٥ – ٦]

ثم يستنكر الله أن يكون للمشركين عند الله ورسوله عهد وذلك لأنهم كفار لا يؤمنون بالله وبرسوله، ولا يؤمنون بدين الإسلام، فكيف يكون بينهم عهد وبين المسلمين.

وإذا كان قد وقع هذا من قبل، فلا ينبغي تكراره، ولكن هؤلاء المعاهدين لهم على المسلمين الوفاء لهم بعهودهم طالما لم ينقضوها. وهذا استثناء من الآية السابقة التي أمرت بقتال المشركين عند انتهاء الشهور الأربعة. فهؤلاء المعاهدون الذين استقاموا على عهودهم لا يقاتلون إلا بعد انتهاء مدة المعاهدة. ثم يكرر الله استنكاره لعقد أية معاهدة للمشركين، بسبب ما في قلوبهم من غل وحقد على المسلمين، فهم إذا أتيحت لهم فرصة الغَلَب على المسلمين، فلن يراعوا لهم عهدا ولا ذمة. ولكن طالما للمسلمين اليد العليا فهم يتظاهرون بالوفاء بالعهد لهم،

وضمائرهم ترفض ذلك، لأن أكثرهم لا يؤمن بقيم أو مبادئ. لقد صدوا عن سبيل الله، واستهانوا بآياته حبًّا في الدنيا، ورعاية لمصالحهم الدنيوية فبئس العمل عملهم. إنهم لا يراعون عهدا قطعوه مع مؤمن لأنهم طبعوا على العدوان.

يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا (١) وَلَا ذِمَّةً (٢) ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ٧ – ١٠].

ولكن الله يترك باب التوبة مفتوحا أمامهم. فهم إذا رجعوا عن كفرهم، وأدوا شعائر الإسلام من صلاة وزكاة فقد صاروا إخوانا للمسلمين. وهذه الآيات والأحكام لا يستفيد بها إلا الذين دخلوا الدين وتعلموا من القرآن. فإذا حدث العكس، ونقض هؤلاء القوم عهودهم، وأخذوا يطعنون في الإسلام، فواجبكم حينئذ قتالهم بكل قوة، فهم زعماء الكفر، ولا أَيمان لهم ولا عهود، رجاء أن ينتهوا عن غيهم، ويكفوا عن كفرهم. ثم يحض المسلمين على قتالهم، فيبين لهم ما فعلوه بهم من قبل، من نقض للعهود كما حدث في الحديبية، وبذلوا كل جهد لإخراج الرسول من مكة، وقد بدءوكم بالقتال أول مرة في بدر حيث لم يستمعوا لمن نصحهم من قومهم بعدم القتال ما دامت العير قد سلمت لهم. ويزيد الله في إثارتهم للقتال. فيسألهم محرضًا أتخشون قتال هؤلاء القوم؟ فالله أحق أن تخشوه فتطيعوا أمره بقتالهم إن كنتم مؤمنين حقا. ثم يأمرهم بقتالهم وسوف ينصرهم

---

(١) قرابة.

(٢) عهد.

الله، ويوقع الهزيمة بالمشركين على أيديهم، ويلحق بهم الخزي والهوان. وسوف تستريح بهذا النصر صدور المؤمنين الذين عانوا منهم قبل ذلك أشد معاناة، ويزول الغيظ من قلوبهم. وسوف يتوب الله على من تاب من منهم بمشيئته فهو عليم بكل منهم حكيم في معاملتهم. ثم يبين الله الحكمة في الأمر بقتال المشركين، وعدم نصر المسلمين عليهم دون قتال بأن الله يريد أن يظهر حقيقة المؤمنين الصادقين، وحقيقة من يتخذ من المشركين أولياء له من دون الله ورسوله. فالجهاد هو الذي سيبين ذلك. وإن الله كان خبيرا بكل ما يعمل الناس.

يقول تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ
وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى
دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا
تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ
يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

[التوبة: ١١ – ١٦].

ثم يقرر الله أن المشركين ممنوعون من دخول المسجد الحرام، والحج إليه، وتولي أي عمل يتصل به من إطعام الحجيج أو سقايتهم، فهم قد أصروا على كفرهم فكل أعمالهم التي تبدو طيبة لن يجزيهم الله عنها خيرا وسيخلدهم في النار. ولكن دخول المسجد الحرام، والحج إليه، وتولي ما يتصل به من عمل هو من حق المؤمنين بالله واليوم الآخر الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة، ولا يخافون إلا الله وحده فهؤلاء قد رجا الله لهم جزاء المهتدين. ورجاء الله لا بد أن يتحقق.

يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٧ – ١٨].

كان المشركون الذين يتولون أعمالا من أعمال الحج كسقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام بدخوله والقعود فيه يتباهون بأعمالهم هذه، ويرون أنها تقربهم إلى الله فبين الله لهم أن هذه الأعمال لا يمكن أن تقارن بأعمال المسلم من الإيمان بالله واليوم الآخر، والجهاد في سبيل الله، والهجرة إليه. إن هذه الأعمال أعظم من تلك درجة عند الله، وهم الفائزون بالثواب الجزيل. فالله يبشرهم برحمة منه ورضوان، وجنات يتمتعون بها تمتعا دائمًا، ويخلدون فيها أبدًا. والله هو الذي عنده الأجر العظيم.

يقول تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ
﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٩ – ٢٢].

ثم ينهى الله المسلمين عن موالاة آبائهم وأقربائهم الكفار طالما بقوا على كفرهم حريصين عليه. والذي يفعل ذلك فهو من الظالمين. إن المؤمن الحق ينبغي أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما عداهما أما من يؤثر الأب أو الأخ أو الزوجة أو العشيرة أو المصلحة المادية على الله ورسوله والجهاد في سبيل إعلاء الدين فعليهم أن ينتظروا قضاء الله فيهم، وعقابه إياهم. فالله لا يهدي كيد المنحرفين عن منهجه.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ

ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا (١) وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣ - ٢٤].

ثم تقرر الآيات بعد ذلك أن المشركين نجس، فلا يجوز أن يدخلوا المسجد بعد هذا العام [وهو العام التاسع الهجري] وتبين للمسلمين أنه إذا ترتب على منعهم نقص في المال، بسبب ضعف التجارة والإنفاق لقلة عدد الحجاج فإن الله سيغني المؤمنين من فضله إن شاء، فهو العليم بأحوالهم، الحكيم في تدبير أمورهم.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً (٢) فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾(٣).

وبهذه الآية ينتهي تحديد موقف المسلمين من المشركين في هذه السورة.

موقف المسلمين من أهل الكتاب:

وتنتقل السورة بعد ذلك إلى تحديد موقف المسلمين من أهل الكتاب: اليهود والنصارى الذين كانوا يقيمون في شبه الجزيرة العربية. فقد أمر الله بقتالهم وعلل ذلك بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، وتحليل ما حرم الله، وعدم اتباعهم دين الله الحق وهو الإسلام. وجعل الغاية التي يتوقف عندها قتالهم خضوعهم للمسلمين وإعلان استسلامهم لهم وذلك بدفع الجزية وهم يشعرون بذلهم يقول تعالى:

---

(١) اكتسبتموه.

(٢) فقرا.

(٣) الآية (٢٨).

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٖ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[التوبة: ٢٩].

ثم يفصل الله عدم إيمانهم بالله، وذلك بأن اليهود زعموا أن عزيرا ابن الله وأن النصارى زعموا أن المسيح ابن الله. وهذا القول منهم لا أساس له عند التدبر فلا يعدو أن يكون ألفاظا يلوكها اللسان، وأن قولهم هذا مشابه لقول من سبقهم من الكفار. فعليهم اللعنة كيف ينصرفون عن طريق الحق، كما أنهم وضعوا أحبار اليهود ورهبان النصارى موضع الإله في سماع أقوالهم في التحليل والتحريم حتى لو خالفت قول الله كما ألهو المسيح ابن مريم يأمرهم الله إلا بعبادة إله واحد وطاعة أوامره واجتنابه نواهيه هو الله سبحانه وتعالى عن إشراكهم معه غيره.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[التوبة: ٣٠ – ٣١].

لقد بذلوا كل جهد لمحاربة الإسلام، ولكنهم أخفقوا. إن محاولتهم طمس معالم الإسلام كمن يريد إطفاء نور الله الباهر المتمثل في دين الحق: الإسلام بنفخة من فمه. ولكن الله لا يمكنهم من ذلك لأنه يريد أن يتم رسالته إلى البشرية كلها لتخرجهم من الظلمات إلى النور ولو كره ذلك الكافرون. لقد أرسل الله رسوله محمدا برسالة الهداية والدين الصحيح لتكون عاقبته الظهور على الأديان كلها القائمة على الضلالة والهوى، ولو كره ذلك المشركون.

يقول تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢ – ٣٣].

ثم يبين الله للمؤمنين أن كثيرا من أحبار اليهود ورهبان النصارى منحرفون عن الجادة فهم يأكلون أموال الناس بالباطل عن طريق الربا والرشوة والحكم بين المتخاصمين بغير الحق. ويمنعون أتباعهم عن الدخول في الإسلام إذا أرادوا اعتناقه. ثم يقرر الله حكما عاما ينطبق على الأحبار والرهبان كما ينطبق على غيرهم وهو أن اكتناز الذهب والفضة دون أداء واجب الله فيه وهو الزكاة والصدقة سيؤدي إلى تعريض المكتنز إلى عذاب الله الأليم. ويكون الذهب والفضة وسيلة تعذيبهم فسيحمي عليهما في نار جهنم فتكوى بهما جباههم وجنوبهم وظهورهم ويقال لهم: هذه هي كنوزكم استحالت إلى نيران حامية تعذبون بها.

يقول تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ – ٣٥].

ولنتأمل الدقة في قوله تعالى: «إن كثيرا ..» فلم يقل: إن الأحبار. وذلك لأن منهم قلة عرفوا طريق الحق فاتبعوه كعبد الله بن سلام اليهودي الذي أسلم لما عرف أن الإسلام دين الحق وكبعض القسيسين الذين وصفهم الله بأنهم إذا سمعوا القرآن فاضت عيونهم لأنهم عرفوا أنه الحق فآمنوا به: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وهكذا أصبح الإسلام هو الدين الواحد في شبه الجزيرة العربية، وانهارت عبادة الشرك سواء أقام بها وثنيون أم أهل كتاب، وتحقق وعد الله بظهور الإسلام في بلاد العرب على الدين كله. وسوف يتحقق وعده في عقود قليلة من الزمان

ليظهر في معقل المجوسية والمسيحية عليهما. وإنا لنأمل أن يتم وعد الله فيظهر على الأديان كلها في سائر الدنيا.



الرسول الإنسان

خلق الله محمدًا ﷺ ليكون مثالا للإنسان الكامل، ونموذجًا للمثل الأعلى في البشرية. فحباه الله من كل صفات الكمال البشري أسماها وأفضلها، وسأتناول في إيجاز الحديث عن بعض صفاته الخِلْقية والخُلُقية.

صفاته الجسمية:

يروي البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كان النبي ﷺ ربعة من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير، أزهر اللون، ليس بأبيض أمهق(١) ولا آدم(٢). ليس بجعد قطط (٣) ولا سبط رجل(٤). أنزل عليه القرآن وهو ابن أربعين فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه، وبالمدينة عشر سنين وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

ويروى عن البراء بن عازب قوله: كان النبي ﷺ مربوعًا بعيد ما بين المنكبين له شعر يبلغ شحمة (٥) أذنه.

ويقول كعب بن مالك – فيما يرويه البخاري – كان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه. ويقول أبو سعيد الخدري «كان إذا كره شيئا عرف في وجهه».

ويقول ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رءوسهم. وكان أهل الكتاب يفرقون رءوسهم، وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ثم فرق رأسه.

---

(١) البياض دون أن يخالط البياض حمرة.

(٢) أسمر.

(٣) شعر قطط أو جعد شديد الخشونة.

(٤) من صفات الشعر أي شديد الملاسة.

(٥) وسط.

ويقول أنس: ما مسست حريرًا أو ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحًا قط أو عَرْفًا(١) قط أطيب من ريح أو عرق النبي ﷺ.

وتقول عائشة: إن النبي ﷺ يحدث حديثا لو عده العادُّ لأحصاه، ولم يكن يسرد الحديث كسرد أحدكم.

من مجمل هذه الأحاديث تتضح لنا صورة النبي ﷺ: فهو وسط في الطول ليس بالطويل الفارع ولا بالقصير وكان عريض المنكبين. مشرق الوجه أبيض اللون ولكن ليس البياض الناصع الذي لا حمرة فيه. وكان شعره وسطًا بين التجعد والاسترسال فهو ليس متقبضًا ملتويًا ولا مسترسلًا لينًا. وكان شعره غزيرًا يكاد يغطى أذنيه، وكان يسدله أول الأمر ثم فرقه بعد ذلك، ولم يظهر الشيب في رأسه حتى موته إلا شعرات قليلة لا تجاوز العشرين عدًّا. وكانت كفه شديدة الليونة. وكان طيب الرائحة.

وكان وجهه يكشف عمَّا بداخله، فإذا كان مسرورًا برقت أسارير وجهه واستنارت وإذا كره شيئًا ظهرت كراهته في وجهه.

وكان يتحدث بتؤدة وأناة حتى إنه لو أراد أحد أن يعد كلماته لعدها من تمهله في الكلام.

هذا ما عُرف عن صفاته الجسمية. ولم يذكر القرآن شيئا منها.

صفاته الخُلقية:

ولكن القرآن ذكر بعض ما يتميز به من أخلاق كريمة. وقد أجملها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢) فهذه الآية القصيرة جمعت له كل مكارم الأخلاق كما فصل الله بعضها في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

---

(١) طيب.

(٢) القلم الآية (٤).

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1] . فالله يصفه بحبه للمؤمنين، يشق عليه أي أمر يسبب لهم حرجًا، وهو حريص على ما فيه خير شديد الرأفة والرحمة لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2] فهو يصفه بلين الطبع، ودماثة الخلق، وينفي عنه الفظاظة والجلافة وغلظ القلب، تلك الصفات التي تنفر الناس من اتباع من يتصف بها.

وتقول عنه السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان خُلقه القرآن». ويقول ابن عباس: «كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة».

ويقول أبو سعيد الخدري: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها.. وتقول عائشة: ما خُير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا. فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه. وما أنتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها». ويقول أبو هريرة: ما عاب رسول الله طعامًا قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه». ويقول ابن عمر: ما كان النبي فاحشًا ولا متفحشًا» وبعد فهذه قطرة من بحر أخلاقه ذكرتها كمثل على كمال خلقه.

❁❁❁

---

(١) التوبة الآية (١٢٩).

(٢) آل عمران: الآية (١٥٩).

الرسول الحاكم

منذ أن دخل الرسول ﷺ المدينة، وهو الحاكم لها، يدبر شئونها طالما هو فيها، فإذا خرج منها لإحدى غزواته – حتى ولو كانت قريبة منها – أناب عنه من يدبر شئونها حتى يعود. وكان يتحرى العدل في أحكامه، وكان بعض جفاة الأعراب يجبهونه بألفاظ لا تناسب مقامه الكريم. فكان لا يعنف بهم بل يرشدهم كذلك الأعرابي الذي قال له يوما: يا محمد أعدل. فما زاد على أن قال له: ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل؟ وكيف لا؟ والله تعالى يأمر بالعدل، وأداء الأمانات إلى أهلها فيقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾[النساء: ٥٨] .

وكان الله يسدد خطاه في أحكامه. فقد سرق أحد الأنصار درعًا من بيتٍ نَقَبَهُ، وكان الدرع مخبوءا في جراب به دقيق، فلما خرج به كان الدقيق يتناثر منه حتى وصل إلى بيته فخبأها فيه. فلما اشتد البحث عن الدرع وخاف الأنصاري أن يعثروا عليها في بيته ألقاها في بيت يهودي مجاور، فوجدت في بيته، وأُخذَ اليهودي بها. ولكنما لبث السر أن انكشف حينما وُجد أن الدرع عليها أثر الدقيق، ووجد أثر الدقيق في الطريق حتى بيت السارق الحقيقي. وكان الرسول في أول الأمر قد تأثر بكلام أقارب الأنصاري حتى كاد أن يحكم على اليهودي. فأنزل الله آيات يعاتب فيها رسوله. فيذكر في أولها أنه شرف رسوله بإنزال الكتاب عليه بالحق. وحق هذا أن يحكم بين الناس بالعدل، وألا يدافع عن الخائنين. ثم يطلب منه أن يستغفر الله على ميله لتصديق الأنصاري في أول الأمر فالله غفور رحيم. ويأمره ألا يدافع عن أولئك الذين يخونون أنفسهم بارتكاب المعاصي فالله لا يحبهم.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا

تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

[النساء: ١٠٥ – ١٠٧].

ثم تصف الآيات طعمة بن أبيرق السارق وقومه بأنهم يحاولون إخفاء الأمر عن الناس حتى لا يفتضحوا بينهم، ولا يبالون علم الله بما يفعلون وهو معهم أينما كانوا وذلك عندما أخذوا يتفقون على إلصاق التهمة باليهودي البريء بالحلف الكاذب على براءة صاحبهم والله محيط بكل ما يعملون. ثم يتوجه إليهم الخطاب: إذا كنتم في الدنيا تدافعون عن صاحبكم وأمثاله تريدون تبرئتهم. فمن الذي سيتولى الدفاع عنهم أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية؟ أم من الذي سيكون وكيلا عنهم؟.

يقول تعالى: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء: ١٠٨ – ١٠٩].

ثم يفتح الله لهم بعد ذلك باب الأمل في غفران الله لهم إذا استغفروه ولكم كل من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يغفر الله له ورحمه. ثم يقرر الله أنه لا تزور وازرة وزر أخرى فمن يرتكب معصية فإثمها عليه وحده. كما يقرر أن الذي يتهم بريئا بذنب لم يرتكبه فقد ارتكب أفظع الآثام .. ثم يذكر الله لرسوله أنه كان من الممكن أن يضله هؤلاء القوم فيجعلوه يعتقد أن اليهودي هو السارق، ويقيم الحد عليه لولا فضل الله عليه ورحمته الذي يبين له الحقيقة. وإن هذه الطائفة التي حاولت إضلالك إنما يضلون أنفسهم، ويكتسبون سخط الله عليهم. ولكنهم لا يمكن أن يضروك في شيء فقد أنزل الله عليك القرآن وما فيه من أحكام، وعلمك ما لم تكن تعلم من خفايا الأمور وفضل الله عليك عظيم دائما.

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا

رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾
وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٠ - ١١٣].

صفحة ناصعة في تاريخ الحكم في أي زمان ومكان. يهودي يتهم بارتكاب جريمة لم يرتكبها واليهود ألد أعداء المسلمين. وأجمع الشهود على أن اليهودي هو السارق فلم يكن على الرسول بأس أن يحكم ولكن عندما يظهر الدليل على براءته يرد إليه اعتباره. وينزل الله في شأنه اثنتي عشرة آية تنحى باللائمة على من حاولوا تضليل الرسول ﷺ فهل هذه أحكام بشر؟

ومن أجل هذه العدالة المطلقة في الحكم كان صاحب الحق يسعى إليه ولو كان على غير دينه، وكان المسلم المتظاهر بالإسلام يخشى التحاكم إليه. إذا لم يكن صاحب حق. فقد اختصم يهودي ومنافق. فقال المنافق فلنذهب إلى كعب بن الأشرف – وهو من زعماء اليهود وقد ظن المنافق أن اليهودي لن يمانع. ولكن اليهودي – وهو يعرف عدالة محمد – أصر على أن يذهبا إلى محمد. وقد حكم محمد لليهودي على المسلم. وينزل الله قرآنًا يوبخ فيه هؤلاء المسلمين – المنافقين – فكيف يدعون أنهم آمنوا بما أنزل على الرسول وبما أنزل على من سبقه من الرسل ثم يريدون أن يحتكموا إلى رأس الكفر وهو كعب بن الأشرف الذي لا يحكم إلا بأحكام الشيطان. وقد أمروا أن يكفروا بكل ما عدا الله. لأنهم لو تحاكموا إلى الشيطان فسيضلهم ضلالًا بعيد الأثر.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].

ثم يبين موقف المنافقين من التحاكم إلى الرسول وهو أنهم يمتنعون عن الذهاب إلى الرسول إذا دعوا إلى التحاكم إليه امتناعًا رافضًا. ثم تتساءل الآية: ماذا يكون موقف هؤلاء المنافقين إذا حلت بهم مصيبة وانكشف أمرهم أمام الرسول؟ لن يجدوا إلا الكذب يرددونه وهو أنهم لم يقصدوا إلا الصلح والتوفيق بين الخصوم بالبعد عن سيف العدل وإيثار المصالحة.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾

[النساء: ٦١ – ٦٢]

وكان ﷺ أحيانا يفتي برأي، فينزل القرآن بحكم مخالف تخفيفا عن الناس كما حدث مع خولة بنت ثعلبة زوج أوس بن الصامت التي جاءت إلى الرسول تشكو من ظلم زوجها وتقول: «أكل مالي وأفني شبابي، ونثرتُ له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع الولد ظاهر مني» أي قال لي: أنت على كظهر أمي وكان هذا يعتبر طلاقا في الجاهلية – فقال لها الرسول ما أراك إلا أنك قد حرمت عليه: فأخذت تجادله وهو يكرر قوله السابق. فقالت: «اللهم أشكو إليك» وانصرفت فأنزل الله في ذلك صدر سورة «قد سمع» وسميت السورة «المجادلة» تعبيرا عن جدال هذه المرأة وقد ذكر الله في أولها أنه قد سمع قول هذه المرأة الشاكية وجدالها للرسول لأنه سميع يسمع كل ما يقال، بصير بأعمال العباد، ثم ينحى الله باللائمة على هؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم وهم يعلمون أن هؤلاء النسوة لسن أمهاتهم. وإنما أمهاتهم هن اللائي ولدنهم. وإن قولهم ليس إلا كذبا ومنكرا ولكن الله عفو غفور. يعفو عن فعل هذا من قبل ويغفر له إذا لم يكرره. ثم يذكر الحكم وهو أن الذي يظاهر من زوجته يُكفِّر عن ذلك بعتق رقبة قبل مباشرة زوجته – فإن لم يجد ذلك فصيام شهرين متتابعين قبل أن يتصل بزوجته. فمن لم يستطع فليطعم

ستين مسكينا. وذلك إذا أراد استمرار الزوجية. فإن لم يرد طلقها. وهكذا استجاب الله لشكوى هذه السائلة المجادلة. ورفع إصرا عن الرجل كان يثقل كاهله، ويفرق بينه وبين زوجه لكلمة قيلت. وربما لم تكن مقصودة بل فلتة لسان.

يقول تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾[1].

وكذلك في مسألة اللعان قبل أن تنزل الآية الموضحة له. وذلك أنه عندما نزلت آية القذف التي جعلت حد من يقذف رجلا أو امرأة بالزنى -ولم يأت بشهود أربعة على صدق ما قال- الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته، والحكم عليه بالفسق، خطب الرسول الناس مبينا هذا الحكم فجادله أحد الحاضرين في الرجل يجد على امرأته رجلا وليس معه شهود فلم يجبه الرسول وبعد قليل جاء رجل يذكر للرسول أنه وجد رجلا يزني بامرأته. فقال له الرسول: البينة أو حد في ظهرك» [أي أن تجلد حد القذف وهو ثمانون جلدة]. ولكن سرعان ما أنزل الله حكم هذه الحالة: وهي الملاعنة وهي أن يشهد الرجل على نفسه بأنه صادق أربع مرات يؤكد شهادته بالحلف في كل مرة. وفي المرة الخامسة يدعو بلعنة الله على نفسه إن كان كاذبا فإذا أرادت امرأته أن تدفع عن نفسها حد الزنى – وهو الرجم في هذه الحالة – فإنها تشهد أربع شهادات مع الحلف بالله إنه زوجها لكاذب. وفي

---

(١) الآيات (١-٤).

المرة الخامسة تستنزل غضب الله عليها إن كان زوجها صادقا. فإن فعلا ذلك فُرِّق بينهما ولا حد على أيٍّ منهما.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾[النور: ٦ – ٩].

وكان رسول الله ﷺ متواضعًا على الرغم من عظمة سلطانه على المسلمين ومهابته بينهم. دخل عليه مرة أعرابي فهابه حتى لم يستطع النطق فقال له الرسول: ما أنا إلا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد في بطحاء مكة. ويروي عدى بن حاتم عن وفادته إلى الرسول ليدخل في الإسلام فيقول: .. فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة. فدخلت عليه – وهو في مسجده – فسلمت عليه. فقال: من الرجل، فقلت: عدى بن حاتم. فقام فانطلق بي إلى بيته. فوالله إنه لعامد بي إليه إذا لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته. فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها. فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثم مضى بي حتى إذا دخل بي بيته، تناول وسادة محشوة ليفا، فقذفها إلي فقال: اجلس على هذه. قلت: بل أنت فاجلس عليها. فقال: بل أنت. فجلست عليها فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك..».

❁❁❁

أزواج النبي ﷺ

خديجة بنت خويلد:

هي أول زوج له تزوجها وهو في الخامسة والعشرين، وهي الأربعين وقد سبق لها الزواج مرتين، ولدت من الزوج الأول بنتا، ومن الثاني ابنا هو هند الذي كان ربيبًا للنبي. وعاشت معه قرابة خمسة وعشرين عامًا ولم يتزوج غيرها في حياتها. وكانت نعم الزوجة لنعم الزوج. ورزق منها بالبنين والبنات، وبعد موتها كان عظيم الوفاء لها. يصل صديقاتها ويكرمهن من أجل ذكراها. وكان كثيرا ما يلج بالثناء عليها. فكانت عائشة – وهي أحب نسائه إليه – تغار منها تقول له عندما يذكرها: «هل كانت إلا عجوزا بدَّلك الله خيرا منها؟» فيرد عليها مغضبا: «والله ما أبدلني الله خيرا منها. آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء.

وقد ماتت بعد أبي طالب بثلاثة أيام في عام سماه الرسول عام الحزن. وبعد وفاتها تزوج الرسول عشر نساء سأذكر نبذة عن كل واحدة منهن.

سودة بنت زمعة:

وقد تزوجها بعد وفاة خديجة. وكانت زوجا للسكران بن عمرو وهو من مهاجرة الحبشة وقد مات عنها. فتزوجها الرسول بعده. وكانت من السابقات إلى الإسلام، والمهاجرات بدينها إلى الحبشة.

عائشة بنت أبي بكر:

وهي البكر الوحيد التي تزوجها الرسول. وخطبها بمكة وهي بنت ست سنين، ودخل بها في المدينة وهي بنت تسع سنين. وهي ابنة أبي بكر الصديق صديق الرسول وصفيه.

حفصة بنت عمر:

وهي بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكانت زوجة لخنيس بن عبد الله السهمي فلما مات عنها أراد أبوها أن يزوجها لأحد صديقيه أبي بكر أو عثمان. ولكنهما اعتذرا عن الزواج فشكا ذلك للرسول فقال له: يتزوجها من هو خير منهما. ثم تزوجها الرسول.

زينب بنت خزيمة:

وهي من قبيلة عامر بن صعصعة. وكانت زوجا لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فلما مات تزوجها النبي ﷺ. وكان يقال لها: أم المساكين وماتت قبله.

زينب بنت جحش:

وهي ابنة عمة الرسول ﷺ. وقد زوجها الرسول زيد بن حارثة الذي كان في مقام الابن للنبي. وتزوجته وهي كارهة، وكانت تسيء عشرته، فقد كانت ترى أنها عريقة النسب، وأن زيدا كان عبدًا لمحمد ثم أعتقه، ورفعه إلى درجة الابن ولكن ذلك لم يشفع له عندها. وكان زيد يشكو إلى الرسول فكان يقول له: أمسك عليك زوجك واتق الله. ولكن الله أمره بتطليقها والزواج منها. وأنزل في ذلك آيات في سورة الأحزاب تبدأ بتقرير أنه لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيما قضى الله لهم وأمر به. ومن يخالف ذلك فقد ضل عن طريق الدين ضلالا بينا. ثم يعاتب رسوله بأنه كان يطلب من زيد أن يستمر في زواجه من زينب – وقد وصف الله زيدا بأنه قد أنعم عليه برضاه كما أنعم عليه الرسول – ويخفي في نفسه الأمر الذي أراد الله إظهاره وهو زواجه من زينب خوفا من كلام الناس؛ إذ كان زيد ابنه بالتبني الذي ألغاه الله. وكانوا ينظرون إلى المتبنَّى كالابن الحقيقي فلا يجوز أن يتزوج أبوه زوجه.

ولكن خشية الله هي الأولى، وأمره أحق أن يطاع. ثم يخبره الله بالحكمة من هذا الزواج وهو أنه لرفع الحرج عن المؤمنين في الزواج من زوجات أبنائهم

بالتبني. فالله هو الذي زوجك زينب بعد فراق زيد لها لهذه الحكمة. وأمر الله لا بد أن ينفذ.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦ – ٣٧].

ملاحظة:

لم يذكر اسم صحابي في القرآن عدا زيدا وهذا شرف له أي شرف. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الله ذكر أنه أنعم عليه بلغ زيد بذلك أعلى ذروة في التكريم.

وزينب بنت جحش هي الزوجة الوحيدة التي ذكر الله أنه هو الذي زوجها لنبيه فكان لها بذلك منزلة سامية بين زوجاته. وكانت هي تتباهى بذلك.

أم حبيبة:

وهي رملة بنت أبي سفيان سيد قريش، وقائدها في حروبها ضد الرسول. وكانت متزوجة بعبيد الله بن جحش وهاجرا معا إلى الحبشة فرارا بدينهما. ولكن زوجها تنصر ثم مات فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك أرسل إلى النجاشي يوكله في تزويجها إياه. فتزوجها وهي ما زالت بالحبشة.

أم سلمة:

بنت أبي أمية بن المغيرة. وهي بنت عم أبي جهل. وكانت متزوجة من أبي سلمة ابن عبد الأسد، وكان مجاهدا وقاد للرسول بعض سراياه. وجرح في أحد،

وما زال جرحه ينفر حتى مات منه بعد فترة. فتزوجها رسول الله ﷺ.

جويرية بنت الحارث:

وقد مر ذكر زواجها من الرسول عند الحديث عن غزوة بني المصطلق.

صفية بنت حيي بن أخطب:

مر ذكرها أيضا عند الحديث عن غزوة خيبر.

ميمونة بنت الحارث:

ذكرت ذلك عند الحديث عن عمرة القضاء.

وكانت له سُرية هي مارية القبطية، فهي ملك يمينه وليست زوجه. والإسلام يبيح الاستمتاع بملك اليمين مثل الزوجة فإذا ولدت من سيدها أطلق عليها اسم «أم ولد» فلا يجوز بيعها، وتصبح حرة بعد موت سيدها. وكانت مارية القبطية مهداة من المقوقس أمير مصر إلى الرسول ردا على رسالته إليه التي دعاه فيها إلى الإسلام، وكانت معها أختها سيرين التي أهداها الرسول إلى حسان بن ثابت. وهي أم ولده إبراهيم.

رد على شبهة:

يحلو لبعض أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم أن يتهموا الرسول ﷺ بالجري وراء المتع الحسية، ويجعلون دليلا على ذلك زواجه بهذا العدد الكثير من النساء ولكن المتتبع المنصف لتاريخ الرسول يجد فيه الكثير مما يدحض هذه التهمة. فالرسول ﷺ عاش معظم حياته الزوجية قانعا بزوجة واحدة هي السيدة خديجة التي عاشت معه ربع قرن لم يفكر في غيرها حتى ماتت. وكانت هذه الفترة من حياته هي فترة الشباب والفتوة التي قد تدفع الرجل إلى الاستكثار من النساء إذا كان في طبعه شهوة النساء. ولكن لم يعرف عن الرسول أي ميل زائد عن الفطرة السوية إلى المرأة. بل عرف عنه قبل زواجه من السيدة خديجة عزوفه عما يميل

إليه الشباب من وسائل اللهو. وقد ذكرت أنه أراد مرة أو مرتين أن يستمع إلى الغناء في عرس فكان يغلبه النعاس. أفبعد أن يتجاوز الخمسين، ويصبح المثل الأعلى للمسلمين ينصرف إلى النساء ويكون همه الاستكثار منهن، والإغراق في الاستمتاع بهن؟

وإذا تأملنا في هذه الزيجات لم نجد فيها زيجة كان الباعث عليها شهوة المرأة، والبحث عن الجمال والشباب فأزواجه كان معظمهن في منتصف العمر، ولم تكن منهن بكر إلا السيدة عائشة. وكانت – حين خطبها – في السادسة من عمرها، أي في السن التي لا تظهر جمالا يثير شهوة الرجل. فإذا عرفنا أن أباها أبو بكر صفى الرسول وخليله، وثاني اثنين إذ هما في الغار عرفنا سر اقترانه بها.

وأما بقية الزوجات فنستطيع أن نرى وراء كل زيجة منها سببا يرفع من شأن الرسول، ويبين عن هدف سامٍ. فهذه حفصة يعرضها أبوها عمر العظيم على صديقيه أبي بكر وعثمان فيعتذران. فيشكوهما إلى الرسول – وكان بقاء المرأة في هذا العصر بل حتى يومنا هذا بدون زوج همًا يثقل ضمائر أهلها – فيتزوجها الرسول إرضاء لصديقه. وأم سلمة زوج المجاهد الشهيد ذات الأولاد الذين يحتاجون إلى حسن الرعاية أفلا يجدر بالرسول أن يعوضها خيرا. وكانت تظن أنها لن تجد عوضا عن أبي سلمة. وأما زينب بنت جحش فالله هو الذي زوجها إياه ليبطل – بطريقة عملية – حكما كان يحرص عليه الجاهليون وهو عدم زواج الرجل من زوجة متبناه. وجويرية كان زواجه منها – لا بد من أن تقع سبية تجلب العار لقبيلتها – سببا في دخول القبيلة كلها الإسلام.

وهكذا لو فتشنا وراء دوافع الرسول من زواجه بهذا العدد الكبير من النساء لم نجد فيها دافعًا من حب جسدي، أو متعة جنسية. وقد يكون مما يؤكد ما أقول زهد الرسول في متع الحياة المادية الأخرى من طعام وشراب وثياب. وكان في مقدوره أن يوفر كل هذا لنفسه لو كان راغبًا في اللذائذ الحسية، وكان هذا بمقدوره

مما يفيء الله عليه من الغنائم ولكنه كان يزهد تقربا لله وليكون قدوة لمن لا يجد من المسلمين. فكانت عائشة تحدث ابن أختها أنه كان يمضي الهلال وراء الهلال ولا يوقد في بيت رسول الله نار. فيسألها ابن أختها: وماذا كان طعامكم يا خالة؟ فتقول له: الأسودان: التمر والماء. أفهذه حياة رجل نهم للنساء؟ إن المتع الحسية لا تنفصل فالحريص على متعة النساء لا بد أن يكون مدفوعا إلى حب الطعام، وحسن الثياب وغير ذلك. ولم يكن الرسول كذلك. بل لقد دفع هذا الزهد نساءه أن يجتمعن حوله يسألنه النفقة والحياة الناعمة. فقد روى أن أبا بكر استأذن على النبي ودخل بعد أن أذن له. ثم استأذن عمر ودخل بعد الإذن [وكان سبب دخول الاثنين أن الرسول تأخر عن الصلاة. وتساءل المسلمون عما أخره]. فوجد النبي جالسا – وحوله نساؤه – واجما ساكنا. فقال أبو بكر: لأقولن لرسول الله ﷺ قولا أضحكه به ثم قال: يا رسول الله لو رأيت ابنة خارجة وهي تسألني النفقة. فقمت إليها فوجأت عنقها. فضحك رسول الله، وقال: هن حولي يسألني النفقة». فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها[1]، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها. كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده: «فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئًا ليس عنده». ولنتأمل قولهن: «شيئًا ليس عنده».

وأخيرًا فلنقس الأمور بمقاييس زمانها وليس بمقاييس زماننا. فهل كان زواج أكثر من واحدة أمرًا معيبًا؟ لا، ولا مائة امرأة. وتروى كتب التاريخ أن سليمان تزوج ثلاثمائة امرأة غير السراري. ولكن الإسلام حدد العدد بأربعة، وبشرط إقامة العدل. وهنا يرد سؤال وهو: لماذا لم يسرح الرسول الزوجات الزائدات عن الأربع؟ وأرى أن في هذا ظلمًا كثيرا لهن. فقد حرم الله على المسلمين الزواج من نساء النبي فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وقد

---

(١) يضربه.

جعلهن الله في مرتبة الأمهات للمؤمنين فقال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]. ولا يجوز لرجل أن يتزوج أمه. فماذا تصنع الزوجات اللاتي يطلقهن الرسول؟ وما مصيرهن؟ من أجل هذا استثنيت زوجات الرسول من هذا الحكم.

مجتمع الزوجات:

ولكن زوجات الرسول بشر من البشر، وهن عظيمات الحب للرسول ﷺ والحب يريد الاستئثار. فلا عجب أن تثور الغيرة أحيانًا بين بعضهن، وأن يدبر بعضهن المؤامرات لبعض للاستئثار بحب هذا العظيم، أو خشية أن ينصرف حبه لغيرهن.

وكان الرسول يعدل بينهن في المبيت، فيبيت عند كل واحدة منهن ليلة. ولما أحست سودة بنت زمعة بحبه لعائشة، أرادت إرضاءه، فوهبت ليلتها لعائشة. وأما في النهار فكان الرسول يطوف عليهن جميعا، يلاطفهن ويسأل عن أحوالهن، ويقيم عند كل واحدة منهن بعض الوقت. ولكن الرسول بشر فكانت مشاعره ترتبط ببعضهن أكثر من الأخريات – وإن كان هذا لم يؤثر في معاملة كل واحدة منهن – فكان يتجه إلى الله قائلا: اللهم هذا قسمي فيما أملك فاغفر لي اللهم ما لا أملك.

فمن تآمرهن عليه ما رواه مسلم في صحيحه عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله يحب الحلواء والعسل. فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس. فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عُكَّة[1] من عسل، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة. فقلت: أما والله لنحتالن له. فذكرت ذلك لسودة، وقلت: إذا دخل عليك رسول الله فإنه سيدنو منك فقولي له: يا رسول الله: أكلتَ

---

[1] وعاء من جلد توضع فيه السوائل.

مغافير[١]؟ فإنه سيقول لك: فقولى له: ما هذه الرائحة؟

وكان رسول الله يكره أن يوجد منه ريح غير طيب. فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل فقولي له: جرس نحله العرفط[٢]. وسأقول ذلك له. وقوليه أنت يا صفية – تقول سودة لعائشة بعد ذلك: والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي، وإنه لعلى الباب خوفا منك – [أي أن سودة من شدة خوفها من عائشة أن تخالف ما أمرتها به كادت تقول للرسول ما أمرتها بقوله وهو بعيد عنها والرائحة لا تظهر إلا عن قرب] وقالت سودة للرسول هذا القول لما دنا منها، فأخبرها بمثل ما توقعت عائشة. ثم دخل على عائشة وعلى صفية من بعدها فقالتا له مثل هذا القول. فلما دخل على حفصة مرة أخرى، وأرادت أن تسقيه العسل رفض أن يشرب. وتعلق سودة على ذلك فتقول: لقد حرمناه.

وهناك رواية أخرى أنه شرب العسل عند زينب بنت جحش، وأن طرفي المؤامرة هما عائشة وحفصة. وقد حرم الرسول على نفسه شرب العسل بعد ذلك.

على أن هناك رواية ثالثة تذكر قصة أخرى. وهي أن الرسول ﷺ كان في بيت حفصة، وكانت حفصة غائبة. فزارته فيه مارية – ولم يكن الرسول خصص لها منزلا بجوار المسجد مثل زوجاته، بل أنزلها في العالية من ضواحي المدينة – فأقامت معه فترة، وعادت حفصة وهي معه بداخل بيتها. فجعلت تنتظر خروجها وهي أشد ما تكون غيرة فلما خرجت مارية، ودخلت حفصة على النبي قالت له: «لقد رأيت من كان عندك ولقد سببتني. وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك». فأراد إرضاءها بأن حرم مارية على نفسه وطلب منها ألا تذيع هذا السر. ولكن حفصة لم تستطع كتمانه فأخبرت به عائشة.

هاتان روايتان مختلفتان، وأرى أنه لا مانع أن تكون القصتان قد حدثتا. وقد

---

(١) شيء حلو له رائحة كريهة.

(٢) رعى نحله شجر العرفط الذي يثمر المغافير.

عاتب الله رسوله على تحريم شرب العسل، أو معاشرة مارية وقد أحلهما الله وأنه يفعل ذلك طلبا لمرضاة أزواجه. والله غفور رحيم وهذا تخفيف على الرسول ثم ذكر الله أنه إذا كان حلف على تحريم شيء منهما، فالله قد بين كفارة اليمين. فليكفر عن يمينه، ويستمتع بما أحل الله له. والله ناصركم وسيدكم وهو وحده الذي يحل ويحرم على حسب علمه وحكمته.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: ١ – ٢].

ثم تذكر الآيات إسرار النبي إلى زوجه «حفصة» حديثا وطلب منها كتمانه وهو عن مارية واتصاله بها في بيتها. ويضيف المفسرون أن من الحديث أيضا إخبارها.

أن أبا بكر سيتولى الحكم من بعده ثم عمر – فلما أذاعت الخبر لعائشة، وأطلع الله رسوله على ما قالته حفصة ذكر لها بعض ما أطلعه الله عليه، وأعرض عن بعض. فلما أخبرها بما قالته دهشت – لأنها كانت طلبت من عائشة ألا تطلع أحدا على هذا السر – وقالت: من أخبرك بهذا؟ قال: أخبرني الله العليم الخبير. ثم تشجع الآيات حفصة وعائشة على التوبة عن مثل هذه الأمور التي تؤذي الرسول. فهما إن تابتا فسيكون ذلك خيرا لهما لأن قلوبهما قد مالت عن الحق بفعل ما أغضب الرسول. وأما إذا استمرتا فيما هما عليه من التآمر ضد الرسول فلن يضرا إلا أنفسهما. وأما الرسول فلن يضره من ذلك شيء لأن الله هو الذي سينصره، وسيؤازر الرسول جبريل والمؤمنون الصالحون ومن ورائهم جميعا الملائكة تؤيده.

يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ

وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: ٣ - ٤].

أشك في حصة ما يرويه بعض المفسرين من إخبار الرسول حفصة بأن أبا بكر وأباها سيتوليان من بعده. فليس هناك علاقة بين ما حدث وهذا القول إلا أن يكون هذا الخبر رشوة من الرسول لحفصة ليرضيها. ومعاذ الله أن يفعل الرسول ذلك. ولو كان مخبرا أحدا بهذا الخبر لأخبر به كبار الصحابة كي لا يختلفوا بعده.

وكانت بعض نسائه تجابهه أحيانا بأنه لا يعدل بين نسائه، لأنه كان يبيت عند عائشة ليلتين، وعند كل واحدة منهن ليلة – وقد عرفنا سر ذلك وهو أن سودة تنازلت عن ليلتها لعائشة – فأوفدن إليه وهو عند عائشة زينب بنت جحش لتخبره أنه لا يعدل بين نسائه، وأنه لحبه عائشة يظلمهن. ونالت زينب من عائشة، واضطرت عائشة أن ترد بما أفحم زينب.

وبلغت منازعات نساء النبي في بعض الأحيان – بسبب ما ظنَنَّه إيثارا من النبي لبعضهن – حدًّا جعله يهم بطلاق بعضهن، لولا أنهن جعلنه في حل من أن يؤثر من يشاء منهن على من يشاء. ولعل ما دفع بعضهن إلى ذلك ما رأينه من رفق الرسول بهن، وتلطفه معهن. واحتمال ما يصدر عن بعضهن في تسامح وود.

ثم رأى الرسول ﷺ أن يلقنهن درسًا يجعلهن يتبن إلى رشدهن ولا يشغلنه بمثل هذه الصغائر. فاعتزلهن شهرا. وشاع بين المسلمين أن رسول الله طلق نساءه.

يقول عمر بن الخطاب: كان لي صاحب أتناوب معه النزول إلى المدينة – كان عمر يسكن في ضاحية فأنزل أنا يومًا، وينزل هو يومًا فنلقي الرسول ونستمع إليه ثم يخبر كل منا صاحبه بما سمع وبما حدث. ففي يوم نوبته جاء إليَّ ودق الباب دقًّا عنيفًا. فخرجت إليه مسرعًا وقلت له: أجاءت غسان؟ - وكنا نترقب غزوها لنا – قال: بل حدث ما هو أدها. طلق رسول الله نساءه. فلما دخلت المسجد – في اليوم التالي – رأيت الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله نساءه.

فقلت: لأعلمن ذلك اليوم». فدخلت على عائشة – وذلك قبل أن تؤمر نساء النبي بالحجاب – فقلت لها: يا ابنة أبي بكر، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: ما لي ولك يا ابن الخطاب؟ فدخلت على حفصة فقلت لها: يا حفصة أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلقك. فبكت أشد البكاء. فقلت لها: أين رسول الله؟ قالت: هو في خزانته في المشربة – وهي حجرة صغيرة مرتفعة عن الأرض يصعد إليها على جذع نخلة – فدخلت فاستأذنت غلامه رباحا. ولكن لم يأذن له الرسول فناديت: يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله. فإني أظن أن رسول الله ظن أني جئت من أجل حفصة. والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها». فأذن له الرسول فدخلت عليه – وهو مضطجع على حصير. وإذا الحصير قد أثر في جنبه. فنظرت في الخزانة فإذا أنا بقبضة من شعير.. فبكيت. فقالت ما يبكيك؟ قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير أثر في جنبك. وهذه خزانتك لا أرى فيها شيئا. وهذا قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته، وهذه خزانتك. فقال: يا ابن الخطاب: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى. فلما أحسست بذهاب الغضب عن الرسول قلت: يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء؟

فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكة وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. [وقد أنزل الله في سورة التحريم آية مصدقة لقول عمر وقد مر ذكرها – ثم قلت: يا رسول الله، أطلقتهن؟ قال: لا. قلت: فانزل فأخبر المسلمين. فإني تركتهم بالمسجد ينكتون بالحصى قال: نعم، إن شئت. فنزلت ونزل النبي ﷺ وكان قد مضى تسعة وعشرون يومًا فلما سألته أنه لم يمض شهر قال: إن الشهر يكون ثلاثين وتسعة وعشرين.

وانتهت هذه المحنة وهي محنة حقا للنبي ﷺ الذي عاش شهرًا حياة خشنة

خالية من الأنس، مثيرة للحزن من أجل هؤلاء النسوة اللاتي دفعتهن عواطفهن إلى أن ينسين ما ينبغي للرسول الكريم من تجلة وتوقير. ومحنة لنسائه اللائي شعرن بالندم لما سببنه للرسول الكريم من معاناة، ولكنه كان درسًا قاسيًا لهن ردهن إلى الصواب وعلمهن كيف ينبغي أن تكون للرسول الكريم.

القرآن الكريم ونساء النبي:

إلى جانب ما أورده القرآن الكريم عتابًا لرسول الله ﷺ، لأنه حرم على نفسه ما أحله الله له، ودعوة الزوجين اللتين سببتا هذه المشكلة إلى أن تتوبا إلى الله أوضح القرآن لنساء النبي جميعا أن رسول الله إن طلقهن فسيعوضه الله خيرًا منهن نساء متصفات بصفات الكمال الديني من الإسلام والإيمان، وطاعة الله، والرجوع إليه دائمًا، وعبادته، وكثرة الصيام. سواء أكن ثيبات أم أبكارا.

يقول تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ٥].

يقول المفسرون: إن عسى هنا تعني الوعد المؤكد لأنها وردت في حديث الله. ولنتأمل قوله تعالى: «ربه» بإضافة ضمير الرسول إلى الرب التي تعني التعظيم وشدة الحرص على إرضائه.

وقد أمر الله رسوله أن يخير نساءه بين أمرين: أحدهما: أن يرضين بالعيش مع الرسول الكريم على طريقته من الزهد وإيثار الآخرة على الدنيا. وفي هذه الحالة فإن الله سيجزيهن خير الجزاء في الآخرة، الآخر أن تكون رغبتهن الاستمتاع بالحياة الدنيا وما بها من زينة وأن يعشن كما تعيش نساء قيصر وكسرى كما قالت إحداهن، وفي هذه الحالة فإن الرسول يطلقهن، ويعطيهن نفقة المتعة، ويكون طلاقا بالمعروف يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾[الأحزاب: ٢٨ – ٢٩].

يقول المفسرون إن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه آية التخيير بدأ بعائشة فقال: يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك. قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها آية التخيير. فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أَبَوَيَّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. ثم ذكر ذلك لنسائه الأخريات فقلن مثل عائشة.

ثم بين الله لهن خطورة المكانة التي حباهن الله بها بزواجهن من الرسول. وهذا يلقى على عاتقهن مسئولية كبرى لأنهن صرن القدوة والمثل الأعلى لنساء المسلمين. فإن ارتكبت إحداهن خطيئة كان عقابها ضعف عقاب المرأة العادية. وإن أطعن الله ورسوله كان أجرهن مضاعفًا. وهيأ الله لهن في الآخرة رزقًا كريمًا.

يقول تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾[الأحزاب: ٣٠ – ٣١].

ثم يعظهن الله بالوقار والحشمة فيمهد لذلك بذكر فضلهن على سائر النساء، فلسن مثل أية واحدة من النساء مهما علا قدرها. وهذا يستلزم منهن تقوى الله دائما. وإذا تحدثن مع أحد الرجال، أو على مسمع منه فليكن حديثهن رزينًا بعيدًا عن الميوعة والليونة كي لا يظن المسلم الضعيف الإيمان والمنافق بهن ظن السوء، فيطمع في النيل منهن. كذلك يأمرهن الله أن يمكثن في بيوتهن فلا يخرجن لغير ضرورة. وإذا خرجن لضرورة فلا يظهرن زينتهن رغبة في لفت نظر الرجال كما كانت تفعل النساء في الجاهلية. ويأمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله. ويبين لهن الهدف من وراء ذلك، وهو تطهيرهن من كل دنس؛ فهن أهل بيت رسوله. ويطلب منهن أن يذكرن دائمًا – ولا ينسين – أن القرآن نزل في

بيوتهن. وهو يتلى فيها. و كذلك أحاديث الرسول وسنته.

يقول تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٤].

ثم أمر الله المسلمين إذا أرادوا شيئا من نساء النبي أن يكون ذلك من وراء ساتر يسترهن عنه، وعلل الله الحكمة في ذلك، وهو أنه أطهر لقلوب الجميع فلا يخطر بقلب أي واحد منهم أو واحدة منهن أية خواطر آثمة - لأن الإنسان بشر وليس معصومًا من الخطأ والخطيئة -.

وقد تكلم بعض المنافقين والجهال بأنه إذا مات محمد فسيتزوجون نساءه. فبين الله أن ذلك لا يمكن أن يكون، لأن فيه إيذاء له لا يرضاه الله أبدا. فإن ذلك أمر بالغ الشناعة عند الله. ويحذر من يجول في نفسه مثل هذه الخواطر، حتى ولو لم يخبر أحدا بها - أن الله يعلم كل ما يبديه الإنسان أو ما يخفيه. ثم يستثنى الله أقرباء الزوجات من الحديث من وراء حجاب وهم الآباء والأبناء، والإخوة وأبناء الإخوة والأخوات [ويدخل في هذا الحكم الأعمام والأخوال] كما استثنى النساء وما ملكت أيمانهن. ثم طلب من زوجات الرسول أن يتقين الله. فلا يخالفن هذا الأمر المنزل بشأنهم.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ

وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٣ – ٥٥].

وقد ورد بعد آيات قليلة في هذه السورة أمر للنبي أن يطلب من نسائه وبناته ونساء المؤمنين أن يسدلن الخمار أو فضل جلابيبهن على ما ظهر من أعناقهن فلا يبين منهن إلا وجوههن. وعلل الله ذلك بأن هذا أدعى أن تعرف النساء الحراء، ويميزن من الجواري اللائي كن يقمن بالخدمة، ولا يبالين أن يظهر شيء من أعناقهن أو أذرعهن. وبذلك لا يحاول أحد ضعاف الإيمان أن يتعرض لهن بأذى. ويعلن الله مغفرته ولما كان يحدث قبل ذلك.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وبعد كل هذا يعفي الله رسوله من تحري المساواة بين نسائه في المبيت عند كل واحدة ليلة. ذلك الذي كان يثير غيرتهن أحيانا من مبيته عند عائشة ليلتين – بسبب تنازل سودة عن ليلتها لها – أو مكثه مدة أطول عند إحداهن كما حدث في مسألة العسل، فجعل الله الخيار له في أن يؤخر من يشاء منهن فلا يبيت عندها، ويقرب من يشاء منهن. وهذا الإرجاء يمكن أن يلغيه الرسول فيقرب مَن أخرها. ويعلل الله ذلك بأنه أقرب إلى إرضاء نسائه جميعا فلا يحزنَّ لإبعادهن، ويرضين بكل ما يفعله. لأنهن قد علمن أن هذا أمر الله، والتفويض إليه في ذلك من الله. ويذكرني هذا بقول الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ولكن لم يثبت بدليل قطعي أن الرسول استغل هذه الرخصة. بل استمر يعدل بين نسائه إلى أن مات. بدليل أنه وهو في مرض موته كان يطاف به محمولا على بيوت أزواجه، وكان يسأل كل يوم أين أنا غدا؟ استبطاء ليوم عائشة، حتى أشفقت عليه زوجاته، وتنازلن عن لياليهن لعائشة. أو هو طلب منهن ذلك فوافقن عليه.

على حسب اختلاف الروايات؛ يقول تعالى:

﴿ ۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥١].

وأخيرًا يحرم الله على رسوله الزواج من آية امرأة أخرى مهما أعجبه حسنها، أو كانت بدلًا عن زوجة لديه ولا يحل له إلا ما وقع في ملكه من سبايا الغزوات. ويحذر الله رسوله المخالفة لأمره، - وحاشا لرسول الله أن يخالف أمر ربه – لأن الله رقيب على أفعال عباده.

يقول تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٥٢}



أبناؤه وبناته

لم يذكر القرآن أي شيء عن أبناء الرسول وبناته. وذلك لأن القرآن ليس تاريخا لحياة الرسول – كما ذكرت قبل – وإذا كان تحدث عن زوجاته، فلم يتحدث عن أشخاصهن، ولم يذكر اسم أية واحدة. وإنما ذكر عنهن ما له صلة قوية بالرسول، أو بالتشريع الذي يريد أن يسنه لزوجات الرسول خاصة، أو لهن وللنساء عموما.

وقد ولد للرسول ﷺ ثلاثة ذكور هم القاسم وعبد الله وإبراهيم. والأولان من السيدة خديجة، وأما إبراهيم فهو من ملك يمينه مارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس وهي مصرية من كورة أنصنا من بلد يقال له: «حفن» في الصعيد، وولد له أربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وكلهن من السيدة خديجة. وسأذكر كلمة موجزة عن كل:

الذكور:

١ – القاسم: وهو أول أولاد الرسول، وكان يكنى به فيقال: «أبو القاسم» وقد مات وهو صغير. يقال: عمره سنتان.

٢ – عبد الله: وقد ولد بعد زينب ومات أيضًا وهو صغير.

٣ – إبراهيم: وأمه مارية القبطية. وقد رزق به الرسول ﷺ وهو في الستين من عمره. وصغرى أولاده فاطمة تدنو من الخامسة والعشرين. لا جرم أن يفرح الرسول بمقدمه فرحًا عظيمًا، فرح البشر الأسوياء في مثل هذه المناسبة، وما كان الرسول إلا بشرًا، وإن كان بشرا رسولا. وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينه إلى مكانة عالية. وإن كان ذلك لم يقرب من مكان إقامتها، أو يجعل لها ليلة كسائر أزواجه. وقد أكرم القابلة التي ولَّدت مارية أيما إكرام، وتصدق يوم مولده بوزن شعره فضة. ودفعه لترضعه أم

سيف. وكان يذهب إليه كل يوم ليراه، ويأنس بقربه. وقد زاد هذا من غيرة نساء النبي من مارية. فهي الوحيدة من بينهن التي ولدت له. وقد انعكست هذه المشاعر على نظرتهن إلى إبراهيم. فعندما حمله رسول الله ﷺ بين ذراعيه إلى عائشة. وطلب منها أن تنظر إلى الشبه الكبير بين إبراهيم وبينه أنكرت ذلك وقالت: لا أرى بينكما شبها. ولما أبدى إعجابه بنمو الطفل أجابته بأن كل طفل ينال من اللبن ما ينال إبراهيم يكون مثله. ولكن لم تطل فرحة الرسول ﷺ بإبراهيم. فقد مرض مرضا شديدا وهو في حوالي العشرين شهرا من عمره أو أقل من ذلك، ونقلته مرضعته إلى بيت أمه التي أخذت تمرضه هي وأختها سيرين. ولما احتضر أرسلت إلى الرسول أن يحضر فحضر متكئًا على عبد الرحمن بن عوف. فوجد إبراهيم في حجر أمه يجود بنفسه. فأخذه ووضعه في حجره وقال: إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئا. «وأخذت الدموع تتراءى في عينيه» فلما مات سالت دموعه وهو يقول: يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك بأشد من هذا». ثم قال: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا تقول إلا ما يرضى الرب. وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون». ولما رأى المسلمون ما هو فيه من حزن، ذكروه بما كان ينهى عنه من حزن. فقال: ما عن الحزن نهيت، وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء. وإن ما ترون بي أثر ما في القلب من محبة ورحمة».

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس. فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، وسمعهم النبي فخطبهم قائلًا: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة». أي دليل على صدق نبوة محمد أصدق من هذا الدليل؟ فلو أنه كان مدعيا لانتهز هذه الفرصة،

وأخبرهم أن الشمس حزينة لموت ابنه. أو على الأقل كان سكت حتى يصدق المسلمون هذه المقولة. ولكن لأنه رسول الله حقًّا سارع إلى تكذيب ذلك، وبين لهم حقيقة الأمر، وما يجب عليهم عمله إذا حدث مثل ذلك.

بناته:

زينب:

وهي كبرى بناته تزوجت من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع قبل بعثة الرسول فلما جاء الإسلام أسلمت، ولكن زوجها لم يسلم، وحاول أهله حمله على تطليقها فأبى واستمرت معه – وكان الرسول وهو في مكة لا يستطيع التفريق بينهما – وقاتل زوجها ضد المسلمين في بدر وأسر. فلما افتدى المشركون أسراه أرسلت زينب فداء زوجها وكان في الفداء قلادة أهدتها لها أمها عند زواجها. فلما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة. وقال لأصحابه. إن شئتم أن تردوا لها أسيرها، وتردوا لها فداءها فافعلوا فوافقوا مقدرين هذه المشاعر الكريمة. وقد طلب الرسول من زوجها أن يردها إلى المدينة وأرسل الرسول زيد بن حارثة وآخر ليحضراها. وأمرهما أن ينتظرا زينب في مكان محدد عينه لهما. وخرج بزينب أخو زوجها ليسلمها إليهما. ولكن خرج عليه في الطريق اثنان من المشركين حاولا منعه، وأفزعا زينب فأجهضت وكانت حاملا. وتدخل أبو سفيان فطلب من أخي زوجها أن يعود بها. وعندما تهدأ الأمور يخرج بها سرًّا لا نهارًا كما فعل أول مرة. وبعد أيام خرج بزينب وتلقاها زيد بن حارثة ومن معه وعادا إلى المدينة. وكان لهذا الحادث أثر في صحة زينب أدى إلى وفاتها بعد سنين.

وذات مرة كان أبو العاص عائدا إلى مكة في تجارة لقريش فلما مرَّ قريبًا من المدينة خرج عليه بعض المسلمين فاستاقوا القافلة. وهرب أبو العاص. فلما كان المساء لجأ إلى بيت زينب. وعند صلاة الفجر في المسجد صرخت زينب من مكان

النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع. فلما انتهت الصلاة أقبل الرسول على الناس فقال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا نعم. فقال: والذي نفس محمد بيده، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم. إنه يجير على المسلمين أدناهم». ثم انصرف فدخل على ابنته فقال: «أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له».

ثم بعث إلى السرية التي أخذت القافلة فقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالا. فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك. وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به. فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه».

ولأقف هنيهة لأسجل هذا الموقف العظيم الذي يكشف عن طبيعة الرسول العظيم فهي طبيعة غير مستبدة. وإن كانت مكانته كرسول من الله لا ينطق عن الهوى. ومركزه كقائد أعلى للجيش، وحاكم للمسلمين يعطيانه الحق أن يفعل ما يشاء دون استئذان. ولكنه دائما كان يستأذن المسلمين في أي أمر يخصهم. دون أن يحملهم على هذا قسرًا. وقد مضى مثل ذلك عند الحديث عن القلادة واستئذانه المسلمين في ردها. فالرسول في غير أمر الله يعتبر نفسه واحدًا من المسلمين لا يفتات عليهم في شيء.

أخذ أبو العاص أمواله، ورجع إلى مكة، فردها إلى أصحابها. ولما فعل ذلك أعلن إسلامه وعاد إلى المدينة مهاجرًا مسلمًا. وكان ذلك قبيل فتح مكة. وقد ماتت زينب بعد ذلك بقليل من أثر ما أصابها في أثناء هجرتها.

رقية:

وكانت مخطوبة لعتبة بن أبي لهب. فلما بعث رسول الله، وأنزل عليه «تبت يدا أبي لهب» قال أبو لهب لابنه: «رأس من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته» ففارقها ولم يكن قد دخل بها. وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة. وتزوجها عثمان بن

عفان. وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين. وكانت قد أسقطت من عثمان سقطا. ثم ولدت بعد ذلك عبد الله، وبلغ ست سنين فنقر ديك في وجهه ومات. ولم تلد له بعد ذلك. وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله يتجهز إلى بدر، فترك معها زوجها عثمان يمرضها. وتُوفيت ورسول الله ببدر.

أم كلثوم:

وكانت مخطوبة أيضًا لعتيبة بن أبي لهب أخي عتبة ثم أمره أبوه بفراقها لنفس السبب الذي أمر أخاه من أجله فراق رقية. ولتنفيذ خطة قريش في شغل محمد ببناته عندما قال قائلهم: لقد فرغتم محمد للدعوة حينما تزوجتم بناته وتركتموه خالي البال. وأسلمت أيضًا مع أمها، وهاجرت إلى المدينة. فلما توفيت رقية تزوجها عثمان. ومن أجل هذا سمي ذو النورين. وتوفيت في حياة النبي في شعبان من سنة تسع.

فاطمة:

وهي صغرى بناته، وهي الوحيدة التي بقيت بعده. وقد ولدت قبل البعثة بخمس سنوات وتزوجت علي بن أبي طالب بعد الهجرة. وولدت له أولاد أشهرهم الحسن والحسين أحب آل البيت للمسلمين. وكان الرسول يؤثرها بحبه. وقد غضب غضبًا شديدًا عندما علم أن عليا سيتزوج من ابنة أبي جهل عليها. فخطب الناس وأعلن أن فاطمة بضعة منه وأن ما يؤذيها يؤذيه. وأنه لن يسمح بهذا الزواج وقد استجاب علي لذلك. وفي أثناء مرض الرسول كانت تبكي بجواره، فأسر إليها قولا فضحكت. فلما سئلت ما الذي أضحكها قالت: لقد أخبرني أبي أني سألحق به عما قريب. وماتت بعده بشهور قليلة.

الأدب الواجب اتباعه في حضرة الرسول ﷺ

رسول الله ﷺ أعلى مقامًا، وأعز مكانة من أي بشر آخر وقد أشاد الله برسوله في بعض آيات القرآن، وبين الجزاء العظيم الذي يدخره له، فأجره عند الله دائم لا ينقطع كما يقول في سورة القلم ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣]. وأن عطاء الله له الجزيل سيرضي رسوله كما جاء في سورة «الضحى»: «ولسوف يعطيك ربك فترضى»[(١)]. وذكر الله أنه – سبحانه وتعالى – وملائكته يصلون على النبي. وطلب من المسلمين أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما. كما جاء في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[(٢)]. يقول المفسرون: «الصلاة من الله رحمته ورضوانه. ومن الملائكة: الدعاء والاستغفار. ومن المسلمين: الدعاء والتعظيم لأمره.

هذا المقام العالي لا بد أن يراعى في مخاطبته، وفي حضرته كل ما يوحى بتعظيمه وتوقيره وقد نبه الله المسلمين إلى أن نداءهم للرسول ينبغي أن يختلف عن نداء بعضهم بعضا فإذا كانوا ينادي بعضهم بعضا باسمه المجرد فيقول: يا فلان. أو بكنيته: يا أبا فلان. فلا ينبغي أن يكون ذلك للرسول. بل ينبغي أن ينادي بصفته فيقال: يا نبي الله، يا رسول الله.

يقول الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وقد نهى الله في سورة الحجرات المؤمنين عن بعض عادات لا ينبغي أن تتبع مع الرسول فمن ذلك عدم سبق الرسول ﷺ بقول أو فعل. فلا يتكلم أحد قبل كلامه، ولا يبدأ السير قبل سيره، ولا يمد يده إلى طعام قبل أن يمد يده إلى غير ذلك

---

(١) الآية (٥).
(٢) الآية (٥٦).

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ١].

ومنها عدم رفع الصوت في حضرته، وألا يكون صوت أحدهم أعلى من صوته. وألا يكون جهرهم بالحديث معه كعادته مع أقرانهم في النداء بالأسماء المجردة.

وحذرهم أن فعل ذلك سيؤدي إلى إبطال ثواب عملهم دون أن يشعروا لأنهم لا يظنون أنهم أتوا منكرا بحديثهم ذلك.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢].

ثم يمتدح الله الذين يلتزمون بهذا الأدب، فيخفضون أصواتهم عند رسول الله، ويصفهم بأنهم هم الذين أخلصوا لله قلوبهم للتقوى، وجعلها صفة راسخة فيهم. وجزاؤهم في الآخرة صفح عن ذنوبهم. وثواب عظيم في جنات النعيم.

ثم ذم الله جفاة الأعراب الذين يجيئون من البادية فيزعجون الرسول وهو في بيته، وينادونه من وراء حجراته. فيصفهم بأن أكثرهم لا يفهم. ولو كانوا يفهمون لصبروا حتى تخرج إليهم. وكان ذلك خيرا لهم. والله – مع ذلك – سيغفر ذنوبهم ويرحمهم لحملهم يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[1].

[1] الآيات (٣-٥).

الاستئذان وأدب حضور الوليمة عند رسول الله:

عندما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش أَوْلَمَ، ودعا الناس بحضور الوليمة. فلما فرغوا من الطعام، وانصرف أكثر الناس بقى بعض الثقلاء يتحدثون، وزينب مولية وجهها نحو الحائط. [وذلك قبل أن يضرب على زوجاته الحجاب] فتركهم الرسول وخرج مع أنس فدار على بيوت نسائه، يسأل عنهن، فهنأنه بزواجه ثم عاد إلى بيت زينب. فوجد هؤلاء الثقلاء كما هم. فتركهم وخرج ثانية، فأحسوا – أخيرًا – بضيق الرسول بهم. كذلك كان بعض المسلمين يتحينون طعام النبي فيذهبون بغير دعوة، والطعام لم ينضج بعد فيظلون حتى ينضج، وبعد أن يطعموا يمكثون وقتًا للحديث. فنهاهم الله عن كل ذلك. فليس لهم أن يدخلوا بيوت النبي إلا أن يأذن لهم في الحضور للطعام، ولا يحضرون قبل نضجه، وعندما يطعمون ينصرفون دون البقاء للحديث. وبين الله لهم أن فعلهم ذلك كان فيه إيذاء للرسول، وكان الرسول يستحي أن يخبرهم بذلك ولكن الله لا يستحيي من الحق. كما طلب منهم إذا سألوا نساء الرسول شيئا سألوه من وراء حجاب [وقد مضى ذكر آية الحجاب وشرحها].

يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ[١] وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾[الأحزاب: ٥٣].

كذلك طلب الله من المؤمنين – إذا كانوا في اجتماع مع الرسول يناقشون بعض القضايا – ألا يتركوا الرسول دون استئذانه، وموافقته على ذهابهم. ولا يفعل

---

(١) غير منتظرين وقت نضجه.

ذلك إلا المؤمن الصادق الإيمان. وقد طلب الله من رسوله أن يأذن لهم، ويستغفر لهم الله بسبب اضطرارهم للخروج. ثم يحذر المنافقين الذين يتركون الاجتماع دون إذن بل يخرجون متسللين يستتر بعضهم ببعض بأن الله يعلم أمرهم. وإذا استمروا على ذلك تعرضوا لعقاب الله.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور: ٦٢ – ٦٣].

مناجاة الرسول:

وتعظيمًا لمقام الرسول أمر الله المؤمنين إذا أرادوا مناجاته أن يتصدقوا على الفقراء ببعض مالهم قبل المناجاة. ومن لم يجد ليغفر الله له. ثم خفف الله عن المؤمنين هذا الأمر عندما خشوا أن يؤدي هذا إلى فقرهم، وطلب منهم أن يداوموا على الصلاة والزكاة وطاعة الرسول وقد تاب الله عليهم. فهو خبير بكل ما يعملونه.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾[المجادلة: ١٢ – ١٣].

❁❁❁

حجة الوداع (١٠هـ)

وهي الحجة الوحيدة التي حجها رسول الله ﷺ. وقد سميت حجة الوداع لأنه في خطبته ودع الناس. وتسمى أيضًا حجة الإسلام، لأنها الفريضة التي أداها الرسول، والتي يوجب الإسلام على كل قادر أداءها. كذلك تسمى حجة البلاغ لأن الرسول أبلغ المسلمين فيها مبادئ الإسلام.

وقد أدى الرسول هذه الحجة بعد أن انتشر الإسلام في كل أرجاء الجزيرة، وأقبل العرب على الرسول من كل فج يدخلون في دين الله أفواجًا. إلا مناطق قليلة كانت تتشبث بمالها من سيادة في الجاهلية مثل اليمن التي أرسل إليها رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب قبل توجهه إلى الحج.

وقد أعلن الرسول في العرب عن عزمه الحج هذا العام فأقبلوا إليه من كل فج عميق يريدون أن يحظوا بشرف مشاركة الرسول الحج حتى ضاقت بهم المدينة. وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة خرج هذا الجمع الزاخر الذي يقدره بعض المؤرخين بتسعين ألفا، وبعضهم يجاوز به المائة. خرجوا متوجهين إلى الحج، وقد ساق الرسول معه الهدي، مائة بدنة، فلما كانوا بذي الحليفة أحرم الرسول والمسلمون، ولبسوا ملابس الإحرام، وانطلقت حناجرهم تدوي في الصحراء: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» وقد سالت بهم الصحراء في ملابسهم البيضاء البسيطة. منظر يثير الخشوع في النفس، والإعجاب بهذه العقيدة النقية الطاهرة.

ولما كان الرسول بسرف، وهي محلة قريبة من مكة، أمر من لم يَسُقْ معه الهدي أن يؤدي العمرة ثم يحل، إلى أن يحين موعد الحج فيحرم ثانية للحج. وكان الرسول قد ساق معه الهدي – كما عرفنا – ودخل الجمع الزاخر مكة التي كانت إلى عهد قريب معقل الشرك والوثنية. دخلوا يهتفون: الله أكبر، أو يلبون الله. والرسول ﷺ يقودهم، ويبين لهم مناسكهم. فلما أتموا العمرة أحل من لم يكن

معه هدي على مضض. فقد كانوا يودون لو ظلوا على إحرامهم، لولا أمر رسول الله الجازم. وأحلت أيضًا نساء رسول الله اللائي ذهبن جميعًا معه، كما أحلت بنته وفي هذه الأثناء حضر علي من اليمن، بعد أن أنجز ما أمره به رسول الله. فلما دخل على زوجه فاطمة وجدها قد أحلت. فقال لها: ما هذا يا بنت رسول الله؟ قالت: لقد أمرنا رسول الله بأن نحل فذهب إلى رسول الله، فأخبره بما فعله في اليمن. فقال له الرسول: اذهب فأد عمرتك ثم أَحِلّ. فقال على: لقد أحرمتُ بما أحرمتَ به فقلت: إني أهل بما أهل به رسول الله. فقال له: وهل معك من الهدي شيء؟ قال: لا. فأشركه معه في الهدي وظل عليٌّ على إحرامه.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة توجه الرسول إلى مني هو والمسلمون، بعد أن أحرم منهم من كان قد أحل. وباتوا بمنى. وفي يوم التاسع ذهبوا إلى عرفة حيث خطبهم رسول الله خطبة الوداع عند وقت الظهر. وكان يخطبهم وهو راكب ناقته القصواء، ويردد كلماته بصوت جهير ربيعة بن أمية بن خلف.

خطبة الوداع:

قال بعد حمد الله والثناء عليه: أيها الناس اسمعوا قولي: فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا الموقف أبدًا .. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلَّغْتُ. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع. ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. وإن كل دم في الجاهلية موضوع. و إن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا. ولكنه إن

يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. يأيها الناس، إن النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله. فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية [ذو القعدة وذو الحجة والمحرم] ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقًّا، ولهن عليكم حقا. لكم عليهن ألا يُوطئنُ فرشكن أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وأن تضربوهن ضربًا غير مبرح. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عوان عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا – أيها الناس – قولي؛ فإني قد بلَّغْت. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبدًا، أمرًا بينًا، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه. تعلمُنَّ أن المسلم أخٌ للمسلم. فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه. فلا تظلْمنَّ أنفسَكم. اللهم، هل بلغت؟» فقال الناس: «اللهم نعم» فقال الرسول: «اللهم اشهد».

وكان الرسول عندما يسأل الناس في خطبته ينتظر حتى يردوا عليه تأكدًا من سماعهم ما يقول.

نظرات في خطبة الوداع:

١ – لقد تضمنت خطبة الوداع أهم مبادئ الإسلام في تعامل الناس بعضهم مع بعض فحرمت القتل والسرقة، كما حرمت الربا والأخذ بالثأر وحذر من الشيطان الذي يئس من نجاحه في رد المسلمين إلى الشرك بالله والوثنية لترَسُّخ الإسلام في الصدور ولكنه لا زال يطمع في إغوائهم بالمعاصي

التي هي أقل من ذلك.

٢- حرمت الخطبة النسيء وهو عادة كان يتبعها العرب بتأخير بعض الأشهر الحرم إلى شهور أُخَر حلال ليستمروا في حروبهم، أو يغيروا على غيرهم فيها - فيؤخرون المحرم إلى صفر - مثلا - فيصبح المحرم شهر حل، ويصبح صفر هو الشهر الحرام. وكان هناك مسئول عن هذا من سادات العرب يلجئون إليه لتغيير ما يريدون. وقد جاء تحريم الله للنسيء في سور التوبة التي تلاها عليٌّ على الناس في العام السابق.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ (١) عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧ ﴾

[التوبة: ٣٧].

وقد ذكر الرسول أن الزمان في هذا العام الذي يحج فيه وافق الزمن الصحيح الذي وضعه الله يوم خلق السموات والأرض.

٣- كذلك بينت الخطبة حق الزوجات على الأزواج وحق الأزواج على الزوجات بطريقة متوازنة، لا يطغى فيها طرف على آخر. وطلب من الرجال الاستيصاء بالنساء خيرًا سواء أكن زوجات أم بنات أم أخوات لأنهن كن بحكم الوضع الذي كان سائدًا كالأسرى، حبيسات البيوت لا يمكن من أمر أنفسهن شيئًا.

٤- مما يلفت النظر في هذه الخطبة أن الرسول حينما ألغى الربا جعل أول ربا يلغيه هو الربا الذي كان يتعامل فيه عمه العباس بن عبد المطلب، وحينما حرم الأخذ بالثأر كان أول ثأر حرمه هو ثأر ابن عمه ربيعة بن الحارث بن

---

(١) ليوافقوا.

عبد المطلب. وهذا يلفتنا إلى أن الحاكم أو المسئول عن إدارة عمل ما إذا أراد أن ينفذ أمره لا بد أن يبدأ بنفسه وأهله في تنفيذ هذا الأمر لأنه هو القدوة للرعية وللعاملين معه.

٥- وأخيرًا فإن الوصية الخالدة هي الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله، ومعنى الاعتصام بهما هو العمل بما جاء فيهما، وعدم الانحراف – عن منهجهما. هذا هو طريق الرقي والتقدم والانتصار. ولن يتحقق لنا شيء من ذلك طالما نحن بعيدون عن الاعتصام بهما.

بعد هذه الخطبة أتم الرسول مناسك حجة، فذهب إلى المزدلفة بعد غروب الشمس، وصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير – وكان قد صلى الظهر والعصر بعرفة جمع تقديم – وبعد صلاة الفجر بمزدلفة توجه الرسول والمسلمون إلى منى فرموا جمرة العقبة وحلقوا أو قصروا – ونحر الرسول هديه، وكذلك فعل من ساق الهدي وبعد أيامٍ رَمْيِ الجمار توجهوا إلى مكة فأتموا الركن الأخير في الحج وهو طواف الإفاضة.

وقد أنزل الله في حجة الوداع قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]

يقول المفسرون: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: «يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرءونها لو علينا أنزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا» قال: وما هي؟

قال: «اليوم أكملت لكم دينكم..» فقال عمر: «إني لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه؛ نزلت على رسول الله ﷺبعرفة يوم الجمعة». وروي أنها لما نزلت وقرأها الرسول ﷺبكى عمر. فقال الرسول: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: أبكاني أنَّا كنَّا في زيادة من ديننا. فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. فقال النبي: «صدقت».

مرض الرسول ووفاته

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة، بعد الحج في أواخر ذي الحجة وهو قرير العين بما أنعم الله من انتشار الإسلام، ودخول الناس فيه أفواجا كما وعده الله، وأخذ يسبح بحمد الله ويستغفره امتثالًا لأمره في سورة النصر.

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾

ولم يكن يقلقه ادعاءات بعض الكَذَبَةِ النبوة، مثل مسيلمة في بني حنيفة والأسود في اليمن، وطليحة في بني أسد فهذه حركات عصيان وتمرد ما أسرع ما يمكن قمعها. ولكنه يفكر في شمال الجزيرة العربية حيث الخطر الرابض المتمثل في الروم. لقد واجه الروم مرتين: مرة في مؤتة ولم يكن يقود الجيش، ونشب قتال بين الطرفين لم يكن فيه منتصر. ثم قاد الرسول جيشًا إلى تبوك لم يرد الروم مواجهته خوفًا من أن تُلحق بهم هزيمة. وعاد الرسول بجيشه دون أن يواجه الروم في معركة ولكنه يريد أن تطأ جيوشه أرض الروم ليحسوا بوطأة المسلمين عليهم. فأعد جيشًا أمَّر عليه أسامة بن زيد. وكان شابا دون العشرين، وكان تحت قيادته كبار المهاجرين والأنصار وعلى رأسهم أبو بكر وعمر. ولعل الرسول كان يرمي من وراء اختيار أسامة إلى هدفين: الأول أن يشعر الجميع أن هذه معركة ثأرية فالقائد فيها هو ابن القائد المقتول. والهدف الآخر هو تدريب الشباب على القيادة، وفتح أبواب الأمل أمامهم، وإشعار المسلمين أن السن والسابقة إلى الإسلام وحدهما ليسا معيار الاختيار لقيادة الجيوش أو الإمارة. وأمر الرسول أسامة أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين. فتجهز الناس، وتحرك الجيش. ولكنه لم يكد يغادر المدينة حتى انتشر بين الناس خبر مرض الرسول. فعسكر أسامة بجيشه في مكان قريب من المدينة يقال له: «الجرف» في انتظار ما تسفر عنه الأيام.

وكانت بداية مرض الرسول ﷺ في أواخر صفر. ويحكى أبو مويهبة مولى رسول الله ﷺ عما حدث في الليلة التي سبقت مرض رسول الله ﷺ يقول: أيقظني رسول الله وقال: انطلق معي إلى المقابر، فإني قد امرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلقت معه. فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها. الآخرة شر من الأولى». ثم أقبل علي فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. قال: فقلت: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة. فقال: لا، والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة. ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف. فبدأ به وجعه الذي قبضه الله فيه.

وتكمل السيدة عائشة رواية أبي مويهبة فتقول: رجع الرسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعًا في رأس وأقول: وارأساه! فقال: بل أنا والله يا عائشة «وارأساه» قالت: ثم قال: «وما ضرَّكِ لومتَ قبلي، فقمت عليك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك؟ فقلت: والله، لكأني بك، لو فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك فتبسم رسول الله.

حتى في هذه الساعة التي يعاني فيها من الألم لا تتخلى عنه دعابته الرقيقة لنسائه. ولا تتخلى عن زوجته المحبوبة غيرتها.

وقد حرص الرسول على أن يسوي بين نسائه وهو مريض، يدور عليهن فيبيت عند كل واحدة ليلتها، حتى اشتد بها المرض، واستأذن نساءه أن يمرض عند السيدة عائشة. و قد ذكرت قبل ذلك رواية عن السيدة عائشة: أنه كان يسأل كل يوم أين أنا الليلة؟ يتعجل ليلة عائشة فأعفينه من المبيت عندهن وأقام عند السيدة عائشة. ولا مانع أن يكون الأمران قد حدثا.

وكان رسول الله ﷺ في أول مرضه يصلي بالناس، فلما اشتد به وجعه قال:

مروا أبا بكر فليصل بالناس. وقد راجعته السيدة عائشة قائلة: إن أبا بكر يغلبه التأثر فيبكي في أثناء القراءة فلا يسمعه الناس. ولكن الرسول أصر على أن يصلي أبو بكر بالناس.

وقد خرج الرسول ﷺ إلى الناس بالمسجد مرتين أو ثلاثا. فعندما استبطأ خروج جيش أسامة، وبلغه أن بعض الصحابة – ربما من المنافقين – ينتقدون توليه القيادة لصغر سنه على شيوخ المهاجرين والأنصار. فخرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أنفذوا بعث أسامة فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله. وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقا لها». فخرج جيش أسامة ولكنه عسكر بالجرف كما ذكرت سابقًا.

ولما اشتد به وجعه قال لأهله: أحضروا سبع قرب (ماء) من آبار شتى، ثم صبوها علي؛ فإني أريد أن أخرج فأعهد إلى الناس ففعلوا ذلك. فخرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر فكان أول ما تكلم به أنه صلى[1] على أصحاب أحد، واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم.

ثم قال: إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده. فاختار ما عند الله ففهمها أبو بكر، وعرف أنه يريد نفسه فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا فقال: على رسلك يا أبا بكر. ثم قال: انظروا هذه الأبواب النافذة إلى المسجد فسدوها إلا باب أبي بكر، فإني لا أعلم أحدًا كان أفضل في الصحبة عندي يدًا منه. ولو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا. ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمعنا الله عنده. ثم قال: يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا؛ فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد. وإنهم كانوا

---

[1] دعا لهم.

عَيْبتي[١] التي أويت إليها. فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم. ثم نزل فدخل بيته.

وقد حاول نساؤه وبعض نساء المسلمين وعمه العباس أن يعالجوه بالدواء على طريقة يعرفونها – وهي أن يلدُّوه أي يضعوا الدواء في شق فمه – فلَدُّوه. فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: من صنع هذا بي؟ قالوا: يا رسول الله عمك. قال العباس: هذا دواء أتى به نساء جئن من الحبشة. فقال الرسول: ولم فعلتم هذا؟ قال عمه: خشينا أن يكون بك ذات الجنب. قال: إن ذلك الداء ما كان الله عز وجل ليقذفني به. لا يبق في البيت أحد إلا لُدَّ إلا عَمى [توقيرًا لعمه واحترامًا لمقام أبوته] فلُدَّ النساء جميعًا عقوبة لما صنعوا به.

ولما كان يوم الاثنين الذي قُبض فيه الرسول خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح فرفع الستر، وفتح الباب، ووقف على باب عائشة فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه. فأشار إليهم أن أتموا صلاتكم. وتبسم رسول الله سرورًا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم. يقول أنس بن مالك: وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة منه تلك الساعة. ولما أحس أبو بكر بحركة المسلمين عرف أنه رسول الله فأراد أن يرجع عن مكان الإمام. فدفع الرسول في ظهره وقال: صلِّ بالناس. وصلى الرسول بجنبه جالسًا. ثم رجع، وانصرف الناس وهم يرون أنه قد برئ من وجعه. ورجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح [ضاحية خارج المدينة].

وتقول السيدة عائشة: كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما أسمعه يقول: «إن الله لم يقبض نبيًّا حتى يخيره. فلما حضرته الوفاة كان آخر كلماته سمعتها منه وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة» فقلت: إذن والله لا يختارنا. وكان عندما رجع من المسجد اضطجع في حجري، فدخل عليَّ رجل من آل أبي بكر، وفي يده سواك أخضر فنظر رسول الله ﷺ إليه في يده نظرًا عرفت أنه يريده. فأخذته

(١) موضع ثقتي.

فمضغته له حتى لينته» ثم أعطيته إياه. فاستاك به كأشد ما رأيته يستاك بسواك قط، ثم وضعه. ووجدت رسول الله يثقل في حجري. فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص.. وقُبض رسول الله ﷺ. فمن سفهي وحداثة سني وضعت رأسه على وسادة، وقمت أضرب صدري مع النساء، وأضرب وجهي.

أثر سماع نبأ موته في المسلمين:

لما أذيع خير موت رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي. وإن رسول الله ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: إنه قد مات. ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات. والتف المسلمون حول عمر، وهم يميلون إلى تصديقه، ويجدون في كلامه أملًا حبيبًا إلى نفوسهم، فلن يطيقوا فراق رسول الله، ولن تتحمل أنفسهم صدمة موته.

ولكن أبا بكر يقبل، فقد بلغه الخبر وهو بالسنح، فلا يلتفت إلى عمر ومن حوله بل يمضي قدمًا إلى بيت الرسول ﷺ. ثم يعود إليهم بعد قليل وعمر ما زال يكلم الناس. فقال: على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى إلا أن يتكلم فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس. فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فقال لهم: أيها الناس إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤]. يقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها حتى أخذتني الحيرة والدهش حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.

تجهيز الرسول ودفنه:

توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة. وقد تولى غسله رجال من أهل بيته كما أوصى عليه الصلاة والسلام وهم العباس عمه و علي بن أبي طالب والفضل وقثم ابنا العباس وأسامة ابن زيد وشقران مولاه. وقد غسلوه من فوق قميصه لم تمس أيديهم جسده. وقال علي بن أبي طالب: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أطيبك حيًّا وميتًا ولم ير من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت. فلما فرغ من غسله كفن في ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين وبرد حبرة أدرج فيه إدراجًا.

فلما فرغ من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته، ثم أذن للناس بالدخول. فكانوا يدخلون جماعة بعد جماعة يصلون على رسول الله ﷺ دخل الرجال أولا، حتى إذا فرغوا أدخل النساء. حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان. ولم يؤم الناس على رسول الله أحد.

وقد اختلف في مكان دفنه. فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل بل ندفنه مع أصحابه. فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض»، فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفى عليه، وحفر تحته. ونزل أبو طلحة زيد بن سهل الذي كان يلحد لأهل المدينة فشق له لحدًا ودفنه فيه. وكان ذلك ليلة الأربعاء. تقول السيدة عائشة: «ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساعي من جوف الليل من ليلة الأربعاء، وكان الذين نزلوا قبر رسول الله ﷺ لدفنه علي بن أبي طالب والفضل وقثم ابنا عباس وشقران مولى رسول الله ﷺ

وهكذا غاب السراج الوهاج الذي بعثه الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. بعد أن غمر نوره البشرية كلها، وأعلى كلمة الله في الأرض. ونشهد أنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقام بأمر الله خير قيام. ﷺ تسليما كثيرا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع

الكتاب	المؤلف
تفسير الطبري	ابن جرير الطبري
تفسير القرطبي	القرطبي
تفسير ابن كثير	الحافظ ابن كثير
تفسير الجلالين	المحلي و السيوطي
في ظلال القرآن	سيد قطب
صفوة التفاسير	محمد علي الصابوني
السيرة النبوية	ابن هشام
حياة محمد	الدكتور محمد حسين هيكل
صور من حياة الرسول	أمين دويدار
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد



